تأليف دكتور عبد العزيز عبد المعطي عرفه

مِنْ بَلاغةِ النَّظْمِ العَرَبِيّ

دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني

الجزء الثاني

عالم الكتب

مِنْ بَلاغةِ النَّظْمِ العَرَبِيّ

دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني

تأليف
دكتور عبد العزيز عبد المعطي عرفه

الجزء الثاني

عالم الكتب

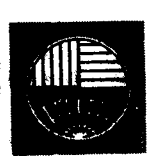

بيروت - المزرعة بناية الايمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً : نابعلبكي - تلكس : ٢٣٣٩٠

الطبعة الثانية
١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م

مُقَدِّمَة

بِسْمِ اللهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ

وَبَعْدُ ...

فيسعدني أن أقدم لأبناء اللغة العربية ـ الجزء الثاني من كتاب « من بلاغة النظم العربي » كسابقه الجزء الأول من هذا الكتاب ـ تقرباً إلى الله ، ثم خدمة للغة القرآن المجيد ، وإسهاماً صادقاً في نهضة النقد الأدبي وازدهاره .

أملنا أن يتكون الذوق الأدبي السليم ، ويعود الطبع اللغوي العربي الأصيل ، فتتمكن أجيالنا من تذوق الكلمة الحلوة والعبارة الجميلة التي تؤثر في النفس ، فتهز القلوب ، وتحفز على العمل ، فترقى الأمة ، ويسعد المجتمع .

وقد اشتمل الجزء الأول على تمهيد تَحدَّث عن تاريخ النظم العربي ، وعن مقاييس الفصاحة والبلاغة ، وعلى أربعة فصول من الباب الأول الذي يتحدث عن « علم المعاني » .

وهذا « الجزء الثاني » الذي بين يديك . يتحدَّث ـ بعون الله ـ عن بقية فصول الباب الأول ، وهي : الفصل الخامس الخاص بأسلوب القصر ، ويأتي بعده « الفصل السادس » الذي يتحدث عن أسلوب الإنشاء ، ثم يلقانا « الفصل السابع » ونعرض لك فيه أحوال الفصل والوصل ، وأخيراً يأتي

« الفصل الثامن » وندرس فيه ظاهرة « الإيجاز والإطناب والمساواة » وبهذا ينتهي هذا الجزء .

والله جل وعلا ـ يمنحنا الجزاء الأوفى بحسن نيتنا ، وشرف مقصدنا ، وهو ـ وحده ـ الهادي إلى سواء السبيل .

المؤلف

د. عبد العزيز عبد المعطي عرفه

مدينة نصر :
غرة رجب سنة ١٤٠١ هـ
٥ من مايو سنة ١٩٨١ م

الفَصْلُ الخَامِسُ

أسلوب القصر

لعل الشيخ عبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ٣٧١هـ أو ٤٧٤هـ هو أول من تحدَّث عن أسلوب القصر حديثاً بلاغياً . فقد عرض له في كتابه القيم « دلائل الإعجاز » وهو بصدد الحديث عن « إنَّ » إذا اتصلت بها « ما » فنقل عن أبي علي الفارسي قوله : **﴿ إنَّ ناساً من النحويين يقولون : في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾**[1] المعنى : (ما حرم ربي إلا الفواحش) أي أنّ « إنما » بمعنى : « ما » و« إلا » .

ونقل الشيخ أيضاً ما استدل به أبو علي الفارسي على صحة قول النحويين ، وعلّق عليه بقوله : « لم يعنوا بذلك أن المعنى في هذا هو المعنى في ذلك بعينه ، وأن سبيلهما سبيل اللفظين يوضعان لمعنى واحد ، وَفَرْق بين أن يكون في الشيء معنى الشيء ، وبين أن يكون الشيء الشيء على الإطلاق ، فليس كل كلام يصلح فيه « ما » و« إلا » يصلح فيه « إنما » ، ألا ترى أن « إنما » لا تصلح في مثل قوله تعالى: **﴿ وَمَا مِن إله إلاَّ الله ﴾**[2] ، ولا في نحو قولنا : « ما أحد إلا وهو يقول ذاك » إذ لو قلت : إنما من إله الله ،

---

(١) سورة الأعراف ، آية ٣٣ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٦٢ .

وإنما أحد وهو يقول ذاك » ، قلت : ما لا يكون له معنى ، وسبب ذلك أن لفظ « أحداً » لا يقع إلا في النفي ، وما يجري مجرى النفي من النهي والاستفهام ، وأن « من » المزيدة في : ((ما من إله إلا الله)) لا تكون إلا في النفي ، وهذا دليل على أن « ما وإلا » و« إنما » ليسا سواء ، لأنهما لو كانا سواء لكان ينبغي أن يكون في « إنما » من النفي مثل ما يكون في « ما وإلا » .

وتقول : « إنما هو درهم لا دينار » فيصلح فيه « إنما » ولا يصلح فيه « ما » و« إلا » فلا يقال : « ما هو إلا درهم لا دينار » لأنَّ « لا » النافية لا تجامع النفي والاستثناء كما سيأتي .

ثم مضى الشيخ عبد القاهر يفصل القول في « إنما » فيوضح مواضعها وكذلك « ما وإلا » ، وطريق « العطف » ،و« التقديم » وغيرها .

وتراه يحلل الأمثلة ، ويميِّز الفرق بينها . كل ذلك بذوق بلاغي دقيق ، وحسن بياني منقطع النظير[1] .

ثم جاء البلاغيون من بعده فنهلوا من منهله ، وحددوا القصر تحديداً دقيقاً ، وقسموه أقساماً غير أنهم أهملوا بعض تحليلات الشيخ لبعض الأمثلة الشعرية والنثرية .

هذا . . . والقصر فن دقيق المجرى لطيف المغزى جليل المقدار ، كثير الفوائد ، غزير الأسرار ، يستعمله الأديب ليأتي أسلوبه مصوَّراً قوياً يوحي إلى القارىء بمعان شتى ، فقول الأديب لمخاطب : « إنما هو أخوك » و« إنما هو صاحبك القديم » قول لا يقال لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ، ولكن لمن يعلمه ويعترف به ، والأديب يريد أن ينبه مخاطبه بالذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب .

---

(١) أنظر دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني ص ٢١٤ وما بعدها بتحقيق المراعي .

وقديماً قال عبد الله بن قيس الرقيات ، وكان منقطعاً إلى مصعب بن الزبير كثير المدح له :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت في وجهه الظلماء

فابن الرقيات قد بالغ في مدح صاحبه حيث ادَّعى أن كون الممدوح موصوفاً بهذه الصفة هو أمر ظاهر معلوم للجميع ، وقد نشأ هذا من استعماله أسلوب القصر ، وجعل « إنما » طريقاً له .

وابن الرقيات قد جرى على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدّعوا في الأوصاف التي يذكرون بها الممدوحين أنها ثابتة لهم ، وأنهم قد شهروا بها ، وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد[1] .

وتارة تجد الأديب يرغب في تأكيد كلامه تأكيداً حاسماً ليقطع شك المخاطب ، فيستعمل أسلوب القصر ، فيقول مثلاً : « ما هو إلا مضيب » و« ما هو إلا مخطىء » مؤكداً ومقرراً الإصابة أو الخطأ .

وفي أسلوب القصر لون من الإيجاز ، والإيجاز هو البلاغة كلها ، وذلك أن جملة « القصر » تقوم مقام جملتين ، بيان ذلك أن المعهود في الجملة أن تفيد حكماً واحداً يراد به الإيجاب أو السلبْ ، فإذا قلنا : « انتصر الجيش الإسلامي في حرب العاشر من رمضان » أفادت هذه الجملة حكماً إيجابياً هو ثبوت النصر للجيش الإسلامي ، أما إذا قلنا : « لم ينتصر الجيش الإسرائيلي في حرب العاشر من رمضان « أفادت هذه الجملة حكماً سلبياً هو نفي النصر عن الجيش الإسرائيلي .

وترى الأديب يؤدي هذين الحكمين المختلفين إيجاباً وسلباً في جملة واحدة فيقول : « ما انتصر في حرب العاشر من رمضان إلا الجيش

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢١٧ .

الإسلامي » ، فقد أفادت هذه الجملة معنى الجملتين السابقتين ، وهو إثبات النصر للجيش الاسلامي ونفيه عن الجيش الاسرائيلي ، وواضح أن جملة واحدة أوجز من جملتين . إلى غير ذلك من الأغراض التي يرمي إليها الأديب من إيراد أسلوب القصر في قوله الفني الجميل ، والتي ستقابلنا عند تحليل أمثلة القصر بمشيئة الله .

ودراسة أسلوب القصر دراسة علمية دقيقة ، لازمة للأديب والمتلقي والناقد ليتم عملية المشاركة الوجدانية ، وتتحقق المتعة والسرور ، من صياغة الأسلوب الأدبي الجميل ويأتي التأثير المنشود من مطالعة الأدب فيقبل الناس على العمل لرفعة وطنهم ودينهم وتلك ثمرة الأدب الحي .

حقيقة القصر ومعناه

القصر في اللغة : الحبس ، تقول : هذا النصر المؤزَّر مقصور على الجيش الإسلامي ، أي : محبوس عليه :

ومنه قوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَقصُوراتٌ فِي الخِيامِ ﴾[1] أي : محبوسات محجبات ، لا يتبذلن في شارع أو سوق ، والحجاب الذي يقصده الشارع ويصف به الحور العين هو البعد عن التبذل . وأنهن مقصورات على أزواجهن لا ينظرن إلى رجال غيرهن .

وفي اصطلاح البلاغيين : تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص ، فالشيء الأول هو المقصور والشيء الثاني : هو المقصور عليه .

مثال ذلك : « لا ينجح إلا المجتهد » فهذا المثال يفيد تخصيص النجاح بالمجتهد ، بمعني : أن النجاح خاص بالمجتهد لا يتعداه إلى غيره ، « فالنجاح مقصور ، و« المجتهد مقصور عليه » .

---

(١) سورة الرحمن ، آية ٧٢ .

وواضح أن منشأ هذا التخصيص أو القصر في المثال راجع إلى استعمال أداتي النفي والإستثناء في « لا ، وإلا » : وأنت إذا حذفتهما لم تجد هذا التخصيص أو القصر في المثال المذكور .

ومن هذا يتضح لنا أن الطريق المخصوص هو الطريق المعهود المعين من طرق القصر المصطلح عليها وهي : « العطف » و« النفي والاستثناء » و« إنما » و« التقديم » ، و« توسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر » و« تعريف المسند إليه أو المسند بلام الجنس » .

أقسام القصر

أولاً : ينقسم القصر باعتبار غرض المتكلم إلى حقيقي وإضافي .

فالحقيقي : أن يكون المتكلم غرضه أن يخص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره أصلاً . نحو : « ما خاتم الأنبياء والرسل إلا محمد » فإن غرض القائل : تخصيص ختم الرسل والأنبياء بمحمد ﷺ ، وقصره عليه ، بحيث لا يتعداه إلى غيره أصلاً ومنه قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيبِ لَا يَعلَمُها إلَّا هُوَ ﴾[1] المفاتح جمع مفتح بفتح الميم : وهو المخزن : أي عنده مخازن الغيب ، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة ، أو جمع مفتح بكسر الميم ، وهو المفتاح ، جعل للأمور الغيبية مفاتح ، لتكون طريقاً إلى ما في المخازن منها ، على سبيل الاستعارة أيضاً .

والمعنى : إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب ، أو المفاتح التي تكون طريقاً إلى المخازن ، ومعنى « لا يعلمها إلا هو » أنه لا علم لأحد من خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها ـ فقد قصر علم مفاتيح الغيب على الله سبحانه وتعالى قصراً حقيقياً بمعنى أن الصفة « علم مفاتيح الغيب »

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٥٩ .

لا يتصف بها أحد على الإطلاق إلا هو سبحانه .

والإضافي : أن يختص المقصور بالمقصور عليه ، بالنسبة إلى شيء آخر معين ، أي بالإضافة إليه ، بألا يتجاوز المقصور المقصور عليه إلى ذلك الشيء المعين ، وإن أمكن أن يتجاوزه إلى غيره ـ كما تقول : « ما شوقي إلا شاعر » فإن الغرض تخصيص (شوقي) بالشعر ، وقصره عليه بحيث لا يتعداه إلى شيء معين بالذات هو الكتابة مثلاً ، أي : أن له صفة الشعر لا صفة الكتابة ، وهذا لا ينافي أَنَّ له صفات أخرى كالخطابة ، والتجارة وغيرهما .

فالقصر في المثال المذكور : إنما هو بالنسبة إلى الكتابة فحسب ، أي : بالإضافة إليها ، ولهذا سمي قصراً إضافياً .

ثانياً : ينقسم القصر باعتبار الطرفين : المقصور والمقصور عليه .

إلى قصر صفة على موصوف ، وقصر موصوف على صفة .

فقصر الصفة على الموصوف : هو ألا تتجاوز الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر أصلاً ـ إذا كان القصر حقيقياً ، أو إلى موصوف آخر معين ، إذا كان القصر إضافياً .

فمثال قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً ، قولنا : « لا خالق إلا الله » قصر صفة الخلق على الله ـ سبحانه وتعالى ـ بحيث لا تتعداه إلى غيره أصلاً قصراً حقيقياً .

ومثال قصر الصفة على الموصوف قصراً إضافياً قول الشاعر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس إنني ... أرى الأرضَ تبقى والأخلاء تذهب

فقد قصر « أشكو » صفة على « إلى الله » موصوف بحيث لا تتعداه إلى شيء معين وهو « الناس » كما في البيت ومنه قولك :

« ما جواد إلا حاتم » فقد قصرت صفة الجود على حاتم بحيث لا تتعداه

إلى رجل بعينه كزيد مثلاً .

وأما قصر الموصوف على الصفة فهو ألا يتجاوز الموصوف تلكِ الصفة إلى صفة أخرى أصلاً ، إذا كان القصر حقيقياً . أو إلى صفة أخرى معينة ، إذا كان القصر إضافياً .

فمثال قصر الموصوف على الصفة قصراً حقيقياً نحو : « ما زيد إلا كاتب » إذا أريد أنه لا يتصف بغير الكتابة ، وهذا النوع لا يكاد يوجد من البليغ لتعذر الإحاطة بصفات الشيء حتى يمكن إثبات شيء منها ونفي ما عداها نفياً شاملاً بل ، هذا محال .

ومثال قصر الموصوف على الصفة قصراً إضافياً قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمسمِعٍ مَن فِي القُبورِ * إن أَنتَ إلاَّ نـذِيرٌ ﴾[1] والمعنى أنك لا تسمع الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم أي : كما لا تسمع من مات كذلك لا تسمع من مات قلبه . وما أنت إلا رسول منذر ليس عليك إلا الإنذار والتبليغ ، والهدى والضلالة بيد الله .

فالآية قصرت الرسولﷺ على صفة الإنذار ، دون أن يملك تحويل القلوب المشركة عما هي عليه من العناد والمكابرة .

والمراد بالصفة هنا الصفة المعنوية التي هي معنى قائم بالغير سواء كان فعلاً أو مصدراً أو اسماً جامداً أو مؤولاً . وليس المراد بها النعت النحوي ، لأنه لا يقع قصر بين النعت ومنعوته ، فالقصر يقتضي الفصل « بإلا » لفظاً كما في طريق القصر « ما وإلا » أو معنى كما في طريق القصر الآخر « إنما » ،والصفة ـ كما هو معلوم ـ لا تنفصل عن موصوفها .

والمراد بالموصوف هنا كل ما يقوم به غيره ، وإن كان هو في نفسه صفة

---

(١) سورة فاطر ، آية ٢٢ و٢٣ .

كما في قوله تعالى : ﴿مَا نَعبُدهُم إلاَّ لِيقَرِّبُونَـا إلى اللهِ زُلفَى﴾[1] فقد قصـرت فيه العبادة على صفة التقريب قصـر موصـوف على صفة ـ في حين أن العبـادة في ذاتها صفة قائمة بالغير .

ثالثاً : ينقسم القصر بحسب الحقيقة والادعاء إلى أربعة أقسام :

١ ـ **قصر حقيقي تحقيقي** : وهو ما كان النفي فيه عاماً يتناول كـل ما عـدا المقصور عليه ، في حقيقة الأمر وواقع الحال وذلك مثل قولنا : « ما كامـل إلا الله » فقد قصرنـا صفة الكمـال على الله سبحانـه وتعالى ، لا يتصف بهـا أحد على الإطلاق إلا هو جل وعلا . وأما الموصـوف وهو « الله » فيتصف بصفـات أخرى كالسمع والبصر والقدرة ، وكل صفات الكمال التي تليق بجلاله .

ومعنى حقيقي : أن المقصور أي ـ الصفة هنـا ـ لا تتجاوز المقصـور عليه إلى غيره أصلاً .

ومعنى تحقيقي أن هذا النفي مبني على حسب الواقع ونفس الأمر . وهذا واضح في المثال السابق حيث أن صفة الكمال لا يتصف بها أحد إلا الله .

٢ ـ **قصر حقيقي ادعائي** : وهو ما كان النفي فيه عـاماً يتنـاول كل مـا عدا المقصور عليه ، على سبيل الادعاء والمبالغة .

تـأمل قـوله تعـالى : ﴿ إنَّما يَخشَىٰ الله مِنْ عِبـادِهِ العُلَمَاءُ ﴾[2] بـرفع لفظ العلماء على أنه فاعل ـ تجد المعنى أنه لا خاشي لله إلا العلماء . فقد قصرت الآية الكريمة صفة الخشية لله على العلماء ، قصر صفة على مـوصوف قصـراً حقيقياً ادعائياً ، لأن غيرهم قـد يخشاه ، ولكن لا اعتـداد بخشيته فهي بمنـزلة العدم ، ويفيد القصر أن العلماء هم الذين يراقبون الله ويعظمون شأنه من بين

---

(١) سورة الزمر ، آية ٣ .

(٢) سورة فاطر ، آية ٢٨ .

سائر الخلق ـ لظهور دلائل قدرته لهم ، ووقوفهم على أسرار حكمته وتدبيره .

ويقول الشاعر :

لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي

فهو يريد إثبات القوة والمضاء لذي الفقار « وهو سيف سيدنا علي » ويريد نفي القوة والمضاء عن كل سيف آخر ، كما يريد نفي الفتوة عن كل إنسان وإثباتها « لعلي » وحده ، فالصفة في المثالين مثبتة للموصوف ومنفية عن كل ما سواه ، فالقصر في البيت حقيقي ولكن الواقع يخالف ذلك وينقضه ، فهناك سيوف كثيرة ماضية نفّاذة ، وهناك ألوان من الفتوة لا تقل عن فتوة علي ، فنفي المضاء عن غير (ذي الفقار) ونفي الفتوة عن غير (علي)، ليس إلا من قبيل المبالغة والادعاء ، أي : « القصر الحقيقي الادعائي » . فقد تناسى الشاعر مضاء كل السيوف ، وفتوة كل الأبطال مبالغة منه في مدح ذي الفقار وعلي ، فلم يعتد بغيرهما ، ونزل الغير منزلة العدم مبالغة وادعاء .

وقال رسولنا محمدﷺ « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

وقوله : « لا حسد إلا في اثنتين » من القصر الحقيقي الادعائي ، قصر الموصوف على صفة ، لأنه قصر فيه « الحسد » بمعنى الغبطة « موصوف » على « الكون في اثنتين » « صفة »، وكان ادعائياً لأن الحسد بمعنى الغبطة يكون في غير الاثنتين ، فنزل غيرهما منزلة العدم على سبيل الإدعاء .

وكان المراد بالحسد في الحديث ـ الغبطة ، لأن الحسد معناه : إمَّا تمنيٍّ زوال نعمة الغير مطلقاً ، وإما تمنى زوالها لنفسه ، وهو مذموم في الحالين ـ أما الغبطة ، فهي تمنى مثل ما للغير ، وهي ممدوحة بخلاف الحسد ، فهو مذموم حتى فيما استثناه الحديث .

وآثر لفظ « الحسد » ـ مع أنه مذموم ـ على لفظ « الغبطة » ـ مع أنه ممدوح للإشارة إلى أنَّ في « الغبطة » شائبة من الحسد ، وهو : التطلع إلى ما عند الغير ، وبهذا يكون الحامل عليها حب المنافسة ، ومن غير شك أن المنافسة في الخير ممدوحة ، ولكن هناك درجة أرقى منها ، وهي إرادة الخير لذات الخير ، لا لمنافسة الغير فيه ، لأن المنافسة قد تحمل على الحسد عند الإخفاق فيها ، بخلاف إرادة الخير لذات الخير .

هذا . . . والتعبير عن « الغبطة » بلفظ « الحسد » من قبيل الاستعارة شبه الغبطة بالحسد بجامع ما فيهما من التطلع إلى ما عند الغير ، ثم استعير لفظ المشبه به « الحسد » للمشبه « الغبطة » على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

والقصر الحقيقي الادعائي كثير في كلام العرب ، ينطقون به لإفراغ عاطفتهم ، وإبراز ما يريدون التعبير عنه ، فيقولون : ما مؤدب إلا فلان ، وما عالم إلا فلان ، لا يقصدون أن ينفوا الأدب عن غيره في الواقع ونفس الأمر ، ولكن يريدون أن يظهروا إعجابهم بعلمه وأدبه ، لدرجة أنهم لا يعترفون بعلم غيره وأدبه إذا قورن بعلم « فلان » الذي يتحدثون عنه : أي ينزلون أدب وعلم غيره منزلة العدم .

٣ ـ **قصر إضافي حقيقي** ، وهو : أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة لمعين ، لا لجميع ما عداه ، نحو : « لا جواد إلا علي » ، فإن الجود هنا مقصور على « عليٍّ » بالنسبة إلى شخص آخر كأحمد مثلاً ، ونحو : « ما شوقي إلاشاعر » فليس المقصود أن شوقياً مقصور على الشعر وحده ، بحيث لا يتعداه إلى أي شيء آخر ، لأن الحقيقة والواقع خلاف ذلك أيضاً ، وإنّما المقصود أنه مقصور على الشعر بالإضافة إلى شيء آخر معين كالكتابة مثلاً .

٤ ـ **قصر إضافي على سبيل الادعاء والمبالغة** : مثاله في قصر الموصوف

على الصفة قولك : « ما زيد إلا كاتب » فقد قصرت زيداً على صفة الكتابة بالنسبة إلى صفة الشعر ، إذا كان شاعراً أيضاً ، ولكنك تناسيت صفة الشعر ونزلتها منزلة العدم بالقياس إلى صفة الكتابة البارزة فيه .

ومثاله في قصر الصفة على الموصوف قولك : « ما كريم إلا علي » فقد قصرت صفة الكرم » على « علي » بالنسبة إلى « سعيد »، إذا كان سعيد كريماً أيضاً ، ولكنك تناسيت ذلك ، ونزلت صفة « الكرم » في « سعيد » منزلة العدم بالقياس إلى كرم « علي » .

الفرق بين القصر الحقيقي الادعائي والقصر الإضافي

إذا تأملنا في هذين القصرين سنجد أن الفرق بينهما دقيق ، وذلك لأن قصر الموصوف على الصفة مثلاً إذا كان حقيقياً ادعائياً اعتبر في مفهومه سلب سائر الصفات عنه ، ولا يشترط فيه إعتقاد المخاطب على أحد الأنحاء المعتبرة في الإفراد ، والقلب ، والتعيين كما سيأتي ، وذلك السلب يقتضي عدم الاعتداد بسائر الصفات .

وإذا كان القصر إضافياً اعتبر فيه سلب بعض ما عدا تلك الصفة عنه ، ويشترط فيه اعتقاد المخاطب على أحد تلك الأنحاء المعتبرة في قصر الإفراد والقلب والتعيين كما سيأتي ـ وليس فيه عدم الاعتداد بسائر الصفات ، ويشتركان معاً في جواز اتصاف الموصوف بصفات مغايرة للصفة التي قصر الموصوف عليها ، ولهذا الاشتراك دق الفرق بينهما[1] .

رابعاً : يقسم القصر الإضافي فقط بحسب حال المخاطب ثلاثة أقسام :

١ ـ قصر الإفراد : وهو تخصيص أمر بأمر دون آخر ، ويخاطب به من يعتقد الشركة ، تقول في قصر الصفة على الموصوف : « لا شاعر إلا شوقي »

---

(١) أنظر حاشية السيد علي المطول ، ص ٢٠٦ .

إذا كان المخاطَب يعتقد اشتراك عمرو وشوقي في الشاعرية . وفي قصر الموصوف على الصفة تقول : « ما شوقي إلا شاعر ، إذا كان المخاطَب يعتقد اتصاف شوقي بالشعر والكتابة .

ويشترط في قصر الموصوف على الصفة إفراداً ، عدم تنافي الوصفين حتى يمكن اجتماعهما في زعم المخاطب، فيرد المتكلم على المخاطب.بأن الموصوف متصف بأحدهما دون الآخر .

وعلى ذلك لا يصح في قصر الإفراد أن تقول : « شوقي شاعر لا مفحم » لأن الشاعرية والإفحام وصفان متنافيان ، ولا يمكن اجتماعهما لموصوف واحد .

٢ ـ **وقصر القلب هو** : تخصيص أمر بأمر مكان آخر ، ويخاطب به من يعتقد العكس . مثال قصر الموصوف على الصفة : قولهُ تعالى : ﴿ إِنَّما اللهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ﴾[1] في خطاب من يعتقد أن الله ثالث ثلاثة فقلبت الآية عليه معتقده .

وفي قصر الصفة على الموصوف « إنما القائد محمد » ، لمن يعتقد أن القيادة لعلي ، فتقلب عليه اعتقاده ، وتقصر القيادة على محمد .

٣ ـ **وقصر التعيين هو** : تخصيص أمر بأمر دون آخر ، ويخاطب به المتردد بين شيئين ، تقول في قصر الموصوف على الصفة : « البارودي شاعر لا ناثر » لمن يعتقد أحد الوصفين ثابت للبارودي .

وتقول في قصر الصفة على الموصوف . « ما شاعر إلا البارودي » ، لمن يعتقد أن البارودي وعلياً أحدهما شاعر ، لكنه لا يعلم على وجه التحقيق أيهما شاعر فتعين له واحداً منهما .

---

(١) سورة النساء آية ١٧١

مواقع القصر

يقع القصر بين ركني الجملة : اسمية كانت أو فعلية كما يقع بين غير الركنين ، وإليك صوراً لمواقع القصر المختلفة .

قصر المبتدأ على الخبر من قصر الموصوف على الصفة مثال ذلك قولك : (ما زيد إلا أخوك) و(ما الباب إلا ساج) و(ما هذا إلا زيد) ومثل هذا فمن قصر الموصوف على الصفة تقديراً ، إذ المعنى أنه مقصور على الاتصاف بكونه أخاً ، أو ساجاً ، أو زيداً .

أما إذا كان الخبر اسماً جامداً ، والمبتدأ مشتقاً ، فإن القصر يكون من قصر الصفة على الموصوف ، مثال ذلك قولك : (ما الكاتب إلا زيد) فهذا من قصر المبتدأ على الخبر ، إذ ليس من اللازم أن يكون المشتق هو الخبر - مقدماً أو مؤخراً - كما هو الرأي عند النحاة ، لأن المتكلم في هذا المثال يقصد الحكم على الكاتب بأنه زيد ، ولا يقصد الحكم على زيد بأنه الكاتب

وقصر الخبر على المبتدأ من قصر الصِّفة على الموصوف مثال ذلك قوله تعالى : اعلَمُوا أنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقابِ وَأنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا عَلَى الرَّسُولِ إلَّا البَلاَغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾[1] فالصفة المقصورة هنا هي الكائنة على الرسول ، على « البلاغ » موصوف ، أي : وظيفة الرسول هي البلاغ لا غيره من الحساب والثواب والعقاب والهداية .

وقوله تعالى : ﴿ فَإنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ وَعَلينا الحِسَابُ ﴾[2] فيه قصر صفة متعلق الجار على الموصوف الذي هو (البلاغ) وكذلك قوله : (وعلينا الحساب) .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٩٨ و٩٩ .

(٢) سورة الرعد ، آية ٤٠ .

وقصر الفعل على الفاعل مثل قولك : (لا ينال العلا إلا المجد) من قصر الصفة على الموصوف .

وقصر الفاعل على المفعول مثل : (ما ضرب محمد إلا زيداً) .

يجوز أن يكون من قصر الصفة على الموصوف ، أي : قصر الفعل الواقع من الفاعل على المفعول ، أي : الضرب الواقع من محمد على زيد .

ويجوز أن يكون من قصر الموصوف على الصفة ، أي قصر الفاعل على الفعل الواقع على المفعول ، أي قصر محمد على الضرب الواقع على (زيد) أي على ضرب زيد .

وقصر المفعول الأول على المفعول الثاني نحو : (ما أعطيت محمداً إلا كتاباً) و(ما منحت سيفاً إلا خالداً) .

وقصر الفاعل على الظرف مثل : (ما سافر علي إلا يوم الخميس) .

وقصر الفاعل على المفعول لأجله نحو : (زرتك محبة لا لشيء آخر) .

وقصر الفاعل على المفعول المطلق المبين للنوع مثل : (ما قاتل العرب إلا قتال الأبطال) .

(وما زرت المسجد الحرام إلا مرتين) .

في قصر الفاعل على المفعول المطلق المبين للعدد :

وقصر الفاعل على التمييز مثل : (ما طاب محمد إلا نفساً) .

وقصر الفاعل على الجار والمجرور مثل : (ما عنيت إلا بأمرك) ، وكذلك كل المتعلقات التي يقع فيها القصر ، ويكون القصر فيها من قصر الموصوف على الصفة ، أو من قصر الصفة على الموصوف ، بالاعتبارات السابقة والموضحة في قصر الفاعل على المفعول .

وقصر صاحب الحال على الحال من باب قصر الموصوف على الصفة مثل : (إنما ينتصر المسلمون متحدين) .

ومن قصر الصفة على الموصوف في نحو : (ما جاء راكباً إلا محمد) .

ولا يقع القصر بين الفعل ومصدره المؤكد ، فلا تقول : (ما ضربت إلا ضرباً) وأما قوله تعالى : (إن نظن إلا ظناً) ـ فمعناه : إن نظن إلا ظناً ضعيفاً ، فهو مصدر مبين للنوع .

وكذلك لا يقع القصر بين الفعل والمفعول معه ، لأنه لا يجيء بعد (إلا) فلا يقال : (ما سرت إلا والنيل) .

طرق القصر

للأديب أن يؤدي معنى القصر بأساليب متنوعة :

تراه يقول : (انتصر الجيش الإسلامي وحده) وذلك باستعماله للفظ (وحده) .

وتارة تراه يقول : (نبيل مقصور على الكتابة) فيستعمل لفظ (مقصور) .

وأحياناً يستعمل لفظ (فقط) فيقول : (البحتري شاعر فقط) .

وفي القرآن الكريم : ﴿ والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾[1] فجاء القصر بصريح لفظ (يختص) وتقول أيضاً : (زيد مخصوص بالقيام) ويقولون : (جاء زيد نفسه) أي لا غيره .

وهذه الأساليب على الرغم من إفادتها معنى القصر نجد علماء البلاغة قد

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٠٥ .

جعلوها من القصر اللغوي ، ولم يعتبروها من القصر الاصطلاحي ، لأنها لا تحقق الأغراض البلاغية التي تفاد من طرق القصر التي تواضعوا عليها ـ كالتأكيد والحسم والتصوير والتعريض وغير ذلك كما سنرى فيما يستقبل من البحث .

هذا !! وطرق القصر التي اصطلحوا عليها هي :

١ ـ العطف .
٢ ـ النفي والاستثناء .
٣ ـ إنما .
٤ ـ تقديم ما حقه التأخير .
٥ ـ توسط ضمير الفصل .
٦ ـ تعريف ركني الإسناد .

١ ـ العطف بلا ، أو بل ، أو لكن :

أسلوب القصر يتحقق بوجود النفي والإثبات في العبارة نقول : (زيد شاعر لا كاتب) فنجد أننا أثبتنا الشعر (لزيد) قبل حرف العطف (لا) ونفينا عنه الكتابة بحرف العطف (لا) المذكور ، ونقول أيضاً : (ما زيد كاتباً بل شاعراً) أو (ما زيد كاتباً لكن شاعراً) فنجد أننا نفينا الكتابة وأثبتنا الشعر . ونلاحظ أننا في هذه الأمثلة قد صرحنا بالطرفين المنفي والمثبت وهذا لا يتأتى إلا إذا كان القصر بطريق العطف ولذا درج البلاغيون على تقديم العطف على بقية الطرق وجعلوه من أقوى طرق القصر ، للتصريح فيه بالطرفين المنفي والمثبت بخلاف غيره ، فإن النفي فيه ـ كما سنرى ـ ضمني .

ونرى البلاغيين يذكرون بعده طريق (النفي والاستثناء) لأنه أصرح من طريق (إنَّما) ، ويؤخرون طريق (التقديم) لأن دلالته على القصر ذوقية لا وضعية .

و(لا) تفيد القصر إذا عطفت مفرداً ، ولم يتقدمها نفي أو نهي . وألا يكون ما بعدها داخلاً في عموم ما قبلها .

وهي صالحة لكل أنواع القصر . لأنه إذا كان المعطوف أي المنفي : خاصاً نحو : (زيد شاعر لا عمرو) فالقصر إضافي ، وإذا كان المعطوف أي المنفي عاماً نحو : (زيد شاعر لا غير زيد) فالقصر حقيقي .

والمقصور عليه مع (لا) هو المعطوف عليه بها دائماً. أو بعبارة أخرى : المقصور عليه مع (لا) هو المقابل لما بعدها .

فمثال العطف (بلا) في قصر الصفة على الموصوف ، قولنا (شوقي شاعر لا الرافعي) فقد قصرت صفة الشاعرية على شوقي ونفيتها عن الرافعي .

فإن كان الخطاب مع من يرى العكس فالقصر قصر قلب ، وإن كان مع من يعتقد الاشتراك كان قصر إفراد ، وإن كان مع من يتردد فيكون قصر تعيين .

وتأمل قول أبي تمام في فتح عَمُّورية :

بيض الصفائح، لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب

وبيض الصفائح : كناية عن السيوف . متونهن : جوانبهن . جلاء : كشف ، والريب : الظنون . يقول : إن السيوف البيضاء هي التي تزيل الشك وتظهر الحقيقة ، أما صحائف المنجمين السوداء ، فإنها تضيِّع الحقائق وتنشر الأباطيل (وبيض الصفائح لا سود الصحائف) أسلوب قصر ، فجلاء الشك والريب مقصور على بيض الصفائح . قصر صفة على موصوف ، وتحس في هذا الأسلوب الحسم والرد القوي على هؤلاء المنجمين الذين شككوا في

فتح « عمّورية » حصن الروم المنيع ، ومسقط رأس « إمبراطور الروم ، وكان المنجمون قد زعموا للمعتصم الخليفة العباسي في سنة ٢٢٣ هـ - أنها لن تفتح إلا في شهر صفر ، وحذروه من التعجل في الزحف عليها . ولكنه لم يعبأ بمزاعمهم ، وزحف بجيشه فاكتسح أنقرة ، واتجه إلى عمّورية فَدَكَّ قلاعها وتركها طعاماً للنيران ، أما إمبراطور الروم فولّى مهزوماً هارباً من وجه الفتح الإسلامي الظافر ، وكان أبو تمام ممن شهدوا هذه الموقعة فصور أحداثها تصويراً رائعاً .

ويقول آخر :

عمر الفتى ذكره لا طول مدته ومـوته خزيه لا يومه الداني

يقول : إن حياة المرء لا تقاس بطول المدة ، ولكن بالذكر الخالد ، وأن الموت لا يكون بمفارقة الحياة ، بل بما يرضى به بعض الأحياء من خزى وهوان ، وقد جاء في كل شطر بقصر ، إذ قصر العمر على الذكر في الشطر الأول ، قصر موصوف على صفة ، وقصر الموت « موصوف » على الخزي « صفة » في الشطر الثاني ، والذي دل على القصر فيها هو العطف (بلا) في قوله : (لا طول مدته) (لا يومه الداني) ونقول : المرء بفعله لا بكلامه قصر موصوف (المرء) على صفة (بفعله) وهو قصر قلب لأنه رد على مخاطب يعتقد العكس .

ونقول : ارتقى العرب بالإسلام لا بغيره من قصر الموصوف على الصفة إذا قصرنا (العرب) على الجار والمجرور (بالاسلام) المتعلق بالفعل (ارتقى) ومن قصر الصفة على الموصوف إذا قصرنا الفعل ارتقى الحاصل بالاسلام على الموصوف « العرب » وفي كلتا الحالتين يفيد الأسلوب الحسم والقطع والتقرير والإيجاز في الموازنة .

ويقولون : الأرض متحركة لا ثابتة ، قصر موصوف على صفة حيث قصر

« الأرض » على « متحركة » فأثبت للأرض التحرك ونفى عنها الثبوت .

و(بل) تفيد القصر ، إذا وليها مفرد ، وتقدمها نفي أو نهي لأنها في هذه الحال تقرر حكم ما قبلها ، وتثبت ضده لما بعدها فتتضمن النفي والاثبات وذلك عماد القصر . والمقصور عليه مع (بل) هو ما بعدها . وهي صالحة للقصر الاضافي فقط إفراداً وقلباً وتعييناً ، ولا تصلح للقصر الحقيقي ، لأن المنفي معها دائماً يكون أمراً خاصاً .

تقول : ما الفخر بالنسب بل بالعمل ، فقد نفيت أن يكون النسب سبباً للفخر ، وأثبت أن العمل هو السبب في الفخر ، وبهذا النفي للأول والإثبات للثاني يتحقق القصر ، والقصر في هذا المثال من قبيل قصر الموصوف على الصفة ، فقد قصر الفخر (موصوف) على الجار والمجرور (بالعمل) صفة وتأمل قول الشاعر :

ليس اليتيم الذي قد مات والده ... بل اليتيم يتيم العلم والأدب

فهو من قصر الموصوف على الصفة حيث قصر اليتيم (موصوف) على (يتيم العلم والأدب) صفة ، أي : الحرمان من العلم والأدب .

ونقول : (ليست الدنيا دائمة بل زائلة) ، فهذا من قبيل قصر الموصوف (الدنيا) على الصفة (زائلة) .

ونقول : « ليست خدمة المجتمع ذلاً بل شرفا » قصر موصوف على صفة والمنفي مع (بل) أمر خاص كما ترى ، لذلك كان القصر معها من قبيل القصر الإضافي كما أشرنا من قبل ، وعلى ذلك إذا كان الخطاب مع من يرى العكس فالقصر قصر قلب ، وإن كان مع من يعتقد الاشتراك كان قصر إفراد ، وإن كان مع من يتردد فيكون قصر تعيين .

و(لكن) لا تكون عاطفة تتضمن القصر إلا إذا سبقها نفي أو نهي ، ووليها مفرد ولم تقترن بالواو ، وهي حينئذ تفيد تقرير نفي ما قبلها ، وإيجاب ما

بعدها ، وبالنفي والاثبات يتحقق القصر .

والمقصور عليه مع (لكن) هو المعطوف بها أي ما بعدها .

تأمل قول الشاعر :

ما نال في دنياه وإنْ بغية   لكن أخو حزم يجد ويعمل

الواني : المتراخي : يقول : إن الدنيا كفاح وميدان يتسابق فيه الأفراد فمن جد فيه وجد ومن زرع فيه حصد ، والذي يصل إلى هدفه هو الجاد الذي يكد ويكدح ويسابق ويغالب والبيت من قصر الصفة (نيل البغية) على الموصوف (أخو الحزم) .

ونقول : « ما الفخر بالنسب لكن بالتقوى » فقد قصرنا الفخر (موصوف) على التقوى (صفة) .

ونقول : « ليست الدنيا باقية لكن زائلة » فقد نفينا البقاء عن الدنيا ، وأثبتنا لها الزوال ، وفي ذلك قصر موصوف على صفة أي قصر الدنيا على الزوال .

والقصر مع « لكن » من قبيل القصر الإضافي بأنواعه الثلاثة القلب والإفراد والتعيين بحسب اعتقاد المخاطب ، لأن المنفي معها دائماً يكون أمراً خاصاً .

٢ ـ النفي والاستثناء :

والنفي يكون بأي أداة من أدوات النفي كليس وما ، وإن (بسكون النون وكسر الهمزة) ،وغيرها ، ومثل النفي في هذا النهي والاستفهام .

والاستثناء يكون بإلا ، وسوى ، وغير .

ووجه إفادة (النفي والاستثناء) للقصر هو : أن النفي في الاستثناء

المفرع[1] متوجه إلى مقدر : هو مستثنى منه ، لأن (إلا) للإخراج والإخـراج يقتضي مخرجاً منه .

وهذا المستثنى منه لا بـد أن يكون عـاماً ليتنـاول المستثنى وغيره فيتحقق الإخراج .

هذا المستثنى منه العام يشترط فيـه أن يكون منـاسباً للمستثنى في جنسـه وصفته بأن يقدر في نحو : (ما ضرب إلا زيد) ما ضرب أحد ، وفي نحـو ما كسوته إلا جبة (ما كسوته لباساً إلا جبة) وفي نحو : (ما جاءني إلا راكباً) ما جاءني كائـن على حال من الأحوال إلا راكباً ، وفي (ما سرت إلا يـوم الجمعة) مـا سـرت وقتـاً من الأوقـات إلا يـوم الجمعـة ، وفي (مـا صليت إلا في المسجد) ما صليت في مكـان من الأمكنة إلا في المسجـد ، وكذلـك الصفة الإعرابية فيأتي المقدر العام فاعلاً أو مفعولاً أو حالاً على حسب العوامل .

وإذا كان النفي متوجهاً إلى هذا المقدر العام المناسب للمستثنى في جنسه وصفته ، فإذا أوجب من ذلك المقدر شيء (بـإلا) جاء القصـر ، لأن ما عـدا هذا المثبت يظل باقياً على صفـة الانتفاء وكـل قصر يفيـد إثباتـاً ونفيـاً ، أي إثبـات المقصور للمقصـور عليه ، ونفيـه عمّا سـواه على الإطـلاق في القصـر الحقيقي وعما سواه لمعين كما في القصر الإضافي .

والمقصور عليه ـ إذا كان القصر (بما وإلا) بعد أداة الاستثنـاء ، تقدم أو تأخر .

يقول زهير بن أبي سلمى :

وما الحرب إلا مـا علمتم وذقتمُ ... وما هو عنهـا بالحـديث المرجّم

---

(١) الاستثناء المفرغ هو : الذي ترك فيه المستثنى منه ففرغ الفعـل الذي قبـل (إلا) وشغل عنـه بالمستثنى المذكور بعد (إلا) .

ذقتم : جربتم . الحديث المرجم : هو المظنون .

المعنى : إن مساوىء الحرب معروفة لكم يقيناً والحديث عنها ليس رجماً بالغيب يعتمد على الظن ، فقد ذقتم مرارتها .

والبيت من معلقة زهير المشهورة قالها في مدح (هرم بن سنان ، والحارث بن عوف) حينما قاما بالصلح بين (عبس وذبيان) ، وتحملا ديات القتلى التي بلغت ثلاثة آلاف جمل .

بدأ زهير المعلقة بوقفة بين الأطلال ، ثم مدح السيدين ، وحذر من الغدر وذلك عبر أساليب طلبية تكشف عن تعجبه وحيرته وحنينه إلى الصلح وأساليب خبرية توحي بالأفعال الجميلة الثابتة ، ثم أساليب شرطية تفيد تأكيد غرضه ، حتى إذا ما وصل إلى التنفير من الحرب وويلاتها تجده قد استعمل أسلوب القصر ، ليؤكد معرفة قومه للحرب ومساوئها في قوله : وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ، وأتى بـ (ذقتم) بعد علمتم ليدل على الممارسة والتجربة العملية ، وتحس أن الشاعر باستعماله لأسلوب القصر أفرغ ما في نفسه وأعاد صورة الحرب وويلاتها أمام قومه ، ليصل إلى تحقيق غرضه[1] .

والقصر في البيت من قبيل قصر الموصوف على الصفة .

ويقول قعنب ابن أم صاحب في قوم يناصبونه العداء فيصف أرضهم :

لا نوم إلا على خوف وزلزلة   فيها ولا مال إلا السيف والبدن

الزلزلة : التخويف والتحذير ، والزلازل : الشدائد والأهوال .

والبدن : الدرع .

والمعنى : يقول : إن هؤلاء الذين نزلت عندهم صاحبته لا نوم لهم ولا

---

(١) أنظر ديوان زهير شرح ثعلب ص ٤ ـ ١٨ طبعة دار الكتب نشر الدار القومية .

راحة إلا على أصوات الحرب وشدائدها ، ولا مال لهم إلا أسلحة الهلاك والدمار ، شأن الدول التي في حرب مستمرة .

وأسلوب القصر في قوله : « لا نوم إلا على خوف وزلزلة » من قصر الموصوف على الصفة ، أي : قصر النوم على الخوف قصراً حقيقياً ادعائياً ، أيضاً والقصر من قبيل قصر الموصوف على الصفة[1] .

وتدبر قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُم ذَكَرُوا الله فَاستَغفَروا لِذنوبِهِم وَمَن يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا الله وَلَم يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2] تتحدث الآية عن التوابين الذين إذا فعلوا فعلة فاحشة أي : معصية أو ظلموا أنفسهم باقتراف ذنب من الذنوب ذكروا وعد الله ووعيده فطلبوا المغفرة لذنبهم من الله سبحانه . وقوله (ومن يغفر الذنوب إلا الله) أسلوب قصر أي قصر مغفرة الذنوب « صفة » على لفظ الجلالة « موصوف » قصراً حقيقياً تحقيقياً وطريقه « النفي والاستثناء » لأن الاستفهام « بمن » بمعنى النفي والتعبير بالاستفهام في مكان النفي يحرك المشاعر ، ويفيد الإنكار مع ما يتضمنه من الدلالة على أنه المختص بذلك سبحانه دون غيره : أي لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله ، وهذا الأسلوب تحس فيه الترغيب لطلب المغفرة من الله جلت قدرته ، والدعوة الجادة للمذنبين أن يقفوا في مواقف الخضوع والتذلل لخالقهم ، تطهيراً لنفوسهم وطمعاً في التوبة والغفران .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحسَانِ إِلَّا الإِحسَانُ ﴾[3] والمعنى ما جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة ، قصرت الآية الكريمة جزاء الإحسان « موصوف » على الإحسان « صفة » فليس جزاء

---

(1) أنظر فن التعبير في مختارات شعراء العرب لابن الشجري للمؤلف ص ٢٨ طبع المحمدية .

(2) سورة آل عمران ، آية ١٣٥ .

(3) سورة الرحمن ، آية ٦٠ .

الإحسان شيئاً من الأشياء إلا الإحسان . وجزاء الاحسان قد يكون إحساناً ، وقد يكون إساءة ، ولكن الآية تقصر جزاء الإحسان على الإحسان ، وتنفيه عن كل ما عدا الإحسان من ضروب الجزاء ، وأن غير الإحسان لا ينبغي أن يسمى جزاء للإحسان ، وجاء القصر بالنفي والاستثناء ليؤكد هذه الحقيقة ويقررها في نفوس المنكرين والقصر حقيقي ادعائي مبني على المبالغة ، ولعلك لاحظت أن الاستفهام « بهل » بمعنى النفي ، والتعبير بالاستفهام في مكان النفي يحرك المشاعر ، ويدعوك للبحث عن الجواب ، وفي الآية لن تجد جزاء إلا الإحسان .

ويقول المتنبي في مدح أبي شجاع فاتك :

لا يدرك المجد إلا سيد فطن　　لما يشق على السادات فعال

يشق : يصعب ، والسادات جمع سيد ، والمعنى : يقول : لا يدرك المجد والسيادة ، وعلو القدر إلا من يفعل ما يشق على الكرماء ، والقصر في قوله : « لا يدرك المجد إلا سيد فطن » قصر إدراك المجد « صفة » على السيد العاقل المدبر « موصوف والقصر حقيقي ادعائي مبني على المبالغة »[1] . وإذا قرأت القصيدة تحس إحساساً قوياً عند قراءة هذا البيت أن المتنبي أفرغ عاطفته نحو الممدوح بواسطة أسلوب القصر كما ترى .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُم إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾[2] والخطاب في الآية موجه إلى أصحاب سيدنا عيسى عليه السلام حين ذهبوا إلى أهل أنطاكية يدعونهم إلى عبادة الله ،

---

(١) أنظر ديوان المتنبي ص ٢٧٦ ـ ٢٧٩ ج ٢ المجلد الثاني نشر دار المعرفة بيروت . وأبو شجاع فاتك هو : فاتك الكبير المعروف بالمجنون ، كان رومياً أخذه الإخشيد كرهاً من سيده بلا ثمن ، وأعتقه وأبقاه عنده حراً في عداد مماليكه ، وكان شجاعاً كثير الإقدام ، ولذلك سمي بالمجنون توفي سنة ٣٥٠ هـ .

(٢) سورة يس ، آية ١٥ .

فأجاب أهل أنطاكية الرسل بقولهم : ما أنتم إلا بشر مثلنا : أي مشاركون لنا في البشرية ، فليس لكم مزية علينا تختصون بها ، إذ كانوا يعتقدون أن الرسل يجب أن يكونوا من جنس الملائكة ، ثم صرَّحوا بجحود إنزال الكتب السماوية فقالوا : ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء ﴾ مما تدعونه أنتم ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم ﴿ إن أنتم إلاَّ تكذبون ﴾ أي : ما أنتم إلاَّ تكذبون في دعوى ما تدعون من ذلك .

فقولهم :﴿ما أنتم إلاَّ بشر مثلنا ﴾ أسلوب قصر من قبيل قصر الموصوف على الصفة قصر قلب باعتبار اعتقاد المتكلمين حيث اعتقدوا أن الرسل بادعائهم الرسالة جعلوا أنفسهم من جنس الملائكة وأخرجوا أنفسهم من جنس البشرية فقلبوا هذا الاعتقاد فقالوا :﴿ إن أنتم إلاَّ بشر مثلنا ﴾ أي مقصورون على البشرية لا تتعدونها إلى جنس الملائكة .

وفي قولهم :﴿وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلاَّ تكذبون﴾ قصر آخر من قبيل قصر الموصوف على الصفة قصر تعيين ويكون المعنى : لستم في دعواكم للرسالة عندنا بين الصدق والكذب كما يكون ظاهر حال المدعي إذا ادعى أمراً ، بل أنتم عندنا كاذبون فيها ، فالقصر على الكذب قصر تعيين وهذا يصح بتنزيل المشركين للرسل منزلة المترددين بين الصدق والكذب مبالغة في انكارهم لدعواهم وإعراضهم عنها .

وتأمل الآية الكريمة : ﴿ قَالُوا سُبحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾[1] .

في هذه الآية تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى ، ولهذا قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، أي : العليم بكل

---

(١) سورة البقرة ، آية ٣٢ .

شيء ، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ، ومنعك ما تشاء لـك الحكمة في ذلك والعدل التام .

والقصر في ﴿ لا علم لنا إلاّ ما علمتنا ﴾ قصر علمهم على ما علمهم الله ، من قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً تحقيقياً ، لأن صفة العلم لا أحد يستطيع أن يعلمها إلا الله .

وبلاغة القصر هي إظهار قدرة الله وتأكيدها تأكيداً حاسماً .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴾[1] أي أنزلنا إليك علامات واضحات دالة على نبوتك فلا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون . فالكفر بالآيات مقصور « صفة » ، والمقصور عليه هم الفاسقون « موصوف » ، والصفة منفية عن كل ما عدا الموصوف بحسب الواقع ونفس الأمر فالقصر حقيقي تحقيقي .

ومن قصر الصفة على الموصوف قوله تعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾[2] فقد قصر الاختلاف « صفة » على الذين أوتوا الكتاب « موصوف » أي أنَ الأختلاف في الكتاب مقصور على الذين أوتوا الكتاب لا يتجاوزهم إلى أحد غيرهم فيكون قصراً حقيقياً ، وهو مبني على المبالغة ، لأن الآية نزّلت اختلاف غيرهم منزلة العدم بالنسبة إلى اختلافهم لأنهم كانوا يعرفون النبي محمداً ﷺ ، كما يعرفون أبناءهم فلما اختلفوا فيه عُدَّ هذا الاختلاف فظيعاً ونزِّل غيره منزل العدم ، والقصر تصوير دقيق لحال أهل الكتاب وموقفهم من دين الإسلام .

ومن قصر الصفة على الموصوف قصراً إضافياً : « ما عادل إلا أهل

---

(١) سورة البقرة ، آية ٩٩ .

(٢) سورة البقرة ، آية ٢١٣ .

الدعوة إلى الله » فإن كان الخطاب مع من يزعم : أن العادل طائفة أخرى غير الدعاة إلى الله كان قصر قلب ـ وإن كان الخطاب مع من يزعم أن طائفة أخرى تشترك مع أهل الدعوة إلى الله في صفة العدالة كان قصر إفراد .

ومثاله في قصر الموصوف على الصفة قولنا : « ما زيد إلا شاعر » قصر إفراد ، إذا كان الخطاب لمن يعتقد اتصافه بالشعر وغيره .

وقلباً « ما زيد إلا قائم » لمن يعتقد أن زيداً قاعد .

وطريق القصر في هذه الأمثلة هو النفي والاستثناء كما رأيت .

وأما الاستثناء من الإثبات مثل جاء القوم إلا زيداً ، فسيرى جمهور البلاغيين أنه ليس بقصر ويجعلون القصر في النفي والإثبات من هذا النفي ، أي الاستثناء من هذا المنفي العام وقيل : إنه قصر أيضاً ، لأنك إذا قلت : « قام القوم إلا زيداً » قصرت عدم القيام على زيد ، ومن يذهب إلى أنه ليس بقصر يرى أنه قيْد مصحح للحكم لا غير ، فكأنك في هذا المثال قلت : قام القوم المغايرون لزيد ، وهذا بخلاف قولك : « ما جاءني إلا زيد » فإن الغرض منه النفي والاثبات المحققان للقصر ، ولهذا يستعمل النفي والاستثناء عند الانكار بخلاف الاستثناء من الاثبات[1] .

٣ ـ انما :

ومن طرق القصر « إنما » المركبة من « إن » ـ بكسر الهمزة وتشديد النون ـ التي هي لتأكيد النسبة ، و« ما » الكافة .

فمثال قصر الموصوف على الصفة إفراداً ، « إنما زيد كاتب » لمن يعتقد أنه كاتب وشاعر ، وقلباً نحو : « إنما زيد قائم » لمن اعتقد أنه قاعد ، وتعييناً نحو : « إنما شوقي شاعر » لمن يتردد بين كونه شاعراً أو كاتباً .

---

(١) أنظر عروس الأفراح وحاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ج ٢ ص ١٩١ طبع الحلبي .

ومثال قصر الصفة على الموصوف إفراداً « إنما قائم زيد » لمن يعتقد قيامه مع عمرو ، وقلباً لمن اعتقد قيام عمرو دون زيد وإذا كان المخاطب متردداً كان القصر قصر تعيين .

ويكون المقصور عليه مع « إنما » مؤخراً دائماً .

وتفيد « إنما » القصر لتضمنها معنى « ما . وإلا » ويدل على هذا التضمن ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : قول مفسري الصدر الأول : إن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُم الْمَيْتَةَ ﴾[1] بنصب الميتة . معناه ما حرم عليكم إلا الميتة ، وهذا المعنى هو المطابق لقراءة الرفع أي : رفع الميتة . وقراءة رفع « الميتةُ » تفيد القصر بتعريف المسند كما علمنا في مبحث تعريف المسند وإذا كانت قراءة « الرفع » تفيد القصر فقراءة النصب تفيده أيضاً .

ووجه صحة هذه الدعوى أن في الآية ثلاث قراءات .

القراءة الأولى : ﴿ إنَّما حَرَّم عَليكُم الميتَةَ ﴾ بنصب الميتة وحرم مبنياً للمعلوم .

القراءة الثانية : ﴿ إنَّما حَرَّمَ عَليكُم الميتَةُ ﴾ برفع الميتة وحرم مبنياً للمعلوم .

القراءة الثالثة : ﴿ إنَّما حُرِّمَ عَلَيكُم الميتَةُ ﴾ برفع الميتة وحرم مبنياً للمفعول .

والقراءات مهما تعددت فالغرض والمقصود من الآية واحد .

وإذا تأملنا في القراءة الثانية التي هي برفع « الميتة » وحرم مبنياً للمعلوم

(1) سورة النحل ، آية ١١٥ .

سنجد أن « ما » المركبة مع « إنَّ » موصولة والعائد محذوف و« الميتة » بالرفع خبر لمبتدأ محذوف ، إذْ لا يصح أن يكون فاعلاً للفعل « حَرَّم » المبني للمعلوم ، لأن فاعل « حرم » هو « الله » كما لا يخفى ، وعلى ذلك يكون المعنى : « إن الذي حَرَّمه الله عليكم هو الميتةُ » ، فجملة هو الميتةُ ، من مبتدأ وخبر ـ والخبر مُعَرَّف . فهي تفيد القصر على ما مر بنا في مبحث تعريف المسند ، من أن نحو : « المنطلق زيد » و« زيد المنطلق » يفيد قصر الانطلاق على زيد .

وإذا رجعنا إلى القراءة الأولى : وهي فيها قصر لأن القراءة الثانية تفيد القصر كما علمنا ، لكنَّا سنجد أَنَّ « ما » المركبة مع « إنَّ » في هذه القراءة الأولى التي بنصب الميتة وحرم مبنياً للمعلوم ـ لا تصلح أن تكون موصولة ، إذْ لو كانت موصولة لبقيت « إنَّ » بلا خبر والموصول بلا عائد : إذن لا بد أن تكون « ما » كافة أي كفت « إنَّ » عن العمل ، وفاعل « حَرَّم » هو ضمير لفظ الجلالة ، و« الميتة » مفعول ، والمعنى ما حرم الله عليكم إلا الميتة .

وإذا كانت القراءة الأولى التي بنصب الميتة وحرم مبنياً للمعلوم لا يجوز فيها أن تكون « ما » موصولة ، وكان لفظ « الميتة » منصوباً وليس مرفوعاً ، وهما ـ كما علمت ـ أساسا القصر في القراءة الثانية . إذن لا بد أن يكون القصر في القراءة الأولى من طريق آخر غير تعريف المسند ، ولا ينتظر أن يكون إلا إذا كانت « إنما » متضمنة معنى « ما وإلا » ويكون معنى الآية « ما حَرَّم عليكم إلا الميتةَ » وبذلك تطابقت القراءتان الأولى والثانية وتحقق قول مفسري الصدر الأول أن « إنما » متضمنة معنى « ما وإلا » .

أما القراءة الثالثة برفع الميتة وَحُرِّم مبنياً للمجهول فيحتمل أن تكون « ما » كافة وتكون « إنما » متضمنة معنى « ما وإلا » والمعني « ما حُرِّم عليكم إلا الميتةُ » ، ويحتمل أن تكون « ما » موصولة أي إنَّ الذي حُرِّم عليكم هو الميتة فتفيد القصر بطريق تعريف الطرفين .

والوجه الثاني : قول نحاة الصدر الأول : أن « إنما » لإثبات ما يذكر بعدها ونفي ما سواه ، أي لإثبات الحكم المتضمن لما بعدها ونفي ما سوى ذلك الحكم ، وهذا الكلام من النحويين يقتضي تضمنها لإثبات ونفي « كما وإلا » : أما في قصر الموصوف على الصفة ، نحو : « إنما زيد قائم » فهو لإثبات قيام زيد ونفي ما سواه من القعود ونحوه ، وأما في قصر الصفة على الموصوف ، نحو : « إنما يقوم زيد » فهو لاثبات القيام لزيد ونفي ما سواه من قيام عمرو وبكر وغيرهما . وهذا ما تفيده « ما وإلا » أو هو معنى القصر كما علمنا .

والوجه الثالث : صحة انفصال الضمير مع « إنما » نحو . « إنما يقوم أنا » .

ووجه صحة هذه الدعوى : أن انفصال الضمير لا يجوز إلا عند تعذر الإتصال ، وفي مثال . « إنما يقوم أنا » لا نجد مانعاً من اتصال الضمير إلا إذا كان المعنى . « ما يقوم إلا أنا » لما علمنا في دراستنا النحوية أن « إلاَّ » لا يليها إلا الضمير المنفصل .

وفصل الضمير عن عامله يجوز إذا كان لغرض ، وما دام أن الضمير فصل عن عامله بعد « إنما » فهي بمعنى « ما وإلا » أي بمعنى « النفي والاستثناء » وتُؤَدِّي غرضاً بلاغياً كما سيتضح من خلال الأمثلة التي سنعرضها عليك .

وانفصال الضمير عن عامله بعد « إنما » صحيح ووارد في اللغة ، والشاهد على ذلك قول الفرزدق الشاعر الأموي وهو من الذين يستشهد بشعرهم على صحة التراكيب وبلاغتها على خلاف في ذلك .

أنا الذائد الحامي الذمار وإنما ... يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

الذائد : من الذود وهو الدَّفع والطرد ، والذمار : ما يلزم الشخص حمايته

من أهل ومال ونحوهما . مأخوذ من الذَّمْر ، وهو الحث ، لأن ما يجب عليهم حمايته كانوا يتذامورن أي يحث بعضهم بعضاً على حمايته ، والأحساب : جمع حسب ، وهو ما يعده الشخص من مفاخر نفسه وآبائه .

يريد الشاعر أن يقصر الدفاع عن الأحساب على نفسه لا يتعداه إلى غيره لذلك فصل الضمير وأخره ، فكأنه قال . ما يدافع عن أحسابهم إلا أنا أو مثلي ، قصر صفة « الدفاع » على الموصوف « أنا » قصراً حقيقياً ادعائياً ، أي أنه لا يوجد من يدافع عن الأحساب ، إلا هو ، أما غيره فلا يعتد بدفاعه أو في منزلة العدم ، ولذلك كان أبلغ من قولنا مثلاً : « إنما أدافع عن أحسابهم » من غير أن نفصل الضمير « أنا » لأن المعنى يصير « أنه يدافع عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم ، قصر موصوف على صفة أي أنه من جملة المدافعين أي : أنه يدافع عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم . وهو ليس بمقصود الشاعر لأنه قال هذا البيت في مقام الفخر ، والفخر يقتضي من الشاعر أن يقصر صفة الدفاع على نفسه وينزل غيره من المدافعين منزلة العدم أي لا يعتد بدفاعهم .

ونقول : « إنما يفهم البلاغة علي » فنجده أبلغ من « إنما علي يفهم البلاغة » إذا كان المقام مقام فخر ـ لأن المثال الأول يقصر فهم البلاغة على « علي » لا يتعداه إلى غيره ، وفي المثال الثاني يقصر « علي » على فهم البلاغة أي أنه من جملة الفاهمين للبلاغة لا يتعدى فهمه إلى غيرها من العلوم كالنحو والصرف ونحوهما .

وقد يقال : إن القصر هنا بطريق تعريف ركني الإسناد . فما في « إنما » موصولة و« أنا » خبره ، وليست « إنما » بمعنى « ما وإلا » ، فيكون الداعي إلى فصل الضمير هنا وقوعه خبراً ـ وليس وقوعه بعد « إنما » التي بمعنى : « ما وإلا » وهذا لا يصح أيضاً لأن « ما » لغير العاقل .

والمقام مقام فخر كما وضحنا ، فهو يقتضي « مَنْ » الموصولة التي للعاقل ولا ضرورة تقتضي العدول عن لفظ « ما » فلو عَبَّر « بمن » هنا لم يحدث في الوزن أي تغيير . فواضح أنه يريد من « إنما » أن تكون بمعنى « النفي والاستثناء ، أي « إنما » في البيت مركبة من « إنَّ » و« ما » الكافة ، وليست مركبة من « إن » و« ما » الموصولة .

وقال السكاكي : وهناك وجه لطيف لإفادة « إنما » القصر ، يسند إلى علي بن عيسى الربعي ، وهو أنه لما كانت كلمة « إنَّ » لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه ، ثم اتصلت بها « ما » المؤكدة ، وليست « ما » النافية كما يظنه من لا وقوف له على علم النحو ـ ناسب أن يُضَمَّن معنى القصر ، لأن القصر ليس إلا تأكيداً على تأكيد(1) .

وإن كان هذا ليس مطرداً في كل الأساليب التي يجتمع فيها مؤكدان مثل « إنَّ زيداً لقائم » .

ومن القصر « بإنما » قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُم العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ في الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيُصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعنِ الصَّلاةِ ﴾(2)

توضح الآية الكريمة أن مفاسد الخمر الدنيوية هي إيقاع العداوة والبغضاء وأن مفاسدها الدينية هي : الصَدّ عن ذكر الله وعن الصلاة .

والقصر في الآية يجوز أن يكون من قصر الصفة على الموصوف ، بمعنى أنه قصر مراد الشيطان على إيقاع العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويجوز أن يكون من قصر الموصوف على الصفة بمعنى أنه قصر الشيطان على إيقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر

---

(1) ص ١٥٨ ـ الفتاح .

(2) سورة المائدة ، آية ٩١ .

الله وعن الصلاة ـ في الخمر والميسر .

والقصر حقيقي مبني على المبالغة ، وجاء القصر « بإنما » لتشير بأن هذا الأمر من الأمور المعلومة التي لا ينكرها أحد ، ولا يدفعها مدافع .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ الله ما لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

والمعنى : إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه ، وأغلظ من كل ذلك : القول على الله بلا علم ، والقصر في الآية يحتمل أن يكون قصر موصوف على صفة أي أن الشيطان « موصوف » مقصور على الأمر بالسوء والفحشاء والقول على الله بلا علم صفة قصراً حقيقياً .

ويجوز أن يكون « صفة » الأمر بالسوء والفحشاء مقصورة على « الشيطان » موصوف .

وتقول الآية الكريمة في شأن الوصية : ﴿ فَمَن بَدَّلَهُ بعدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَىٰ الذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ الله سَميعٌ عَليمٌ ﴾[2] والمراد : أن من بدّل الوصية وحرّفها فغير حكمها وقع عليه الإثم ، والله مطلع عليه وكاشف أمره .

والقصر في الآية من قصر الصفة على الموصوف ، أي : صفة الإثم أو العقاب على الذين بدلوا حكم الوصية والقصر حقيقي تحقيقي .

ومن قصر الموصوف على الصفة قول شوقي :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٦٩ .

(٢) رسورة البقرة ، آية ١٨١ .

فشوقي ينادي بإصلاح المجتمع بنفس جياشة وعاطفة قوية ، ورأى أن أهم شيء يجب البدء به : هو سلامة الأخلاق فجعل بناء الأمم وقوتها واستحقاقها للحياة أساسه : تقويم الأخلاق ونزل غيره منزلة العدم من القوة في الحرب والصناعة وغيرهما مثلاً منزلة العدم قصراً حقيقياً ادعائياً مبنياً على المبالغة في قيمة الأخلاق .

ومن قصر الموصوف على الصفة قول الشاعر :

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

يقرر الشاعر أن المرء عما قليل سيفنى ويندثر ، وسيصبح حديثاً يروى ، وإذا كان الأمر كذلك فعلى المرء أن يخط لنفسه صحيفة عطرة في حياته لتكون بعد مماته ذكراً طيباً ، فقد قصر المرء « موصوف على أنه سيكون خبراً يروى « صفة » والقصر حقيقي ، وتلمح فيه العاطفة القوية والدعوة الجادة إلى عمل الخير الذي سيبقى بعد الممات .

وأما « أنّما » بفتح الهمزة : عَدّها من طرق القصر الزمخشري والبيضاوي فقالا في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾(١) .

أنما لقصر الحكم على شيء ، أو لقصر الشيء على حكم ، نحو : « أنما زيد قائم » و« إنما يقوم زيد » ، وقد اجتمع الأمران في هذه الآية ، لأن « إنما يوحى إلي » مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد ، وأنما إلهكم بمنزلة إنما زيد قائم .

وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحى إلى الرسولﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية :

وصرح التنوخي في الأقصى القريب بكونها للحصر ، فقال : كل ما

(١) سورة الأنبياء ، آية ١٠٨

أوجب إنّما ـ بالكسر للحصر أوجب ـ أنّما ـ بالفتح للحصر ، لأنها فرع عنهـا ، وما ثبت للأصل ثبت للفرع ما لم يثبت مانع منه ، والأصل عدمه .

ورد أبـو حيان على الـزمخشري مـا زعمه بـأنه يلزمـه انحصار الـوحي في الوحدانية ، وأجيب بأنه حصر مجازي باعتبار المقام[1] .

٤ ـ التقديم :

ومن طرق القصر تقديم ما حقه التأخير كتقديم الخبر على المبتدأ .

كمـا تقول : « مسلم أنـا » من قصر المـوصوف على الصفـة . والمقصور عليه هو المقدم .

وتقديم المسند إليـه على الخبر الفعلي يفيـد القصر إذا ولي حـرف النفي مثل قول المتنبي :

ومـا أنـا أسقمت جسْمي بـه ولا أنـا أضرمت في القلب نـاراً

أمّا إذا لم يل المسند إليه المقـدم على خبره الفعلي ـ حـرف النفي ـ فقد يفيـد القصر مثـل « أنا سعيت في حـاجتك » و« أنت سعيت في حـاجتي » من قصر الصفة على الموصوف إفراداً وقلباً وتعييناً بحسب اعتقاد المخاطب .

وقد يفيد التقوي مثل : « زيد يعطي الجزيل »[2] .

وكذلك تقديم النكرة على الخبر الفعلي مثل : « رجل جاءني » يفيد قصر الجنس ويكـون المراد : رجـل جاءني لا امـرأة ، أو العـدد ويكـون المعنى : « رجل جاءني لا رجلان » .

وتقـديم المعمولات على الفعـل من مفعول وظـرف وجـار ومجـرور يفيـد

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ج ١ ص ١٨٥ نشر دار الفكر العربي .

(٢) وقد استوفينا هذا الكلام في الجزء الأول من هذا الكتاب انظر ص ١٨٩ ـ ٢٠٦ .

القصر غالباً ، والمقصور عليه هو المقدم كما وضحنا قبل .

ومثاله في المفعول به قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1] .

فتقديم المفعول « إياك » على الفعل « نعبد ، ونستعين » لقصد الاختصاص أي : القصر ، والمعنى : نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ـ والعبادة أقصى غايات الخضوع لله والتذلل له وحده ، قصر موصوف « العبد » على صفة « العبادة لله والاستعانة به » .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] .

قصر موصوف « ملك السموات والأرض » على الجار والمجرور « لله » صفة قصراً حقيقياً تحقيقياً .

ومنه قول شوقي في مدح الرسول ﷺ :

بك يا ابن عبدالله قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراء

قصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً .

وتقول : « راكباً حضرت إليكم » في تقديم الحال ، وفي المسجد صليت ، وظهراً وصلت ، وكله من قصر الموصوف على الصفة ، قصراً إضافياً ويكون من قصر الإفراد والقلب والتعيين بحسب اعتقاد المخاطب .

٥ ـ ضمير الفصل :

ومن طرق القصر « تعقيب المسند إليه بضمير الفصل لتخصيصه ، بمعنى

---

(١) سورة الفاتحة ، آية ٥ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٨٩ .

جعل المسند مقصوراً على المسند إليه بحيث لا يتعداه إلى مسند آخر ، وذلك مثل قولنا : « شوقي هو الشاعر » فضمير الفصل « هو » يفيد أن المسند وهو « الشاعر » مقصور على المسند إليه وهو « شوقي » بحيث لا يتعداه إلى أن يكون غير شوقي شاعراً .

والفصل هو صورة ضمير واقع بين المبتدأ والخبر أو ما أصلهما كذلك[1] . والمقصور هو « الخبر » والمقصور عليه هو « المبتدأ » .

وإذا كان الطرفان معرفتين فالراجح أن السابق منهما مبتدأ واللاحق خبر .

وقد اتفق جمهور النحاة على أن « ضمير الفصل » حرف لا اسم والقائلون بأنه اسم أكثرهم على أنه لا محل له من الإعراب .

وضمير الفصل كما يفيد القصر يفيد أيضاً التأكيد ، والدلالة على أن ما بعده خبر للمبتدأ لا صفة[2] .

تأمل قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيهِم** ﴾[3] . ﴿ **فلما توفيتني** ﴾ « قيل هذا يدل على أن الله سبحانه توفى سيدنا عيسى عليه السلام قبل أن يرفعه ، وليس بشيء ، لأن الأخبار قد تظافرت بأنه لم يمت ، وأنه باق في السماء على الحياة التي كان عليها في الدنيا حتى ينزل إلى الأرض آخر الزمان ، وإنما المعنى : فلما رفعتني إلى السماء ، قيل الوفاة في كتاب الله سبحانه جاءت على ثلاثة أوجه : بمعنى الموت ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوتِها** ﴾[4] ـ وبمعنى النوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ**

(١) عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ضمن شروح التلخيص ج ١ ص ٣٨٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨٧ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ١١٧ .

(٤) سورة الزمر ، آية ٤٢ .

الذِي يَتوَفَّاكُم بِاللَّيلِ ﴾[1] أي ينيمكم ، وبمعنى الرفع ، ومنه (فلما توفيتني) ـ و﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتوَفِّيكَ ﴾[2] ـ و﴿كنت أنت الرقيب عليهم ﴾أصل المراقبة : المراعاة ، أي كنت الحافظ لهم والعالم بهم والشاهد عليهم »[3] .

وضمير الفصل « أنت » للقصر ، قصر صفة « المراعاة والحفظ والعلم على الموصوف ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ولو لم يكن ضمير الفصل « أنت » للقصر لما حسن ، لأن الله لم يزل رقيباً عليهم ـ في جميع الأحوال ـ وإنما الذي حصل بتوفيته لعيسى عليه السلام ـ وقد كان شهيداً عليهم يراقبهم ويأمرهم بعبادة الله لم يبق لهم رقيب غير الله تعالى ، وينبغي لهذا أن يتعين إعرابه فصلاً[4] .

وإذا جعلنا القصر حصل من تعريف الخبر « الرقيب » يكون ضمير الفصل لتأكيد القصر .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ لَا يَستَوِي أَصحَابُ النَّارِ وَأَصحَابُ الجَنَّةِ أَصحَابُ الجَنَّةِ هُم الفَائِزُونَ ﴾[5] تنفي الآية الكريمة التساوي بين أهل النار وأهل الجنة ، وتقرر أن أهل الجنة هم الظافرون بكل مطلوب الناجون من كل مكروه .

وما دامت الآية الكريمة تقرر عدم الاستواء بين أهل النار وأهل الجنة فذلك لا يحسن إلا بأن يكون ضمير الفصل « هم » للاختصاص وهو من قصر

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٦٠ .
(٢) سورة آل عمران ، آية ٥٥ .
(٣) فتح القدير للشوكاني المجلد الثاني ص ٩٥ نشر دار المعرفة ـ بيروت .
(٤) عروس الأفراح ص ٣٨٧ ضمن شروح التلخيص .
(٥) سورة الحشر ، آية ٢٠ .

الصفة على الموصوف أي قصر الفوز على أصحاب الجنة وتعين إعراب الضمير فصلاً ، ولا يجوز أن يعرب تأكيداً أو مبتدأ ثانياً .

وإذا جعلنا القصر حصل من تعريف الخبر « الفائزون » كان ضمير الفصل « هم » لتأكيد القصر .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ إنَّ اللهَ هُوَ الرزَّاقُ ذو القُوةِ المَتينُ ﴾[1] . والمعنى لا رازق سواه ولا معطي غيره ، فهو الذي يرزق مخلوقاته ، ويقوم بما يصلحهم ، فلا يشغلون بغير ما خلقوا له من العبادة ، ففي الآية قصر صفة « الرازق » على الموصوف وهو : « الله » سبحانه وتعالى وطريق القصر : ضمير الفصل « هو » ويجوز أن يكون طريق القصر في الآية الكريمة تعريف المسند « الرزاق » بأل الجنسية ، وعلى ذلك يكون ضمير الفصل « هو » لتأكيد القصر .

وتأمل الآية الكريمة : ﴿ أَمِ اتَّخذُوا مِن دُونِهِ أولِيَاءَ فَاللهُ هُو الوَلِيُّ * وَهُوَ يُحيِي المَوتَىٰ وَهُو عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ﴾[2] والمعنى : بل أاتخذ الكافرون من دون الله أولياء من الأصنام يعبدونها ؟ فالله هو الحقيق بأن يتخذوه ولياً ، فإنه الخالق الرازق الضار النافع وهو يقدر على كل مقدور والحقيق بتخصيصه بالألوهية ، وإفراده بالعبادة ، ففي الآية الكريمة قصر ، وهو من قصر الصفة « الولي » على الموصوف « الله » وأداة القصر توسط ضمير الفصل « هو » بين المسند والمسند إليه .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ أُولَٰئِكَ عَلىٰ هُدىً مِن رَبِّهِم وَأُولَٰئِكَ هُم المُفلِحُونَ ﴾[3] والمعنى : أن المتقين على نور من ربهم وبرهان واستقامة

---

(١) سورة الذاريات ، آية ٥٨ .

(٢) سورة الشورى ، آية ٩ .

سورة البقرة ، آية ٥ .

وسداد ، بتسديد الله إياهم وتوفيقه لهم ، وهم المفلحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله . وفي الآية قصر صفة « المفلحون » على موصوف « المشار إليه بأولئك أي : « المتقون » .

وطريق القصر توسط ضمير الفصل « هم » بين المبتدأ والخبر ،

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾[1] والمعنى : أن الذي قصه الله على رسوله من نبأ عيسى لهو الحق ، والقصص التتابع ، يقال : فلان يقص أثر فلان ، أي يتبعه ، فأطلق على الكلام الذي يتبع بعضه بعضاً ، وضمير الفصل للقصر ، ودخول اللام عليه لزيادة التأكيد . والمقصور « القصص الحق » والمقصور عليه « المشار إليه بهذا وهو نبأ عيسى عليه السلام » قصر صفة على موصوف .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[2] والمعنى : إن عدو رسول الله ﷺ هو المحروم من رحمة الله ، فقد قصرت الآية صفة « الأبتر » على الموصوف « شانئك » ، وطريق القصر هو « ضمير الفصل » ـ والقصر ـ في كل ما عرضنا عليك ـ بلاغته في إيجازه وتقريره وحسمه .

٦ ـ تعريف المسند أو المسند إليه « بأل » الجنسية :

قالوا : إذا كان المبتدأ والخبر معرفتين فالراجح أن السابق منهما مبتدأ واللاحق خبر وقد قيل : إن الإخبار بالمعلوم عن المعلوم لا يفيد أصلاً ، مثل « زيد المنطلق » وأجيب بأن العلم بالمسندين بمعنى تحقق حصول مدلولهما في الخارج الذي هو المراد هنا ، لا يستلزم العلم بنسبة أحدهما إلى الآخر ، فإنك تعلم أن الشخص الفلاني يسمى « زيداً » . وأن هناك رجلاً موصوفاً

(١) سورة آل عمران ، آية ٦٢ .
(٢) سورة الكوثر ، آية ٣ .

بالانطلاق ، ولا تعلم أن الموصوف بذلك الانطلاق هو ذلك الشخص المسمى « بزيد » .

فالكلام المعرف الجزءين يفيد أيَّ فائدة ، وهذه الفائدة المحصلة عند تعريف الجزءين إذ اقتضاها المقام لكونها هي التي يترقبها السامع ، أو كالمترقب لها صارت نكتة يطابق بها مقتضى الحال ، فالمراد أن مدلول هذا التركيب يؤتى به عند مناسبة المقام ، ولا يعدل عنه إلى غيره[1] .

ولا يقال : « زيد » في قولك : « زيد المنطلق » أنه دال على الذات فهو متعين للابتداء تقدم أو تأخر ، والمنطلق دال على أمر نسبي فهو متعين للخبرية تقدم أو تأخر ، لأنا نقول : « المنطلق » لا يجعل مبتدأ إلا بمعنى الشخص الذي له الانطلاق ، وأنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون خبراً ، و« زيد » لا يجعل خبراً إلا بمعنى صاحب اسم « زيد » وأنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون مبتدأ .

مثال ذلك : أن يكون للسامع أخ يسمى « عادلاً » وهو يعرف « عادلاً » هذا بعينه واسمه ، ولكن لا يعرف أنه أخوه ، ويعرف في الوقت نفسه أن له أخاً ، ولا يعلم ثبوت الأخوة لذلك الشخص المسمى « بعادل » فنقول له : « عادل أخوك » فأنت بهذا المثال تفيده بأن « عادلاً » هذا هو أخوه ، ومن أجل هذا أتيت بالاسم « عادل » الذي يدل على الذات المعينة له - أولاً - وجعلته مسنداًإليه ، ثم أتيت بما يدل على صفة الأخوة - التي هي في المثال المذكور - « أخوك » وجعلته مسنداً .

وإن عرف السامع أن له أخاً في الجملة ، وأردت أن تعينه له باسمه وعينه ، وكان يعرف « عادلاً » بعينه واسمه ، ولكن يجهل أن أخاه يسمى

---

(١) راجع مواهب الفتاح ج ٢ ص ٩٥ .

« بعادل » قلت له : « أخوك عادل » فأنت تفيده بأن أخاه هذا هو « عادل » ومن أجل ذلك أتيت « بأخوك » الـذي يدل على الـذات المعينة لـه ـ أولاً ـ وجعلته مسنداً إليه ، ثم أتيت بما يدل على الصفة المسماة « بعادل » وجعلته مسنـداً ، وعادل على هذا مؤول بالصفة ، وإن كـان « عادل » اسمـاً جامـداً ، والتقديـر « أخوك مسمى بعادل » .

وعلى ذلك ، فالمعرف بلام الجنس يجوز أحيانـاً أن يكون مبتـدأ إذا قدم ويجوز أن يكون خبراً إذا تأخر ، فإذا قدم كان طـريق القصر « تعـريف المسند إليـه » بأل الجنسيـة ، وإن تأخـر كان طـريق القصـر « تعـريف المسنـد » بـأل الجنسيـة ، والقصر حينئـذ يكون من قصـر الجنس على المسند إليـه ، تحقيقاً مثل : « خالد الأمير » إذا لم يكن ثمة أمير سواه .

ومبالغة مثل « محمد الشجاع » أي الكامل في الشجاعة ، فتخرج الكلام في صورة توهم أن الشجاعة لم توجد إلاَّ فيـه ، لعدم الاعتـداد بشجاعـة غيره لقصـورهـا عن رتبـة الكـلام . قصـر صفـة « الشجـاعـة » على المـوصـوف « محمد » .

فالمعرف « بأل » الجنسية هو : المقصور على أي حال ـ تقدم أو تـأخر ، والآخر هو المقصور عليه .

وإذا عـرف الطرفـان « بأل الجنسيـة » مثل . « العـالم المنطلق » فـالسياق يعين المراد ، فإذا كـان مراد المتكلم قصـر صفة « العلم » على المنـطلق كان طريق القصر « تعريف المسند إليه بأل الجنسيـة » وإذا كان غـرضه قصـر صفة « الانـطلاق » على « العـالم » كـان طـريق القصــر « تعـريف المسنـد » بـأل الجنسية .

وتقول : « القائـد أنت » و« أنت القائـد » « فالقـائد مقصـور » ، و« أنت » مقصور عليه ، وأداة القصر « أل » فالمراد قصر القيادة على المخاطب ، قصـر

صفة على موصوف .

والمقصور مطلقاً قد يبقى على إطلاقه دون قيد كما في قولنا : « زيد البطل » أو « البطل زيد » فالمقصور هنا هو مطلق البطولة .

وقد يُقيَّد بوصف ، أو حال ، أو ظرف ، أو مفعول ، أو نحو ذلك ، فيكون المقصور حينئذ : الجنس باعتبار قيده . كقولك : « محمد القائد الجريء » فالمقصور على « محمد » وصف القيادة المتسمة بالجرأة لا مطلق قيادة .

ومثال المقيد بظرف قولهم : « هو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيراً » فالمقصور الوفاء في هذا الوقت . لا الوفاء مطلقاً .

ومثال المقصور المقيد قول الأعشى :

هو الواهب المائة المصطفا ة إما مخاضاً وإما عشارا

والمخاض : الحوامل من النوق ، والعشار جمع عشراء : وهي التي مضى لحملها عشرة أشهر .

وترى الشاعر قد قصر هبة المائة من الإبل في إحدى الحالتين ـ المصطفاة والحوامل ـ ولم يرد لا هبة النوق مطلقاً ، ولا الهبة مطلقاً .

أي : هو وحده الذي من عادته أن يهب المائة المصطفاة ، ولا يريد الشاعر أن يقول : هو وحده الذي من عادته أن يهب ، أي : مطلق هبة .

على أن تعريف « المسند » بلام الجنس قد لا يفيد قصره على المسند إليه كقول الخنساء :

إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

والمراد : إذا قبح البكاء على أي قتيل ، وقد جاء لفظ « الحسن » معرفاً

« بأل » لتقرر للبكاء على أخيها صفة الحسن ، وأن تفيد أن حسنه حسن ظاهر لا ينكره أحد ، ولا يشك فيه شاك .

وإنما لم يفد تعريف الحسن « بأل الجنسية » ـ القصر ، لأن كلامها للرد على من يتوهم قبح البكاء على قتيلها كغيره ، والرد على ذلك المتوهم يكفي فيه إخراج بكائه من القبح إلى كونه حسناً ، وليس هذا الكلام وارداً في مقام من يسلم حسن البكاء عليه إلا أنه يدعي أن بكاء غيره حسن أيضاً ، حتى يكون معناه : أن بكاءك هو الحسن الجميل فقط دون بكاء غيرك فإنه ليس بحسن ، فليس المعنى على الحصر كما توهم إذ لا يلائمه « إذا قبح البكاء على قتيل « المذكور في أول البيت » .

وإنما الملائم له إذا ادُّعِيَ حسن البكاء عليك وعلى غيرك ، فيقال حينئذ : « فإن البكاء هو الحسن الجميل »، فليست فائدة التعريف في البيت « القصر » .

وبلاغة القصر في الأمثلة التي عرضناها عليك تظهر في إرادة المبالغة في اتصاف المقصور عليه بالصفة مع الإيجاز .

وجوه الاختلاف بين طرق القصر

وهذه الطرق ـ بعد اشتراكها في إفادة معنى القصر ـ تختلف من عدة وجوه ، إليك بيانها :

١ ـ فدلالة التقديم ، وتعريف المسند إليه أو المسند أو هما معاً ، وضمير الفصل ـ على القصر ، إنما هي بفحوى الكلام ومفهومه فصاحب الذوق السليم ، والطبع العربي الأصيل ، إذا تأمل أساليب : التقديم ، وتعريف الطرفين « بأل الجنسية ، وضمير الفصل ـ فهم منها القصر[1] وإن لم يعرف

---

(١) قال السيوطي ومن تعريف المسند إليه والمسند في القرآن الكريم فيما ذكره الزملكاني في =

اصطلاح البلغاء في ذلك .

فإذا قال شوقي :

بالحق يفتح كل هاد مصلح ما ليس يفتح بالقنا المغوار

فصاحب الذوق السليم يحس بأنّ في البيت قصراً ، ومعناه : أن الهادي المصلح يفتح فتحاً مبيناً بالحق لا بغيره ، ولا تجد في الكلام ما يدل على النفي ، وليس التقديم متضمناً معنى يدل على النفي والإثبات ، وإنما فهم القصر من التأمل والبحث لمعرفة سر التقديم ، وتساعد على ذلك القرائن .

وتقول : زيد المنطلق ، تريد قصر الانطلاق على زيد وتنفيه عن غيره وليس في الكلام ما يدل على النفي وإنما فهم من الغرض الذي قيل من أجله هذا التركيب ومثله قولك : زيد هو المنطلق .

وأما دلالة الثلاثة الباقية على القصر ، فإنما هي بأصل وضعها اللغوي ، إذ هي تفيد بوضعها اللغوي الإثبات والنفي اللذين يقوم عليهما القصر ، « فما » وما أشبهها موضوعة للنفي ، والاستثناء موضوع للإخراج من حكم المنفي ، وإنما متضمنة معنى « ما وإلا » .

والعطف فيه ما قبل « لا » موجب ، وما بعدها منفي بطريق الوضع ، وما قبل « لكن » و« بل » منفي ، وما بعدهما موجب بطريق الوضع .

٢ ـ الوجه الثاني من وجوه الاختلاف : أن الأصل في طريق العطف النص على المثبت والمنفي معاً ، فإذا قلت في قصر الموصوف على الصفة : « شوقي شاعر لا كاتب » فقد نصصت على الشاعرية المثبتة لشوقي كما نصصت على الكتابة المنفية عنه .

= أسرار التنزيل . الحمد لله ، قال إنه يفيد الحصر كما في إياك نعبد ، أي الحمد لله لا لغيره .
ـ أنظر الاتقان ص ٥٠ ج ٢ الطبعة الثالثة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م طبع الحلبي .

وإذا قلت في قصر الصفة على الموصوف : « علي شجاع لا عمرو » فقد نصصت على الذي أثبت له الشجاعة وهو « علي » كما نصصت على الذي نفيت عنه هذه الشجاعة وهو « عمرو » وكذلك الحال في العطف « ببل » و« لكن » .

ولا يترك النص على المثبت والمنفي في « طريق العطف » إلا لكراهة الإطناب ، وذلك كما إذا قيل : « زيد يعلم النحو والبلاغة والصرف والعروض » ، أو قيل : « زيد يعلم النحو وعمرو وبكر وخالد » فنقول في هذين المقامين على سبيل القصر : « زيد يعلم النحو لا غير » .

أما في الأول فمعناه : لا غير النحو : أي لا الصرف ولا البلاغة ولا العروض .

وأما في الثاني فمعناه : لا غير زيد : أي لا عمرو ولا بكر ولا خالد ، فحذفنا المنفي الذي هو مضاف إليه مع « غير » وبني « غير » على الضم كما عرفنا في دراستنا النحوية .

والأصل في الثلاثة الباقية النص على المثبت فقط دون المنفي ، فنقول في قصر الموصوف على الصفة بطريق « النفي والاستثناء » : « ما محمد إلا شجاع » فقد نصصت على الذي أثبت له ، وهو : « الشجاعة » ولم تنص على الذي انتفى عنه ، وهو : « الكرم » مثلاً .

ونقول في قصر الصفة على الموصوف « ما شجاع إلا محمد » فقد نصصت على الذي أثبت له الشجاعة ، وهو « محمد » ، ولم تنص على الذي نفى عنه ، وهو « زيد » مثلاً .

ونقول في « إنما » في قصر الصفة على الموصوف : « إنما ينجح المجتهد » .

وفي قصـر الصفة على المـوصـوف قـولـه تعـالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾[1] .

ويجـوز أن يكون القصـر في الآية من قصـر الموصـوف على الصفة كمـا وضحنا فيما سبق[2] .

ونقـول في التقديم : « على الله تـوكلنـا » قصـر صفـة على مـوصـوف ، ونقول : في ضمير الفصل : « زيد هو الكريم »قصـر صفة على مـوصوف وفي طريق « تعريف المسنـد إليه أو المسنـد بأل الجنسيـة » :« زيد الكـريم » قصر صفـة على موصـوف ـ ففي كـل هـذه المثـل نص على المثبت فقط كمـا تبين لك .

وأما النفي فمفهوم من القصر .

٣ ـ أن « النفي » بلا العاطفة لا يجامع « النفي والاستثناء » ، فلا يصح أن يقال في قصر الموصوف على الصفـة : « ما علي إلا شجـاع لا جبان » ، لأن شـرط المنفي « بلا » العـاطفة ألا يكـون ذلك المنفي منفيـاً قبلهـا بغيـرهـا من أدوات النفي ، لأنها موضوعة لأن تنفي بها ما أوجبته للمتبوع ، لا لأن تعيد بها النفي في شيء قد نفيته ، وهذا الشرط مفقـود في النفي والاستثناء ، لأننـا إذا قلنا : « ما زيد إلا قائم » فقد نفيت عنه كل صفة وقـع فيها التنـازع حتى كأننـا قلنا : « ليس هو بقاعد ولا نائم ولا مضطجـع ونحو ذلـك » ، فإذا قلنـا : « لا قاعد » فقد نفينا عنه « بلا » العاطفة شيئاً هو منفي قبلها بما النافية ، وكذلك لا يقـال في قصر الصفـة على الموصـوف : « ما كـريم إلا زيد لا عمـرو ». لأن عمراً قد نفي بأداة أخرى قبل نفيه «بلا » .

---

(١) سورة المائدة ، آية ٢٧ .

(٢) أنظر ص ١٩ ، ٢٠ من هذا البحث .

أما طريق القصر « بإنما » و« التقديم » و« التعريف بأل » فيجامعها النفي « بلا » فيقال : « إنما أنا عربي لا امريكي ، ويقال : (إلى الله أشكو لا إلى غيره » ، ويقال : « الكريم محمد لا عمرو » ذلك : أن النفي في هذه الطرق غير مصرح به ، فلم يكن النفي « بلا » منفياً بغيرها من أدوات النفي . وطريق القصر فيها « إنما » و« التقديم » و« التعريف بأل » أما العطف « بلا » فتأكيد لهذا القصر .

٤ ـ الوجه الرابع من وجوه الاختلاف أن أصل « النفي والاستثناء » بأن يستعمل في أمر مجهول من شأنه أن يكون مجهولاً .

وأن الأصل في « إنما » أن يستعمل في أمر مجهول من شأنه أن يكون معلوماً فمثال « النفي والاستثناء » وقد جاء فيما شأنه أن يجهل وينكر قولك لصاحبك وقد لمحتما شبحاً من بعيد . « ما القادم إلا فرس » إذا اعتقده المخاطب حماراً ، وأصر على اعتقاده ، فيكون قصر قلب ، أو اعتقده فرساً وكلباً فيكون قصر إفراد ، وبعد الشيء من مرأى العين يجعل الحكم عليه مجهولاً .

وقد ينزل الحكم المعلوم منزلة المجهول لاعتبار مناسب فيستعمل لذلك المعلوم« النفي والاستثناء » .

تأمل قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا مُحمدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَد خَلَت مِن قَبلِهِ الرُّسُلُ ﴾[1] قصر موصوف على صفة ، أي : أن الرسولﷺ مقصور على الرسالة غير جامع بينها وبين التبري من الموت .

فالمخاطبون ـ وهم الصحابة رضوان الله عليهم ـ يعلمون يقيناً أنه ﷺ مقصور على الرسالة غير جامع بينها وبين الخلود في الدنيا ، لكن لما كانوا

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٤٤ .

يعدون موته أمراً خطيراً ، وحادثاً جليلاً صاروا كأنهم يثبتون له ـ عليه السلام ـ صفتين « الرسالة والخلود » فقصرت الآية الكريمة « الرسول » على الرسالة قصر إفراد ، ونزل هذا المعلوم للصحابة ـ وهو أنه ﷺ رسول لا غير ـ منزلة ما شأنه أن يجهل وينكر ، فاستعمل له « النفي والاستثناء » والسر البلاغي هو تصوير حال الصحابة عند وفاة النبي ﷺ وقد استعظموا هذا الأمر في نفوسهم ، مع شدة حرصهم على بقائه عليه الصلاة والسلام بينهم .

ومثاله في قصر القلب قوله جل شأنه حكاية عن بعض الكفار : ﴿ قَالُوا إن أَنتُم إلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ﴾[1] .

فالمخاطبون وهم الرسل عليهم السلام ـ لم يكونوا جاهلين بكونهم بشراً ، ولا منكرين لذلك ، ولكنهم نُزِّلوا منزلة المنكرين . لاعتقاد القائلين ـ وهم الكفار ـ أن الرسول لا يكون بشراً مع إصرار المخاطبين على دعوى الرسالة ، فنزلهم القائلون منزلة المنكرين للبشرية لما اعتقدوا اعتقاداً فاسداً من التنافي بين الرسالة والبشرية ، فقلبوا هذا الحكم بأن قالوا : « إن أنتم إلا بشر مثلنا » ، أي : مقصورون على البشرية ليس لكم وصف الرسالة التي تدعونها .

فصار المخاطبون كأنهم ينكرون البشرية ، فقصروا عليها قصر قلب ، ونزل المعلوم لهم : « وهو أنهم بشر » منزلة ما شأنه أن يجهل وينكر ، فاستعمل فيه « النفي والاستثناء » والقصر من قبيل قصر الموصوف على الصفة . وفيه تصوير لحال الكفار وقد خيم عليهم الجهل وأعمتهم الاعتقادات الفاسدة .

وأما قوله تعالى حكاية عن الرسل : ﴿ إن نَحنُ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُم وَلَكِنَّ اللهَ

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ١٠ .

يَمنُّ عَلىٰ مَن يَشاءُ مِن عِبادِهِ﴾[1] وذلك بعد حكاية قول الكفار في الآية السابقة ـ فمن مجاراة الخصم والتبكيت والإلزام والإفحام ، فإن من عادة من ادعى عليه خصمه الخلاف في أمر هو لا يخالف فيه ، أو هو لا ينكر ـ أن يعيد كلامه على وجهه ، كما إذا قال لك من ينظارك : « أنت من شأنك كيت وكيت » ، فتقول : « نعم أنا من شأني كيت وكيت ، ولكن لا يلزمني من أجل ذلك ما ظننت أنه يلزم » .

فالرسل ـ عليهم السلام ـ كأنهم قالوا : إن ما قلتم من أنا بشر مثلكم هو ما قلتم لا ننكره ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكون الله تعالى قد مَنَّ علينا بالرسالة .

فالرسل ـ عليهم السلام ـ قد اعترفوا بمقدمة صحيحة وهي ثبوت البشرية لهم ، ليبينوا أنها لا تستلزم مقصود الخصم ، فالقصر في قول الرسل (إن نحن إلا بشر مثلكم) الخطاب فيه موجه إلى الكفار ، وهم لا ينكرون هذه البشرية ، فعلى هذا يكون القصر صوري يقصد منه المشاكلة اللفظية لقول المشركين ، لتكون أقوى في المجاراة ، ولا يراد منه إلا أصل الإثبات والتجريد .

ويمكن أن يكون المراد حقيقة القصر ، لأن المشركين يريدون من قصرهم « إن أنتم إلا بشر مثلنا » أن الرسل بشر لا ملائكة ومن ثَمَّ ينكرون رسالتهم فجاراهم الرسل بتسليم أنهم بشر ، ويكون المقصود من القصر هذه المجاراة وليس الرد عليهم ، لأن المشركين لا ينكرون بشرية الرسل بل هي ثابتة عندهم .

وتقول الآية الكريمة : ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسمِعٍ مَن في القُبورِ * إن أنتَ إلَّا

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ١١ .

نَـذيرٌ ﴾[1] قصر موصوف على صفة قصر إفراد ، أي : قصر النبيﷺ على صفة الإنذار غير جامع بينها وبين صفة الهداية ، وذلك أمر معلوم له عليه السلام ـ غير أنه لما كان شديد الحرص على إيمان قومه وهدايتهم ، ملحاً في توجيه الدعوة إليهم صار في حكم من ظن أنه يملك مع صفة الإنذار صفة الهداية ، لهذا قصر على الإنذار قصر إفراد ، ونزل هذا المعلوم وهو « أنه غير ملزم بحمل الناس على الهداية قصراً » منزلة ما شأنه أن يجهل وينكر فاستعمل فيه « النفي والاستثناء » على ما هو الأصل فيهما ، وسر بلاغته تسلية الرسول عليه السلام ، وتصوير حاله وهو حريص على هداية قومه ، وإلحاحه في دعوتهم إلى الإيمان بالله وبما أنزل .

أما « إنما » فإن الأصل فيها ـ كما ذكرنا ـ أن الحكم معها يكون من شأنه ألا يجهله المخاطب ولا ينكره .

ومنه قول القائل : « إنما هو أخوك » لا يقال هذا لمن يجهل هذا ويدفع صحته ، ولكن لمن يعلمه ولا ينكره إلا أنَّ القائل أراد أن ينبه مخاطبه لما يجب عليه من حق الأخوة وحرمتها .

ومنها قوله تعالى : ﴿ إنَّما أنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِ قَومٍ هادٍ ﴾[2] طلب الكفار من الرسولﷺ ـ غير الآيات التي أتى بها ـ فالتمسوا مثل آيات موسى وعيسى . فقال الله تعالى لرسوله (إنما أنت منذر) تنذرهم بالنار ، وليس إليك من الآيات شيء ، وهذه مكابرة من الكفار وعناد ، وإلا فقد أنزل اللّه على رسوله من الآيات ما يغني البعض منه .

(ولكل قوم هاد) أي نبي يدعوهم إلى ما فيه هدايتهم ورشادهم .

---

(١) سورة فاطر ، آية ٢٢ و٢٣ .

(٢) سورة الرعد ، آية ٧ .

والقصر في (إنما أنت منذر) والرسول الكريم يعلم ذلك ولا ينكره ، ويعلم أيضاً أنه لا يملك هداية من أحب ، لكن لما كان عليه السلام شديد الحرص على إيمان قومه شديد الأسف لإعراضهم عن الدعوة والإيمان ـ أراد الله أن يخفف عنه هذا الحرص ، وذلك الأسف ، فقصره على صفة الإنذار ، وألزمه بأن دعوته تتحقق بالإنذار .

والقصر من قصر الموصوف على الصفة قصر إفراد ، وفيه تصوير لحال النبي ﷺ وموقفه الرحيم من قومه وحب الخير لهم ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَد جَاءَكُم رَسُولٌ مِن أنفُسِكُم عَزِيزٌ عَليهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَليكُم بِالمؤمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[1] .

ومثال ما نَزل فيه الحكم المنكر منزلة ما شأنه ألا يكون منكراً لنكتة قوله تعالى حكاية عن اليهود : ﴿ إنَّمَا نَحنُ مُصلِحونَ ﴾[2] .

ادعوا أن كونهم مصلحين أمر ظاهر من شأنه ألا يجهله المخاطب ولا ينكره وبالغوا في ذلك ، حتى صوّر لهم الوهم : أنّ نفوسهم قد قصرت على الإصلاح قصراً ، فهي لا يمكن أنْ تلم بفساد ، واختاروا من أدوات القصر « إنما » التي تدل على أن الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل ولا برهان مبالغة منهم في التمويه والخداع ، لذلك كان الرد عليهم من الله قاسياً ، قال سبحانه : (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) فقد استفتحه « بألا » ليسترعي الأذهان إليه حتى تتنبه إلى الرد ، ولا يفوتها منه شيء ، وبدأ الجملة بأداة التأكيد « إنّ » لأنه في مقام يريد أن يقتلع من الأذهان دعواهم العريضة في الإصلاح و« هم » الثانية ضمير فصل يؤكد الإسناد في الجملة ، وتعريف الطرفين (هم المفسدون) يفيد قصر المسند

---

(١) سورة التوبة ، آية ١٢٨

(٢) سورة البقرة ، آية ١١ .

على المسند إليه ، فكأن الإفساد مقصور عليهم ، لا يبرحهم إلى سواهم ، وجاء « بلكن » يريد أن يخبرنا بخبر جديد عن هذه الطائفة التي انحصر الإفساد فيما بينها ، وأنه كان خليقاً بهم أن يدركوا هذه الحقيقة لو كان عندهم قدر من شعور ، أما وهم قوم لا يشعرون ، فذاك هو السر في خفاء هذه الحقيقة عنهم[1] .

وعلى ذلك قول المتنبي :

إنما أنت والد والأب القا ... طع أحنى من واصل الأولاد

فالشاعر لم يرد أن يخبر كافوراً أنه والد ، فكافور يعلم أنه بهذه المنزلة ولكن المتنبي أراد أن يُذَكِّرهُ بالأمر المعلوم الذي لا ينكره ليلفته بلطف إلى حق الوالد من العطف والبر .

ومثله قولهم : « إنما يعجل من يخشى الفوت » وذلك أن من المعلوم الثابت في النفوس : أن من لم يخش الفوت لم يعجل .

ومنه قول ابن قيس الرقيات في مدح مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من اللـ ... ـه تجلت عن وجهه الظلماء

ادعى في كون الممدوح موصوفاً بهذه الصفة - أنه أمر ظاهر معلوم للجميع على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا في الأوصاف التي يذكرون بها الممدوحين - أنها ثابتة لهم وأنهم قد شهروا بها ، وأنهم لم يصفوا إلا بالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد .

ويؤيد هذا المعنى قول الحطيئة في مدح بغيض من بني أسد :

وتعذلني أفناء سعد عليهم ... وما قلت إلا بالذي علمت سعد

---

(١) أنظر دلائل الإعجاز ص ٢٣١ - ٢٣٢ للشيخ عبد القاهر الجرجاني طبعة رشيد رضا الطبعة السادسة .

الأفناء : العلمة من الناس . قرر أن ما قاله معلوم وثابت لدى الناس ومثله قول البحتري :

لا أدعي لأبي العلاء فضيلة   حتى يسلمها إليه عداه

ومثله قولهم : « إنما هو أسد » ، و« إنما هو نار » ، « إنما هو سيف صارم » ، إذا أدخلوا « إنما » جعلوا ذلك في حكم الظاهر المعلوم الذي لا ينكر ولا يدفع ولا يخفى »[1] .

ومن التنزيل قوله تعالى : ﴿ إِنَّما يَستَجِيب الذِينَ يَسمَعونَ ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّما تُنذِرُ مَن اتَّبَعَ الذِّكرَ وَخَشِيَ الرَّحمٰنَ بِالغيبِ ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخشَاهَا ﴾[4] .

كل ذلك تذكير بأمر ثابت معلوم ، وذلك أن كل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ويدعى إليه ، وأن من لم يسمع ولم يعقل لم يستجب ، وكذلك معلوم أن الإنذار إنما يكون إنذاراً ويكون له تأثير إذا كان مع من يؤمن بالله ويخشاه ، ويصدق بالبعث والساعة فأما الكافر الجاهل فالإنذار وترك الإنذار معه سواء ، فهذا مثال ما الخبر فيه خبر بأمر يعلمه المخاطب ولا ينكره بحال[5] .

جمال التعريض « بإنما »

علمنا : أن الحكم الذي تستعمل فيه « إنما » من شأنه أن يكون معلوماً لا يجهله أحد ، ولا ينكره ، لذلك امتازت عن بقية الطرق بأنها تستعمل في كلام

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢١٧ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٦ .

(٣) سورة يس آلاية ١١ .

(٤) سورة النازعات، الآية ٥ .

(٥) دلائل الاعجاز ص ٢١٧ .

لا يكون الغرض منه إفادة الحكم للعلم بـه ، وإنما يكـون الغرض التلويـح به إلى معنى آخر على سبيل التعريض .

وعليه قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعلَم أَنَّما أُنزِلَ إِليكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ كَمن هُو أعمَىٰ إِنَّمـا يَتَذَكَّـر أُولُو الأَلبَـابِ ﴾[1] وقولـه تعالى : ﴿قُل هَل يَستوِي الـذِينَ يَعلَمونَ وَالذينَ لَا يعلَمونَ إِنَّما يَتذكَّرُ أُولُو الأَلبابِ ﴾[2] .

والمعنى : إنما يتعقل الحق أرباب العقول ، فليس الغرض من الآيتين أن يعلم السامعون هـذا المعنى الظاهـر أي إثبات التـذكر لـذوي العقول السليمـة فهـذا أمر معلوم ، ولكن الآيتين تـرميـان من وراء هـذا المعنى إلى ذم الكفـار الجاهلين الذين يعـرضون عن آيـات الله ، والعلم بالأمـور الدينيـة التي تصلح معـاشهم ومعادهم ، والتعـريض بغبـاوتهم ، وأنهم من شـدة عنـادهم وطغيـان الهـوى على عقـولهم في حكم من ليس بـذي عقـل فـالـذي يـطمـع فيهم أن يتـذكروا ويتـدبـروا كمن يـطمـع من غيـر ذوي العقـول في ذلـك ، وتـرى أن الأسلوبين وردا بعـد مقارنـة وموازنـة بين العـالم بـآيـات الله وأمـور دينـه وبين الأعمى الجاهل .

ولمـا كانت آيـات الله واضحة كـالشمس في كبد السمـاء ، كان إنكـارهـا حسرة وندامة تستحق التوبيخ واللوم ، والقرآن المعجز يوجه هذا المراد بطريق التعريض عبر أسلوب القصر « بإنما » فسبحان من أنزله .

وكذا قوله تعالى : (إنمـا أنت منذر من يخشـاها) ،وقـوله : (إنمـا تنذر الـذين يخشـون ربهم بـالغيب) المعنى على أن من لم تكن لـه هـذه الخشيـة فكأنه ليس له أذن تسمع ، وقلب يعقل ، فالإنذار معه كلا إنذار .

---

(١) سورة الرعد ، الآية ١٩ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٩.

قال الشيخ عبد القاهر[1] : مثال ذلك من الشعر قول العباس ابن الأحنف :

أنا لم أرزق محبتها ... إنما للعبد ما رزقا

فإنه تعريض بأنه قد علم أنه لا مطمع له في وَصلها . فيئس من أن يكون منها إسعاف .

وقوله أيضاً :

يلوم في الحب من لم يدر طعم الهوى
وإنما يعذر العشاق من عشقا

يقول : ينبغي للعاشق ألا ينكر لوم من يلومه ، فإنه لا يعلم كنه بلوى العاشق ، ولو كان قد ابتلى بالعشق مثله لعرف ما هو فيه فيعذره .

ومنه قول الشاعر :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما ... نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما ... يدعى الطبيب لساعة الأوصاب

يقول في البيت الأول : إنه ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتك السبب إليه ، وفي البيت الثاني : إنا قد طلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض لنا من الحاجة ، وعوَّلنا على فضلك ، كما أن مَنْ يُعَوِّل على الطبيب فيما يعرض من السقم كان قد أصاب فعله .

ولا يحصل التعريض بدون « إنما » فلو قلنا : « يتذكر أولو الألباب » لم يدل على التعريض كما دلت عليه الآية (إنما يتذكر أولو الألباب) ولا فرق بين التركيبين إلا أن الآية ذكر فيها « إنما » والسبب في ذلك أن هذا

---

(١) أنظر دلائل الإعجاز ص ٣٢٠ ـ ٢٣١ .

التعـريض ، إنمـا وقـع لأن من شـأن « إنمـا » أنَّ الكـلام معهـا يتضمن معنى النفي من بعد الإثبات ، والتصريح بامتناع التذكر ممن لا يعقل .

وإذا اسقطنا « إنما » من الكلام فقلنا : « يتـذكر أولـو الألباب » كـان مجرد وصف لأولي الألبـاب بأنهم يتـذكرون ، ولم يكن فيـه معنى نفي للتذكـر عمن ليس من أولي الألبـاب ، ومحـال أن يقـع تعـريض لشيء ليس لـه في الكـلام ذكر ، ولا فيه دليل عليه .

ويجوز أن يقع التعريض بقولنا : « يتذكـر أولو الألبـاب » بإسقـاط « إنما » إذا أردنا به مدح إنسان بالتيقظ ، وبأنـه فعل مـا فعل ، وتنبـه لما تنبـه له لعقله ولحسن تمييـزه ، كمـا يقــال : « كـذا يفعــل العـاقــل » . و« هكـذا يفعــل الكريم »[1] . والله أعلم .

---

(١) أنظر دلائل الإعجاز ص ٢٣١ .

الفَصْل السَّادِس

أسلوب الإنشاء

يحتاج الأديب أو البليغ لإبـراز عاطفتـه نحو معـانيه إلى التصـرف في بناء الجملة أو العبارة ، حتى تتأكد معانيه في ذهن سامعه .

فتراه يستعمل صور التشبيه ، ويتفنن في إيرادها ، تحقيقاً لغرضه بأسلوب موجز مقنع .

ويأتي بأسلوب الاستعـارة والكنايـة لقصد المبـالغة ، والتخييـل ، وإقامـة الدليل على معانيه التي يرغب في تأكيدها .

وتراه أيضاً يـورد العبارة بـأسلوب خبري يمتـاز بالهـدوء والثبات والتجـدد والحـركة والتصـوير ، ليعبـر بها عن تصـوراته التي يحس بهـا ، ويـطمئن لهـا السامعون ، وأحياناً أخرى يلقي إلى السامع بأساليب إنشائية تنقل مـا في نفسه من تحير وشك وتعجب ، وحنين ورجاء وأمنيات .

والعبـارة إذا ألقاهـا الأديب ، وكانت معبـرة عن المعنى المـراد أتم تعبيـر وأدقه ، تراها دخلت على القلب دخول المأنوس به ، وحققت التأثير المطلوب من العبارة البليغة التي تحفز المتلقي على العمل الجاد المثمر فتتحقق أهداف الدين التي هي قوام بناء المجتمع الفاضل المثـالي الذي نسعى إليـه جميعاً ، لنحقق قول الله سبحانه ـ في أمة الإسـلام : ﴿ كُنتُم خَيرَ أُمةٍ أُخرِجَت

لِلنَّاس ﴾[1] . فالكلمة الطيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

وإذا كانت العبارة الأدبية تحقق أهداف الأمم الدينية والدنيوية ، فهي جديرة بعناية البلاغيين وغيرهم .

وتراثنا غني بالبحوث التي تدور حول الجملة وبنائها ، والذي يعنينا منها الآن ـ بحثهم الذي يتصل بركنيها وقيودها ، وذلك ليتسنى لنا معرفة الأساليب الإنشائية والخبرية والفرق بينهما فنقف على أسرار الجمال فيها ، ويكون هذا البحث منطلقاً إلى الوقوف على التفنن في إيرادها مطابقة لمقتضى الحال أو الاعتبار المناسب الذي هو النظم البلاغي كما علمنا .

يقول البلاغيون : الجملة لها ركنان : محكوم عليه أو مخبر عنه ، ويسمى « مسنداً إليه » وذلك كالفاعل ونائبه ، والمبتدأ الذي له خبر ، واسم « إنّ » و« كان » وأخواتهما ، والمفعول الأول من « باب ظن » وأخواتها .

والركن الثاني : محكوم به أو مخبر به ، ويسمى « مسنداً » ، وذلك كالفعل وخبر المبتدأ ، وخبر « كان » وأخواتها ، وخبر « إنَّ » وأخواتها ، والمبتدأ المتكتفي بمرفوعه ، واسم الفعل ، وما زاد على ذلك فهو قيد في الجملة ، كأدوات الشرط ، والاستفهام والنفي والنواسخ ، والمفعولات ، والحال والتمييز ، والتوابع ، وضمير الفصل .

فإذا قلنا : « سافر محمد اليوم إلى الريف طلباً للراحة » كان « سافر » هو المسند و« محمد » هو المسند إليه ، وما بعد ذلك فهو قيد في الجملة ، وليس ركناً أساسياً .

هذه الجملة : إما أن تتضمن أمراً له واقع يطابقه أو يخالفه ، ويتضح لنا

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١١٠ .

ذلك إذا تأملنا أبيات الغنوي :

أخ كـان يكفيني وكـان يعينني   على نائبات الدهر حين تنوب
عـظيم رماد القـدر رحب فناؤه   إلى سنـد لم تحتجبه غيـوب
حليف الندى يدعو الندى فيجيبه   سـريعاً ويدعوه النـدى فيجيب

سند الجبل : ما ارتفع عن الوادي ، وسفل عن الجبل . والغيب : البطن المنخفض من الأرض . والنـدى : الكـرم ، وحليف النـدى : أي بينه وبين الكرم حلف وعهد .

فالشاعر يريد : أن يخبر بأن أخاه كان يأخـذ بيده في أوقـات الشدة وكـان كريماً يقصده الكثير من الضيوف فلا يحتجب عنهم ، فالكرم خلقه والبذل من شيمه لا يفترق أحد منهما عنه ، ولا يفترق هو عنهما .

وهذا الذي يعرضه لنا الغنوي في حديثه قد تضمن أحكامـاً لها في حيـاتنا واقع ، وهذه الأحكام تكون صادقة ، إذا كان الواقع يوافقها ويؤيدها .

وتكون كاذبة : إذا كان الواقع يخالفها ويجافيها .

ومثـل هذا الأسلوب الـذي يصح أن يـوصف بالصـدق أو الكـذب ـ لأنـه يحتمـل الأمرين ـ يسمي « الخبـر » ، على أنه في بعض الأحيـان قـد يـوصف الخبر بالصدق فحسب ، أو يوصف بالكذب ليس إلا ، ولكن ذلك لا لذاته من حيث هو كلام خبري ، وإنما باعتبار أسباب أخرى خارجة عن نطاق العبارة ، تؤيد صدقه أو كذبه .

فأخبار القرآن الكريم لا تحتمل إلا الصدق باعتبارهـا كلام الله المجيـد ، وإن كانت تحتمل الصدق والكذب ، من حيث هي أخبار ، بصرف النـظر عن قائلها .

وكـذلك الأخبـار التي تتضمن اخبـاراً ثـابتـة كقـولنـا : « الأرض تحتنـا » و(السماء فوقنا) و(الواحد نصف الاثنين) وغيرها .

وكذلك الأخبار التي لا تحتمل إلا الكذب مثل : أقوال مسيلمة الكذاب فإنها لا توصف إلا بالكذب فحسب . نظراً لقائلها بصرف النظر عن ذاتها .

وإذا قال سعد بن ناشب :

فيا لرزام رشحوا بي مقدماً إلى الموت خواضاً إليه الكتائبا

فيالرزام أي : فيآل رزام . ورزام أبو حي من تميم ، ورشحوا بي : هيئوا وأعدوا بإعدادي رجلاً مقدماً إلى الموت ، والمراد بالرجل نفسه كأنه قال أعدوني ..

والترشيح : تربية الشيء وتهيئته لما يراد منه ، والكتائب : الجيوش المجتمعة ، واحدتها كتيبة .

فهو يخاطبنا بأسلوب النداء والأمر في قوله : (يا بني رزام ، أعدوني لأعدائكم أقتحم جيوشهم وأبدد جموعهم ، وأحرز لكم النصر عليهم) .

وهذا النداء) و(الأمر) اللذان تضمنا طلباً ، لا يصح أن يوصف أسلوبهما بالصدق أو الكذب ، لأنهما لم يكونا حاصلين وقت الطلب ، وليس لهما واقع يطابقهما أو يخالفهما .

ومثل النداء والأمر في تضمنهما الطلب : النهي والاستفهام والتمني فكل هذه الأساليب تستدعي أموراً لا وجود لها وقت الطلب .

ومن ثم كان الطلب بصوره المعروفة لا يحتمل صدقاً ولا كذباً ، والأسلوب الذي لا يصح أن يوصف بالصدق أو الكذب يسمى : « الإنشاء » .

ومن هنا ساغ للبلاغيين أن يقسموا الكلام إلى نوعين : الأول : الخبر والثاني : الإنشاء .

وقالوا : إن الخبر : يفيد حصول شيء أو عدم حصوله ، ويصح أن يقال لقائله : إنه صادق فيه أو كاذب ، فإن كان الكلام مطابقاً للواقع ، كان قائله

صادقاً ، وإن كان غير مطابق له كان قائله كاذباً .

أما الإنشاء : فلا يفيد حصول شيء أو عدم حصوله ، بل يفيد إيجاد شيء ابتداء ، فليس لمفهومه واقع يوافقه ـ أو لا يوافقه ، ولا يصح أن يقال لقائله : إنه صادق فيه أو كاذب .

تقسيم الإنشاء إلى طلبي وغير طلبي

ينقسم الإنشاء إلى إنشاء طلبي ، وإنشاء غير طلبي ، تأمل ما كتبه عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، إلى ابنه عبد الله : (يا بني اتق الله فإن من اتقى الله وقاه ، ومن توكل عليه كفاه ، ومن شكره زاده) .

فعمر ينادي ابنه ، وفي النداء طلب الإقبال ، وهو : أمر غير حاصل في أثناء طلبه ، وقد استعمل لهذا النوع من الطلب أداة النداء (يا) ، ثم يطالبه ثانياً بتقوى الله ، وهي إما أن تكون غير حاصلة وقت الطلب ، أو حاصلة ، وهي بالطبع حاصلة عند (عبد الله بن عمر) ووالده يأمره بالدوام عليها ، والأمر حينئذ مجازي ، وقد استخدمت في هذا النوع من الطلب صيغة الأمر (اتق) .

ويقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا اجتَنِبُوا كَثيراً مِنَ الظَّنِ إنَّ بعضَ الظَّنِ إثمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعضُكُم بَعضاً ﴾[1] .

فالله سبحانه وتعالى : يطلب منا عدم التجسس على المؤمنين ، وقد استعمل في هذا الطلب صيغة النهي ، وهي : « لا » الداخلة على المضارع ، وفي النهي طلب الكف عن الفعل .

---

(١) سورة الحجرات ، آية ١٢ .

ويقول حافظ ابراهيم في حادث دنشواي :

ليت شعري أمحكمة التفتيش عا دت أم عهد نيرون عادا ؟

فحافظ يتمنى أن يعلم سبب ما حدث لهذه القرية من عذاب على يد المستعمرين ، متسائلاً أمحاكم التفتيش التي نصبها الأسبان للمسلمين في الأندلس تعذبهم ، عادت إلى هذه القرية تعذبها أيضاً أم أن (نيرون) الذي حرق (روما) بعث من جديد وجاء إلى مصر لينكل بهؤلاء الآمنين ، وفي التمني لون من الطلب على سبيل المحبة ، وهذا الذي يطلبه الشاعر متهكماً بالاستعمار « وهو العلم بسبب ما حدث » ، غير حاصل في أثناء طلبه ، والصيغة المستعملة في هذا الطلب صيغة التمني (ليت) .

وقال شوقي في رثاء شاعر النيل حافظ ابراهيم :

ماذا حشدت من الدموع (لحافظ) وذخرت من حزن له وبكاء[1]

فشوقي يطلب أمراً غير حاصل وقت الطلب ، وقد استعمل لذلك صيغة الاستفهام (ماذا) وفي الاستفهام لون من الطلب .

فهذه الأمثلة : إنشائية ، لأنها لا تحتمل صدقاً ولا كذباً ، وإذا تدبرتها وجدتها يطلب بها حصول شيء لم يكن حاصلاً وقت الطلب ، ولذلك يسمى الإنشاء فيها طلبياً ، وأنه يكون بالنداء ، والأمر ، والنهي ، والتمني ، والاستفهام .

وهناك وسائل للإنشاء كثيرة ، ولكن لا يطلب بها شيء ، ولذلك يقول البلاغيون عنها : إن الإنشاء فيها غير طلبي .

وجعلوا منها صيغ التعجب كقول الصمة بن عبد الله القشيري :

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا

---

(١) الشوقيات ح ٣ ص ٢ .

الربا : ما ارتفع من الأرض ، والمصطاف : مكان الصيف ، والمتربع : مكان الربيع ـ والمعنى أفدى بنفسي تلك الأرض لطيب رباها العجيب ، وحسن فصليها ، صيفاً وربيعاً ، والشاهد في البيت صيغة التعجب ، « ما أحسن » .

أو بصيغ المدح والذم ومنه قوله جل شأنه : ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الذِينَ كَذَّبوا بِآيَاتِ اللهِ ﴾[2] وكذلك بصيغ العقود كبعت أو اشتريت .

ويقول البلاغيون : إن أنواع الإنشاء غير طلبي ليست من مباحث علم المعاني ، لذلك سيكون بحثنا ـ بمشيئة الله وعونه ـ في أنواع الإنشاء الطلبي التي هي : الأمر : والنهي ، والاستفهام ، والتمني والنداء .

أسلوب الأمر

الأمر هو : طلب حصول الفعل على سبيل التكليف والإلزام من الأعلى إلى الأدنى ، وقد جعل له علماء اللغة صوراً أربع هي :

١ ـ فعل الأمر كقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا استطَعتُم مِن قُوَّةٍ ﴾[3] .

٢ ـ فعل المضارع المقرون بلام الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ لِيُنفِق ذُو سَعَةٍ من سَعَتِه ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ ولِيُوفُوا نُذورَهُم ولِيَطَّوَّفُوا بِالبَيتِ العَتِيقِ ﴾[5] .

---

(١) سورة الذاريات ، آية ٤٨ .
(٢) سورة الجمعة ، آية ٥ .
(٣) سورة الأنفال ، آية ٦٠ .
(٤) سورة الطلاق ، آية ٧ .
(٥) سورة الحج آية ٢٩ .

٣ ـ اسم فعل أمر كقول معاوية لابنه يزيد : « عليك بالحلم والاحتمال حتى تمكنك الفرصة ، فإذا أمكنتك ، فعليك بالصفح ، فإنه يدفع معضلات الأمور ، ويقيك مصارع المحذور » .

فمعاوية يأمر ابنه بالحلم والصفح ، وقد دل عليه باسم الأمر وهو « عليك » بمعنى : الزم .

٤ ـ المصدر النائب عن فعل الأمر كقوله تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحسَاناً ﴾[1] .

وكقول قطري بن الفجاءة :

فصبراً في مجال الموت صبراً　　فما نيل الخلود بمستطاع

ونحوه : « سعياً بالخير » ، « ورفقاً بالضعفاء » و« صبراً على البأساء » . مما تقدم يتضح لنا أن لأسلوب الأمر صيغاً هي :

١ ـ فعل الأمر .
٢ ـ الفعل المضارع المقترن بلام الأمر .
٣ ـ اسم فعل الأمر .
٤ ـ المصدر النائب عن فعل الأمر .

وإذا استعمل أسلوب الأمر لطلب حدوث شيء لم يكن حاصلاً وقت الطلب على سبيل التكليف والإلزام من الأعلى للأدنى ، كان مستعملاً في معناه الحقيقي .

وترى الأديب يخالف هذه القاعدة وهذه المخالفة جائزة لغوياً ـ ليعبر عن عواطفه وخوالجه التي تدور في نفسه وتكشف خبايا ما يدور في أحشائه

---

(١) سورة البقرة ، آية ٨٣ .

فيستعمل هذه الأساليب في غير معناها الحقيقي ، فيأتي تعبيره حياً موحياً يدخل إلى القلوب ويخاطب العواطف ، فيتأثر السامع ، وتتحقق الفائدة المرجوة من الأدب الحي ، وإليك توضيح ذلك فيما يلي :

الأغراض البلاغية
التي يخرج إليها أسلوب « الأمر »

الإباحة : وذلك إذا استعملت « صيغة الأمر » في مقام توَّهم فيه السامع أوالقارىء عدم جواز الجمع بين أمرين ، فيؤذن له بالجمع بينهما مع عدم الحرج في الترك . مثل قولنا : « جالس الحسن أو ابن سيرين » .

فالسامع كان قد توهم عدم جواز مجالستهما لما كان بينهما من سوء المزاج ، فأباح له المتكلم أن يجالس أحدهما أو كليهما ، أو لا يجالس ، فصيغة الأمر « جالس » في هذا المثال نجدها قد استعملها الأديب ، ولم يرد منها طلب الفعل استعلاء ، ولكنه أراد منها الإباحة .

واستعمال كلمة مكان كلمة ، أو صيغة مكان صيغة لا بد من علاقة أو صلة بين الاستعمالين ، وإلا كان الاستعمال باطلاً أو بعيداً مبهماً .

والكلمة أو الصيغة إذا استعملت في غير مكانها كان الاستعمال مجازياً[1] .
فإن كانت « العلاقة المشابهة » كان اللفظ أو الصيغة استعارة ، وإن كانت العلاقة بينهما « غير المشابهة » كان اللفظ أو الصيغة مجازاً مرسلاً .

والعلاقة هنا في استعمال صيغة الأمر مكان الإباحة هي : علاقة غير المشابهة ، وبين الأمر والإباحة علاقة هي : مطلق الإذن ، فهو من استعمال اسم الأخص في الأعم مجازاً مرسلاً .

---

(١) سنوضح هذا البحث بتوسع في الجزء الثالث بمشيئة الله .

لأن صيغة الأمر وضعها الواضع للمأذون فيه المطلوب طلباً جازماً ، فاستعملت في المأذون فيه من غير قيد بطلب ، ويجوز أن تكون العلاقة بين الأمر والإباحة « التضاد » لأن إباحة كل من الفعل والترك تضاد إيجاب[1] .

ومن أحسن ما جاء فيه قول كُثَير بن عبد الرحمن المعروف بكثير عزة :

أسيىء بنا أو أحسنى لا ملومة　　لدينا ولا مقلية إن تقلت

الخطاب لعزة . لا ملومة : لا لوم عليك . ولا مقلية . لا مبغوضة فهو يبيح لعزة أن تسيء إليه أو تحسن ، فهو في غاية الرضا بالأمرين ، ويطلب منها أن تعامله بهما ثم تنظر ، هل تتفاوت حاله معها في الحالين ؟ وسر بلاغة التعبير بصيغة الأمر في مقام « الإباحة » في هذا البيت أن الشاعر إذ يطلب منها الإساءة كما يطلب الإحسان ، ويلح في ذلك إلحاحاً ، كأنه أمر مطلوب ، فإنه بهذا الاستعمال يكشف لنا عما أصابه من الحب ، وأنه وصل به إلى نهايته ، والإنسان إذا أفرط في الحب صار كل فعل يصدر عن حبيبه لا يرى فيه إلا جمالاً . فاستعمال الشاعر لصيغة الأمر في مكان الإباحة كشف عن مستور نفسه بأخصر طريق وأجمله .

تأمل قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشرَبُوا حَتىٰ يَتَبيَّنَ لَكُم الخَيطُ الأَبيَضُ مِنَ الخَيطِ الأَسودِ مِنَ الفَجرِ ﴾[2] فالله جل وعلا ، يبيح للناس الأكل والشرب في ليالي الصوم إلى الفجر ، والتعبير بصيغة الأمر في مكان الإباحة للحث على تناول السحور ، كأنه أمر مطلوب .

هذا والفرق بين الإباحة والتخيير أن الإباحة هي إذن في الفعل ، وإذن في الترك ، فهي إذنان معاً ، أما التخيير فهو إذن في أحدهما من غير تعيين .

---

(١) أنظر حاشية الدسوقي على شرح السعد ح ٢ ص ٣١٣ ضمن شروح التلخيص طبع الحلبي .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٨٧ .

التهديد : وتارة تخرج « صيغة الأمر » من معناها الحقيقي إلى « التهديد » وذلك إذا استعملها البليغ في مقام عدم الرضا بالمأمور به . وذلك كما نسمع من الرئيس يقول لمرءوسه : « افعل ما بدا لك » أو « دم على عصيانك فالعصا أمامك » فهو لا يريد منه الامتثال أي : أي فعل ما أمره به ، ولكنه يريد من هذا الأمر التهديد ، وكأن هذا الرئيس لرغبته القوية في إنزال العقوبة بالمرءوس يطلب منه أن يخالفه ، فإذا خالفه فعاقبه كان العقاب مراً والإيذاء شديداً .

تدبر قوله تعالى : ﴿ إنَّ الذِينَ يُلحِدُونَ فِي آيَاتِنا لَا يَخفَونَ عَلينَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّار خَيرٌ أَمْ مَن يَأتِي آمِناً يَومَ القِيامَةِ اعمَلُوا مَا شِئتُم إنَّهُ بِما تَعملونَ بَصيرٌ ﴾[1] والمعنى : إن الذين يميلون عن الحق فيعاندون ويشاقون ويحرفون القرآن الكريم عن جهة الصحة والاستقامة لا يخفون على الله العلي القدير فيجازيهم على عصيانهم ، وفي هذا وعيد لهم وتهديد ، واعملوا ما شئتم ، ليس المراد أمرهم بكل عمل شاءوا بل الأمر هنا يفيد التهديد ، بدليل قوله سبحانه (إنه بما تعملون بصير) ، وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام التهديد أن الله سبحانه لشدة غضبه عليهم كأنه يأمرهم بما يوجب عقابهم لينكل بهم أشد تنكيل .

ومن الأمر المراد به التهديد قوله تعالى : ﴿ وَجَعلُوا لله أَندَاداً لِيُضِلُّوا عَن سَبيلِهِ قُل تَمتَّعوا فَإنَ مَصيرَكُم إلىٰ النَّارِ ﴾[2] والمعنى : ومن أفظع جرائم الظالمين أنهم جعلوا لله الواحد الصمد نظراء ، واتخذوهم من الأصنام شركاء لله تعالى في العبادة ، فأمر الله رسوله أن يهددهم بقوله : « تمتعوا بشهواتكم قليلاً فإن نهايتكم النار خالدين فيها » فليس المراد أمرهم بالتمتع بل تهديدهم

---

(١) سورة فصلت ، آية ٤٠ .

(٢) سورة ابراهيم ، آية ٣٠ .

وزجرهم بأسلوب موجز مقنع .

وعلى ذلك قول الرسولﷺ : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » فـالأمر في قوله : « فاصنع » مراد به « التهديد » ، بـدليل قـوله : « إذا لم تستـح » فليس المراد أمرهم بكل صنع شاءوا ، بل الأمر يفيد التهديد .

وفرق واضح بين قـوله : هـذا ، وقولـهﷺ في أهل بـدر : « لعل الله اطَّلع على أهل بدر فقال : « اصنعوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم » فقوله : « فـإني قـد غفرت لكم » يحـدد المعنى المراد من صيغـة الأمـر « اصنعـوا مـا شئتم » فليس المراد أمرهم بكل صنع شاءوا ، بل الأمر يفيد التبشيـر والإشارة إلى مـا أعده الله لأهل بدر من الجزاء العظيم ، وهذا من بدائع اللغة .

واستعمال الأمر في مقام « التهديـد » مجاز مـرسل عـلاقته مـا بين الطلب والتهـديد من نسبـة التضاد ، وذلـك لأن المأمـور به : إمـا واجب أو مندوب ، والمهدَّدُ عليه : إمَّاحرام أو مكـروه ، ولهذا يقـال : التهديـد لا يصدق إلا مـع المحرَّم والمكروه .

هذه العلاقة التي هي : نسبة التضاد ، هي التي جوزت استعمـال الطلب مكان التهديد استعمالاً مجازياً .

التعجيـز : وقد يـراد من صيغة الأمـر « التعجيز » كمـا في قولـه تعـالى : ﴿ وَإِن كُنتُم فِي رَيبٍ مِمَّـا نَزَّلنَـا عَلىٰ عَبدِنَـا فَأتُـوا بِسُورَةٍ مِن مِثلِهِ ﴾[1] فليس المراد بالأمر في هذه الآية أمرهم حقيقة على وجه التكليف بالإتيان بسـورة من مثله . وإنما المراد إظهار عجزهم عن الإتيان ، لأنهم إذا حاولـوا ذلك الإتيـان بعد سماع صيغة « الأمر » ، ولـم يمكنهم ، ظهر عجزهم .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٣ .

وسر بلاغة التغيير بالأمر في مقام التعجيز قوة التحدي والتسجيل عليهم ، ليتعظوا : ويقلعوا عما هم فيه من العناد والمكابرة .

فواضح من معنى الآية الكريمة أن صيغة الأمر قد تستعمل للتعجيز ، وذلك يكون في مقام إظهار عجز من يدعى أن في وسعه وطاقته أن يفعل مثل الأمر الفلاني ، إلا أنه إذا حاول فعله بعد سماع « صيغة الأمر » ، ولم يمكنه فعله ظهر عجزه حينئذ .

والعلاقة بين الطلب والتعجيز ما بينهما من شبه التضاد في متعلقهما ، فإن التعجيز في المستحيلات ، والطلب في الممكنات ، أو السببية ، لأن إيجاب شيء لا قدرة عليه يلزم التعجيز عنه .

ونسمع نداء المهلهل لآل بكر :

يا لبكر انشروا لي كليباً ... يا لبكر أين أين الفرار ؟

وذلك حين غدر جساس بن مرة بكليب شقيق المهلهل بن ربيعة . فأخذ المهلهل يهددهم بالويل والثبور ، وعظائم الأمور إن لم يعيدوا كليباً إلى الحياة ، وإعادة الحياة إلى كليب أمر فوق قدرتهم . فالأمر في قوله : « انشروا » أي : أعيدوا - مراد به : التعجيز ، وسر بلاغة التعبير بأسلوب الأمر : إشعارهم بأن لا مَنْجَى لهم من الأخذ بثأره منهم .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾[1] فالله جل وعلا يطلب من المشركين أن يثبتوا لآلهتهم التي يعبدونها من دون الله خلقاً مثل خلق الله ، وهذا طلب فوق طاقة البشر ، فالأمر في الآية الكريمة (فأروني) يراد منه التعجيز عما أمروا به .

وسر بلاغة التعبير بصيغة الأمر مكان « التعجيز » في هذه الآية : قوة

---

(١) سورة لقمان ، آية ١١ .

التسجيل على المشركين بالعجز ، وفي ذلك لفتهم إلى النظر في حالهم ، وما هم عليه من العناد وسوء التقدير وعماية الضلالة .

ويقول الشاعر :

أروني بخيلاً طال عمراً ببخله وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

فالشاعر يتحدى من يخاطبه ، ويأمره أن يأتي بإنسان بخيل قد طال عمره ، لأنه بخيل ، ويأمره أيضاً أن يأتي بكريم مات من الإنفاق . ولا شك أن هذا أمر خارج عن طاقة المخاطب .

فالأمر « أروني » و« هاتوا » مراد به التعجيز ، وترى الشاعر يدعو إلى الكرم وينفّر من البخل بأسلوب موح وموجز ومقنع ، ويحاول أن يكشف أمر البخل فيقلع البخلاء عن بخلهم ، وتطيب نفس الكريم ، ويزداد اقتناعاً بسلامة مسلكه .

التسخير : وأحياناً تأتي « صيغة الأمر » ويراد بها « التسخير » ، وذلك في مقام يكون المأمور به منقاداً للأمر ، ويكون الاستعمال مجازياً .

والعلاقة بين الأمر وبين التسخير هي : السببية ، وذلك أن طلب شيء لا قدرة للمخاطب عليه مع إيجاده بسرعة من غير توقف يتسبب عنه تسخير المخاطب ، والتسخير هو : التبديل من حال إلى حال فيها مهانة وذلة ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَقلنَا لَهُم كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ ﴾[1] أي : صاغرين ، مطرودين عن الخير والعز ، فالأمر في الآية الكريمة « كونوا » مراد به التسخير ، وسر بلاغته ما فيه من الإيماء إلى أن هذا الأمر ينزل بهم في أسرع لحظة ، وأنهم طائعون لما يطلب منهم ، صاغرون أمام ما يفعل بهم .

الإهانة : وقد تأتي صيغة الأمر ، ويراد منها الإهانة ، وذلك إذا استعملت

---

(١) سورة البقرة ، آية ٦٥ .

في مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور على أي وجه كان .

والعلاقة بين الأمر والإهانة اللزوم ، لأن طلب الشيء من غير قصد حصوله لعدم القدرة عليه يستلزم الإهانة ، خاصة إذا كان هذا الفعل من الأفعال الخسيسة ، فلا شك أنه يفيد الإهانة .

تأمل قوله تعالى : ﴿ قُل كُونُوا حِجَارَةً أو حَدِيدًا ﴾[1] فالأمر في الآية الكريمة « كونوا » لا يراد به حقيقته ، وإنما المراد منه « الإهانة » ، لأن الفعل ليس في طاقة المخاطبين ، وطلب أن يكونوا حجارة أو حديداً فيه إهانة لهم .

وسر بلاغة التعبير إظهار التهكم بهم حتى يلتفتوا إلى ما هم فيه من المهانة والذلة فيقلعوا عن عنادهم وتكبرهم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ذُق إنَّكَ أنتَ العَزيزُ الكَريمُ ﴾[2]، فالأمر في الآية الكريمة « ذق » ليس المراد منه طلب ذوق العذاب ، لأن الكافر الأثيم حينئذ في حال لا يمكنه الذوق ، لأنه يعاني غصص العذاب وآلامه ومحنه ، ولا شك أنك تحس في الآية الكريمة بقوة التحدي والإهانة والتهكم والاستهزاء بهؤلاء الذين انحرفوا عن الحق ولم يؤمنوا به .

التسوية : وقد يكون المراد من صيغة الأمر « التسوية »، وذلك إذا كان المتلقي أو المخاطب يتوهم رجحان أحد الأمرين أو الأمور على الآخر .

والعلاقة بين الأمر والتسوية : « التضاد » ، لأن التسوية بين الفعل والترك تضاد إيجاب .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ قُل أنفِقُوا طَوعاً أو كُرهاً لَن يُتَقَبَّلَ مِنكُم ﴾[3] .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٠ .

(٢) سورة الدخان ، آية ٤٩ .

(٣) سورة التوبة ، آية ٥٣ .

أي : يستوي عدم القبول منكم ، سواء أكانت النفقة منكم صادرة عن طواعية أو كراهية ، وذلك أن الله علم من حالهم عدم الاهتداء .

ومن هذا القبيل قوله سبحانه : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾[1] ، بالإضافة إلى ما سبق نجد في هذه الآية معنى الاحتقار والازدراء ، وقلة الشأن ، أي : فقد آمن به من هم أفضل وأعظم منكم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾[2] ، أي : صبركم أو عدمه في عدم النفع سواء ، وذلك أنه ربما يتوهم أن الصبر نافع للكفار في عذاب يوم القيامة ، فدفع ذلك بالتسوية بين الصبر وعدمه .

فليس المراد بصيغة الأمر « اصبروا » الأمر بالصبر ، بل المراد كما دلت عليه خاتمة الآية ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ - التسوية بين الأمرين .

التمني : وقد يكون الأمر مراداً به « التمني »، وهو طلب الأمر المحبوب الذي لا طماعية فيه ، والعلاقة بين الأمر والتمني الإطلاق والتقييد لأن الأمر طلب على وجه الاستعلاء ، فأطلق عن قيده ، ثم قيد بالأمر المحبوب الذي لا طماعية فيه ، ويمكن أن نقول : إن العلاقة بين الأمر والتمني السببية ، لأن طلب وجود الشيء الذي لا إمكان له سبب في تمنيه .

وذلك مثل قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى   بصبح وما الإصباح منك بأمثل

لقد كثرت الهموم على الشاعر حتى أصابه الأرق ، وهجره النوم ، وطال عليه الليل ، فتخيل أن الليل مارد جبار ، ينكل به ، وتخيله جسماً حياً ، فابتدأ الشاعر ينبهه فاستعمل « ألا » الاستفتاحية ، ثم ناداه كما ينادي الأحياء

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الطور ، الآية ١٦ .

ثم طلب منه الانجلاء ، ولكن الليل لا يقبل أن يطلب منه الانجلاء ، ولذلك كان الأمر « انجلى » مراداً به التمني .

فالشاعر يتمني أن ينجلي ذلك الليل ، وينأى بظلامه عنه ، حتى يستقبل الصباح ، وينعم بضيائه ، ثم عاد على ذلك بالنقض فقال : إنك أنت والصباح سواء ، فقد تحالفت الهموم عليه من كل جانب صباح مساء .

فليس الغرض من صيغة الأمر « انجلى » طلب الانجلاء من الليل ، لأن الليل ليس مما يخاطب ويؤمر ، وإنما يتمنى الشاعر ذلك تخلصاً مما يعانيه من لواعج الشوق وتباريح الهوى .

ومنه قول أبي العلاء المعري :

فيا موت زر إن الحياة ذميمة ويا نفس جدي إن دهرك هازل

فالشاعر قد استعمل صيغة الأمر « زر » مكان التمني إذ أن الموت لا يقبل أن يطلب منه الزيارة ، ولكن الشاعر يرى أن الموت قد تأخر تأخراً مملاً ، ولذا يتمنى أن يلبي زيارته فالحياة أصبحت جحيماً لا يطاق فالشاعر يتمنى الموت تخلصاً مما يعانيه من قسوة الحياة .

وهذا المعنى شائع بين الناس ، يقال : عند الأزمات وعند عدم تحمل نوائب الدهر ومصائبه .

الدعاء : وقد يأتي الأمر « للدعاء » وهو : الطلب على سبيل التضرع والخضوع ، ويكون من أدنى إلى أعلى ، نحو قوله عز وجل : ﴿ رَبَّنَا اغْفِر لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾[1] .

فليس من المعقول أن يكون الأمر في قوله تعالى : (اغفر لي) على

---

(١) سورة ابراهيم ، الآية ٤١ .

حقيقته وعلى أصله الذي عرفت له ، لأن الله جل وعلا لا يأمره أحد من خلقه ، إذ الأمر في الآية مجازي ، خرج عن معناه الأصلي إلى غرض الدعاء .

وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام « الدعاء » إظهار كمال الخضوع للمولى عز وجل وبيان شدة رغبة العبد في الغفران والتوبة ، كأنهما أمران مطلوبان من الله جل وعلا .

والعلاقة بين الأمر والدعاء الإطلاق والتقييد .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَن آمِنُوا بِربِّكُم فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغفِر لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّر عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبرَارِ ﴾[1] فالأفعال . « فاغفر » و« كفر » و« توفنا » خرجت عن معناها الحقيقي إلى « الدعاء » لإظهار كمال الخضوع للمولى جل وعلا ، واستمطار رحماته .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجعَل هٰذا بلداً آمِناً وارزُق أهلَهُ مِن الثَّمراتِ مَن آمَنَ مِنهُم بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ ﴾[2] يدعو سيدنا إبراهيم عليه السلام ـ ربنا تبارك وتعالى : وأن يجعل مكة بلداً آمناً لأهله من ذريته وغيرهم ، ويرزق من آمن منهم بالله واليوم الآخر .

فالفعل « جعل » وهو أمر يفيد معنى الدعاء . ويعبر عن الحب والرغبة والحنان لدى سيدنا ابراهيم عليه السلام لأمته وأهله .

ويقول المتنبي يخاطب سيف الدولة :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك ولا تعطين الناس ما أنا قائل

---

(١) سورة آل عمران ، آية ١٩٣ .

(٢) سورة البقرة ، آية ١٢٦ .

فالمتنبي يمدح سيف الدولة بالكرم ، ويجعله ملازماً له . ثم يخاطبه بصيغة الأمر « اعط » ، ومعلوم أن الملك لا يأمره أحد من رعاياه ، ولكن إيراد صيغة الأمر في مقام « الدعاء » في هذا البيت توحي بأن سيف الدولة رجل معطاء وكريم ، وتوحي أيضاً بأن الشاعر نسي كل شيء ما عدا شدة حرصه ورغبته في أن يحقق سيف الدولة أمله ورجاءه ، ويكثر عطاء الناس من أمواله ، حتى يفوز بالثناء الجميل ، والعز الأصيل .

ويخاطبه أيضاً فيقول :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم   فأنت الذي صيرتهم لي حسداً

فالمتنبي يطلب من سيف الدولة أن يكبت حساده ، لأنه السبب في إيغار صدورهم عليه حسداً ، من جراء اتصاله به ، وتقريبه إياه دونهم .

فالشاعر يخاطب سيف الدولة خطاب المتوسل ، لا خطاب الآمر . إذ أن « سيف الدولة » لا يأمره أحد من رعاياه ، واستعمال « الأمر » مقام الدعاء ، يوحي بأن المتنبي كانت عاطفته قوية ، لا يهمه إلا تحقيق ما يريد كأنه أمر مطلوب من سيف الدولة .

الالتماس : وأحياناً يخرج « الأمر » إلى غرض « الالتماس » ، وذاك إذا استعمل من زميل إلى زميله ، أو من ند لنده على سبيل التلطف ، وبدون التضرع والاستعلاء . كقول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وسقط اللوى ، والدخول ، وحومل . أسماء أماكن .

فامرؤ القيس يخاطب صاحبيه ، ويطلب منهما الوقوف في هذا المكان العزيز على نفسه ، ليذرفوا معه الدمع قضاء لحق هذه الذكرى الغالية ، وهو طلب من زميل لزميله ، بصيغة الأمر .

وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يراد بهذه الصيغة « الالتماس » لا الإلزام والتكليف ، لما نعرف من أن خطاب الند مع نده لا يراد به معنى الإلزام .

وتعبير امرىء القيس بصيغة الأمر مقام « الالتماس » توحي بأن جلال هذه الذكرى ، وشدة عملها فيه سيطرت عليه ، وأنسته كل شيء ما عدا رغبته في أن يشاركه الزميلان في الوقوف ساعة في هذه الديار يبكون جميعاً على تلك الأيام التي مضت ، كأن هذا الأمر مطلوب منهم جميعاً .

هذا . . والأمر لا يكون مقبولاً بين الزملاء إلا إذا كان بينهم تواضع جم وحب شديد .

تأمل قول كثير عزة :

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا   قلو صيكما ثم ابكيا حيث حلت

الربع : الدار ، والقلوص : الناقة الشابة ، وعقل البعير : قيده .

يطلب الشاعر من رفيقيه أن يقفا معه ساعة في منزل حبيبته وفاء لها وقياماً بحقه من البكاء فيه لخلوه من ساكنيه .

وتعبير الشاعر بصيغة الأمر مقام « الالتماس » يوحي بأن الشاعر في نفسه ذكريات عزيزة لهذا المكان أهاجته ، وسيطرت عليه وأنسته كل شيء ما عدا رغبته في أن يعقل زميلاه قلوصيهما ، ثم يبكيان معه كأن هذا الأمر مطلوب منهم جميعاً .

الإرشاد والنصح : وقد يراد من صيغة الأمر النصح والإرشاد ، وذلك إذا تضمن الأمر نصيحة لم تكن على وجه الإلزام ، كقولهﷺ لعلي كرم الله وجهه ، « إن أردت أن تسبق الصديقين ، فصل من قطعك ، واعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك » ينصحه صلى الله عليه وسلم بتلك الفضائل الثلاث ، والتعبير بالأمر يدل على حرص النبي عليه السلام على أن يكون

سيدنا « علي » متحلياً بتلك الفضائل .

ومن هـذا القبيل تلك الأوامـر التي ترد على ألسنـة الـوعـاظ والمـرشـدين والموجهين ، فإنهم يريدون منهـا النصح والإرشـاد ، وتنقل لنـا صورة مـا يكنه هؤلاء الوعاظ والمرشدون لأتباعهم من حب وإخلاص .

تصوير حال المتكلم وما هو فيه من حيرة وتخبط : وقد تكون صيغة الأمر دليلاً على الحيرة والتخبط ، تأمل قوله تعـالى حكايـة عن الكفار : ﴿ **أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ** ﴾[1] فهم يعلمون يقيناً أن ما في الجنة مُحَرَّم عليهم ، وأن الماء لن يصل إليهم ، ولكنهم لفرط حيرتهم وشدة ما هم فيه من الهم والحزن والعذاب الأليم ، كـأنهم فقدوا عقـولهم ، وصاروا يـطلبون ما لا سبيل إلى تحقيقه .

والامتنان : وقد تأتي صيغة الأمـر ، ويكون المـراد منها الامتنـان ، وذلك مثل قولـه تعالى : ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً** ﴾[2] . والمعنى أنكم لما آمنتم بربكم ، وتركتم الكفر ، فكلوا الحـلال الطيب وهـو الغنيمة واتـركوا الخبائث .

والتعبير بصيغة الأمـر في مقام الامتنـان ، تحس فيه الكـرم الربـاني لعباده حيث يـدفعهم دفعاً إلى التمتـع بما رزقهم بـه ، فالنصـر من عنـده ، والـرزق بيـده ، ومع ذلـك فهو كـريم لا يبخل على عبـاده ويـذكـرهم بنعمـه صـلاحـاً لمعاشهم ومعادهم .

الإكرام : وقد تـأتي صيغة الأمـر مقام « الإكـرام » كما في قـوله تعـالى : ﴿ **ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ** ﴾[3] ، « وقد قيل : إنهم إذا كـانوا في جنـات وعيون

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٥٠ .

(٢) سورة النحل ، الآية ١١٤ .

(٣) سورة الحجر ، الآية ٤٦ .

فكيف يقال لهم بعد ذلك (ادخلوها) على قراءة الجمهور ؟ فإن الأمر بالدخول يشعر بأنهم لم يكونوا فيها ، وأجيب بأن المعنى أنهم لما صاروا في الجنات . فإذا انتقلوا من بعضها إلى بعض ، يقال لهم عند الوصول إلى التي أرادوا الانتقال إليها : ﴿ ادخلوها ﴾[1] ، ونرى أن تكون صيغة الأمر هنا مراداً بها « الإكرام » من الله جل وعلا لعباده المؤمنين وهذا الأسلوب شائع بين الناس فنحن نقول للضيف ، وهو مستمر في الأكل والشرب « كل واشرب » وأحياناً نقسم عليه أن يأكل ، ولا نقصد من هذا الأسلوب إلا زيادة في كرمه ، وترجمة عما نكن له من الاحترام والسرور بضيافته وأكله وشربه ، فهذا الأسلوب تصوير لخلجات النفس الكريمة التي تحب الضيف وتهش له .

الدوام : وترى صيغة الأمر قد استعملت في مقام « الدوام » كقوله تعالى : ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ ﴾[2] ومعنى طلب الهداية - وهم مهتدون طلب زيادة الهدى والدوام عليها والتثبت عليها ، وفي هذا المعنى تصوير لنفس المؤمن وحرصه على الهداية لما ظهر له فيها من فلاح في الدنيا والآخرة .

التكوين : وأحياناً يأتي الأمر في مقام « التكوين » مثل قوله تعالى : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾[3] وهو قريب من التسخير إلا أن هذا أعم[4] .

الاحتقار : وتأتي صيغة الأمر في مقام « الاحتقار » وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ أَلقُوا مَا أَنتُم مُلقُونَ ﴾[5] وهو قريب من الإهانة أو هما بمعنى واحد .

---

(١) فتح القدير للشوكاني ج ٣ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٢) سورة الفاتحة الآية ٦ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١١٧ .

(٤) عروس الأفراح ح ٢ ص ٣٢١ ضمن شروح التلخيص .

(٥) سورة الشعراء ، آية ٤٣ .

التفويض : وأحياناً يأتي الأمر في مقام التفويض كما في قوله تعالى : ﴿ **فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾[1] هذا جواب السحرة لفرعون ، والمعنى : فاصنع ما أنت صانعه ، فإنما سلطانك علينا ونفوذ أمرك فينا في هذه الدنيا ، ولا سبيل لك علينا فيما بعدها .

واستعمال صيغة الأمر « فاقض » مكان التفويض ـ تصوير لحال السحرة بعدما رأوا الآيات البينات ومس الإيمان شغاف قلوبهم ـ فحالهم أصبحت تهكماً بفرعون واستهانة بجبروته من ناحية ، وتشوقاً للجهاد في سبيل الله والدعوة للإيمان وضرب المثل الأعلى له من ناحية أخرى .

إلى غير ذلك من الأغراض التي يطول حصرها .

والحق أن الأسلوب الإنشائي من أهم ما يمتاز به القول الفني الجميل ،

فهو لا يعطيك الحقيقة مجردة جافة ، بل إذا تأملت وجدته أعطاك من خلال الأمر ـ صوراً رائعة خلابة غنية بالمعاني ، تعمل على تأكيد المعنى في ذهن السامع .

وإذا كان أسلوب الأمر كما وقفنا عليه فخليق بالأديب والمتلقي أن يحتفلا به ، وذلك يحقق المشاركة والتأثير .

أسلوب النهي

النهي : هو كل أسلوب يطلب الكف عن شيء على طريق الاستعلاء والإلزام ، وله صيغة واحدة هي : المضارع المقرون بلا الناهية كقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا** ﴾[2] وقوله سبحانه : ﴿ **وَلَا**

---

(١) سورة طه ، آية ٧٢ .

(٢) سورة الأعراف ، آية ٥٦ .

تَلبِسوا الحَقَّ بِالباطِلِ وَتَكتُمُوا الحَقَّ وأنتم تَعلَمُونَ ﴾[1] .

ففي الآيـة الأولى طلب الكف عن الفساد في الأرض ، واستعمـل لذلـك صيغـة النّهي وهي : « المضارع المقـرون بلا النـاهية » ، وكـذلـك في الآيـة الثانية .

الأغراض البلاغية
التي يخرج إليها أسلوب « النهي »

والنهي أيضـاً يخـرج عن معنـاه الحقيقي إلى معنى مجـازي ، ويؤدي أغراضاً بلاغية يعرفها القارىء أو السامع بمعونة القرائن ، منها :

التهديد : وتأتي صيغة النهي في مقام « التهديد » وذلك مثل قول الـرئيس لمرءوسه : « ولا تطع أمري » ، و« لا تقلع عن عنادك » .

وإنما كان هذا تهديداً ، لأنَّ من المعلوم أن الرئيس لا يطلب من مرءوسـه ترك الامتثال لأوامره ، لأن المطلوب من المرءوس الامتثال لا عدمه .

والتهـديد خبـر في المعنى إذ كأنـه قال لـه : سترى مـا يلزمك على تـرك الأمر .

واستعمال صيغة « النهي » في مقام « التهديد » من باب المجاز المرسل ، والعـلاقـة بين النهي والتهـديـد السببيـــة ، لأن النهي عن الشيء يتسبب عنه التخويف والتهديد لمخالفته .

الدعاء : وقـد تستعمل صيغـة النهي في مقام « الـدعاء » وذلـك إذا كانت على وجه التخضع والتـذلل . كقـوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذنَا إن نَسِينَـا أَو

---

(1) سورة البقرة ، آية ٤٢ .

أَخْطَأْنَا رَبنَا وَلَا تَحمِلْ عَلينَـا إصراً ﴾[1] ففي الآية إبتهال إلى الله من المؤمنين الصـادقين والنهي فيهـا على سبيـل التضـرع والتـذلـل والمقصـود منـه : « الدعاء » .

وسر التعبير بصيغة النهي في مقام « الدعاء » في الآية الكريمـة بيان رغبـة العبد في الغفران ، وإظهار كمال الضراعة إلى الله جل وعلا .

ومنـه قولـه تعالى : ﴿ رَبنَـا لَا تُزِغ قُلوبَنَـا بَعدَ إذْ هَـدَيتَنَـا ﴾[2] ، يـدعـو المؤمنون الذين أنعم الله عليهم بهدايته أن يثبت الله قلوبهم على الإيمان .

واستعمال صيغة « النهي » في مقام « الدعاء » تصويـر حي وتعبير صادق عن رغبـة هؤلاء المؤمنين في الثبات على الهـداية ، وحبهم القـوي لـلإيمـان بالله ، وبما جاء على ألسنة الرسل عليهم السلام .

وعليه قول مسلم بن الوليد في الرشيد :

لا يعدمنك حمى الإسلام من ملك أقمت قلتـه من بعـد تـأويـد

فمسلم بن الوليد لا يقصد من النهي إلا « الدعاء » للخليفة الرشيد لتأييد الإسلام وإعلاء كلمته .

وعبر بصيغة النهي في مقام « الدعاء » لإظهار ما يكنه الشعب والشاعر من حب وحرص على بقاء الرشيد يحمي حمى الإسلام .

والعلاقة بين النهي والدعاء الإطلاق والتقييد على جهة المجاز المرسل .

الالتمـاس : وقـد يـراد من النهي « الالتمـاس » ، وذلـك إذا كـان من المساوي بدون استعلاء وتخضع ، كقولك لنظيرك : « لا تفعل هذا » .

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٨٦ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٨ .

والعلاقة بين النهي والالتماس الإطلاق ، لأن النهي موضوع لطلب الكف استعلاء فاستعمل في مطلق طلب الكف على جهة المجاز المرسل .

ومنه قوله تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى : ﴿ قَالَ يَابنَ أُمَّ لَا تَأخُذ بِلحيَتِي وَلَا بِرَأسِي إنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقتَ بَينَ بَنِي إسرَائِيلَ ﴾[1] ، فالنهي في قوله : « لا تأخذ » ليس على حقيقته ، وإنما هو للالتماس ، لأنه ليس فيه استعلاء ولا إلزام . والمعنى : نسبه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه ، استعطافاً له ، وترقيقاً لقلبه . والتمس منه عدم إنزال العقوبة به لأنه خشي إن خرج عليهم أن يتفرقوا .

وسر بلاغة التعبير بصيغة النهي مقام « الالتماس » في الآية الكريمة ، إظهار الحرص على ترقيق الأخ على أخيه ، والأصل القوي في العفو والتسامح فقد كان لهارون عذر .

ومن هذا القبيل قول المتنبي في سيف الدولة :

فلا تبلغاه ما أقول فإنه شجاع متى يُذْكَرُ له الطعن يَشْتق

فهو يلتمس من صاحبيه أن يكتما عن سيف الدولة ما سمعاه في وصف شجاعته وفتكه بالأعداء، وحسن بلائه في الحروب .

وسر بلاغة التعبير بصيغة « النهي » مقام « الالتماس » إظهار شدة حرص أبي الطيب على كتمان هذا الأمر عن سيف الدولة ، وفي ذلك تهويل بشجاعة الممدوح وتفخيمها .

الحث : وقد يكون « النهي » مراداً به « الحث » كقول اسماعيل صبري :

لا تقربوا النيل إن لم تَعملوا عملاً فماؤه العذب لم يخلق لكسلان

---

(١) سورة طه ، الآية ٩٤ .

فهو ينهى المصريين ـ على لسان فرعون ـ عن الشرب من ماء النيل إن لم يُقدِّموا عملاً عظيماً يصبحون به جديرين أن يشربوا منه .

فالغرض من النهي « الحث » ، والتعبير بالنهي مقام « الحث » إظهار عاطفة الشاعر نحو تقَدُّم مصر ، وأنه لا يستحق الحياة من لا يعمل لوطنه وأمته ويساعد على تقدمها وازدهارها .

التحقير : وقد يأتي « النهي » للتحقير . تأمل قول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فهو يحقر المخاطب ، فيقول له : « لا ترحل » إلى طلب المعالي ، فأنت لست أهلاً للكفاح ، واقعد ، وسيأتيك الطعام والشراب والكساء .

فالغرض من « النهي » التحقير . لأن المخاطَب لا يمتثل لهذا النهي ولا ينتظر المتكلم منه أن يمتثل ، وإنما يريد أن يظهر احتقاره فحسب .

وسر بلاغة التعبير بصيغة « النهي » مقام « التحقير » ما فيها من التحقير وعدم الاعتداد بالمخاطب ما لا يحيط به الوصف .

التوبيخ : وقد يأتي « النهي » دليلاً على « التوبيخ » تأمل قول أبي **الأسود** الدؤلي :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

نجد أن الشاعر يقصد توبيخ من ينهى الناس عن السوء ، ولا ينتهي عنه .

النصح والإرشاد : وقد يأتي « النهي » دليلاً على « النصح والإرشاد » كقول أبي العلاء :

ولا تجلس إلى أهل الدنايا فإن خلائق السفهاء تعدي

فهو ينصح مخاطبه ، ويرشده إلى الإبتعاد عن السفهاء وأهل الدنايا .

وعبر بصيغة « النهي » « ولا تجلس » لبيان رغبته في امتثال مخاطبه لنصحه وإرشاده .

التمني : وقد تدل صيغة النهي على « التمني » كقول الخنساء :

أعَيْنيَّ جودا ولا تجمدا ... ألا تبكيان لصخر الندى

فالخنساء تتمنى أن تجود عيناها بالبكاء على أخيها فهو جدير بالبكاء ، وعلى ذلك يكون قولها « ولا تجمدا » نهي أريد به « التمني » .

وسر التعبير بصيغة « النهي » في مقام « التمني » إظهار شدة حزنها وولهها ، وأنها من أجل ذلك تضع الممكن « النهي » موضع المستحيل « التمني » والعلاقة بين النهي والتمني التضاد على جهة المجاز المرسل .

ومنه قول الشاعر :

يا ليل طل يا نوم زل ... يا صبح قف لا تطلع

فقوله : « لا تطلع » نهي أريد به « التمني » فهو يتمنى ألا يطلع النهار ليطول اجتماعه بحبيبته ، والتحدث إليها ، فنهي الصبح عن الطلوع أمر مستحيل ، لأنه فوق طاقة المحب فالموضع موضع التمني .

ولكن الشاعر برغبته الشديدة في أن يطول الليل خُيِّل إليه أن عدم طلوع الصبح أمر ممكن فنهاه عن الطلوع .

إلى غير ذلك من الأغراض التي تخرج إليها صيغة « النهي » والتي يمكن إدراكها في ظل الجو النفسي الذي ورد فيه « النهي » وبواسطة السياق وقرائن الأحوال .

أسلوب الاستفهام

قالوا في تعريفه : الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأدوات خاصة .

ويقولون أيضاً : إن هذا الشيء المطلوب علمه نوعان :

١ ـ النسبة بين الشيئين ـ ثبوتاً أو نفياً ـ ويسمى العلم بها : تصديقاً .

٢ ـ أحد طرفي النسبة ، وهما : المسند إليه ، والمسند ، أو أحد متعلقيهما ، كالمفعول ، والحال ، والظرف ، ونحوهما ، ويسمى إدراك أحدهما : تَصَوُّراً .

وعلى ذلك يكون التصديق : هو إدراك النسبة بين الشيئين ثبوتاً أو نفياً .

والتصور : هو إدراك المسند ، أو المسند إليه ، أو أحد المتعلقات .

والألفاظ الموضوعة للاستفهام هي : الهمزة ، هل ، من ، ما ، أي ، كيف ، متى ، أبان ، أين ، أنى ، كم .

وتنقسم هذه الأدوات بحسب المستفهم عنه إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ ما يطلب بها التصور تارة ، والتصديق تارة أخرى وهي :
« الهمزة » .

٢ ـ ما يطلب بها التصديق فقط وهي : « هل » .
٣ ـ ما يطلب بها التصور فقط وهي بقية أدوات الاستفهام .

فالهمزة تستعمل في أحد أمرين :

الأول : أن يطلب بها : التصديق . أي : إدراك النسبة الواقعة بين الطرفين ثبوتاً أو نفياً ، وذلك إذا كان المتكلم يجهل مضمون الجملة ، ويتردد في ثبوتها لأمر ، أو نفيها عن ذلك الأمر .

تقول : « أخالد بطل » ؟ فالسائل تصور « خالداً » ، وتصور « البطل » وتصور النسبة بينهما ، أي نسبة البطولة لخالد ، والسؤال إنما عن وقوع هذه النسبة : هل البطولة المنسوبة إلى خالد ، متحققة خارجاً أو غير متحققة ؟ ـ فإذا قيل في الجواب . « نعم بطل »، أو قيل : « لا ! ليس بطلاً » حصل التصديق . ولعلك لاحظت الجواب في طلب التصديق يكون بنعم ، أو ـ لا .

وحينئذ يمتنع معها ذكر المعادل « أم » ، فإن جاءت « أم » بعدها ، كانت منقطعة بمعنى « بل » كما في قول الشاعر :

ولست أبالي بعد فقدي مالكا   أموتيَ ناء أم هو الآن واقع ؟

معناه : بل هو الآن واقع .

الثاني : أن يطلب بها : التصور ، أي : إدراك أحد طرق هذه النسبة أو شيء من المتعلقات :

تقول : أمحمد في الفصل أم أحمد ؟ ـ ففي هذه الحال ـ تعلم أن في الفصل أحدهما ، أي : أن نسبة الحلول في الفصل ثابتة لأحدهما ، فأنت لا تسأل عن هذه النسبة ، لأنك عالم بها ، وإنما تطلب بالسؤال تعيين الموجود في الفصل ، أهو محمد أم أحمد ؟ فإذا قيل في الجواب « محمد أو أحمد » حصل التصور . أي يكون الجواب هنا بتعيين المسئول عنه .

وفي هذه الحال يجب أن يذكر المسئول عنه بعد الهمزة مباشرة ، فإذا كان الشك في المسند إليه وأردت أن تزيل هذا الشك بالسؤال عنه . قلت : « أعلي المسافر أم سعيد » ؟ .

وإذا كان الشك في المسند ، قلت : أمجتهد عادل أم كسول ؟ وإذا كان الشك في المفعول ، قلت : « أشعراً تكتب أم نثراً ؟ وفي الحال تقول : « أراكباً جئت أم ماشياً ؟ وفي الظرف الزماني قلت . أيوم الخميس حضرت أم يوم الجمعة ؟ والمكاني قلت : « أفي المسجد صليت أم في البيت ؟ وهكذا .

ويكون الجواب في كل ذلك بالتعيين ، فيقال مثلاً : علي ، ومجتهد ، وشعراً ، وراكباً ، ويوم الخميس ، وفي البيت .

وفي الغالب يذكر للمسئول عنه معادل بعد « أم » المتصلة كما في الأمثلة السابقة .

وقد يستغني عن ذكر المعادل . إذا كان هناك ما يدل عليه ، كالمقام في مثل قوله تعالى : ﴿ أأنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبرَاهِيمُ ﴾[1] ، فإن المقام يدل على أن المعادل : هو « أم غيرك » .

أمّا « هل » : فيطلب بها التصديق فحسب ، وتدخل على الجملتين : الاسمية نحو : هل زيد قاعد » ، والفعلية نحو : « هل قام عمر » ، إذا كان المطلوب حصول التصديق بثبوت القعود لزيد ، والقيام لعمر .

وَلَمَّا كانت « هل » إنما تجيء لطلب التصديق ، أي السؤال عن مضمون الجملة نحو : « هل ذاكر الطلاب دروسهم » ؟ كان الجواب : « بنعم » إثباتاً و« بلا » نفياً .

وعلى ذلك لا يذكر معها معادل بعد « أم » المتصلة ، ومن هنا امتنع أن يقال : « هل زيد قائم أم عمرو » ، لأن « هل » تدل على أن مضمون الجملة مجهول ، ووقوع المفرد في هذا المثال بعد « أم » دليل على أن « أم » متصلة و« أم » المتصلة تدل على أن مضمون الجملة معلوم ، وإنما المطلوب تعيين أحد الأمرين فإذا جمعنا بين « هل » و« أم » المتصلة في مثال واحد . أدّى هذا الجمع إلى التناقض بينهما .

ويصح اجتماع « هل » مع « أم » المنقطعة ، لأنها بمعنى «بل » كقول الشاعر :

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٦٢ .

ألا ليت شعري هل تغيرت الرحا رحا الحرب أم أضحت بفلج كما هيا

ويقول البلاغيون : إن « هل » يقبح استعمالها في مثل قولك : « هل زيداً أكرمت » لأن تقديم المعمول على الفعل ، أي تقديم « زيداً » على أكرمت يدل في الغالب على علم المتكلم بالنسبة ، إذا كان « التقديم للتخصيص » لأنه يفيد العلم بالنسبة ، وأن الشك إنما هو في المفرد ، ونحن نعرف أن « هل » لا تكون إلا لطلب التصديق الذي ـ كما عرفنا ـ هو : إدراك النسبة ، فلا يناسبها طلب التصور الذي كما عرفنا أيضاً ـ هو : « إدراك المفرد » ، وإذا كان التركيب « زيداً أكرمت » مما يقتضي ـ غالباً ـ أن النسبة معلومة كانت « هل » هنا لطلب حصول الحاصل وهو عبث ، وإنما لم يمتنع مثل هذا التركيب لاحتمال أن يكون « زيداً » مفعول لفعل محذوف قبله ، وعلى ذلك فلا تقديم .

أو يكون التقديم لمجرد الاهتمام بالمتقدم لا للتخصيص الذي يفيد العلم بالنسبة ، وكلا الاحتمالين مخالف للظاهر .

فعلى الاحتمال الأول : يكون الفعل الظاهر منع من العمل بلا شاغل عنه وذلك قبيح .

هوعلى الاحتمال الثاني : وهو جعل التقديم لمجرد الاهتمام بالمقدم يكون على خلاف الغالب ، إذ الغالب في تقديم المعمول المنصوب أن يكون للتخصيص ومخالفة الغالب قبيحة .

وجعل السكاكي قبح نحو : « هل رجل عرف » المتفق على قبحه ، لما قبح له « هل زيداً ضربت » .

والأصل عنده « هل عرف رجل » فيكون « رجل » مقدماً من تأخير ويفيد هذا التقديم التخصيص المفيد للعلم بأصل الثبوت للنسبة ، وهذا ينافي مقتضى « هل » التي يسأل بها عن النسبة ، ومعنى ذلك أن النسبة مع « هل »

غير ثابتة ، لكن المثال الذي معنا إذا اعتبرنا ـ كما هو رأي السكاكي أن التقديم فيه يفيد التخصيص كانت النسبة ثابتة فيحدث التناقض أو التنافي ـ كما علمنا .

وإنما جعل السكاكي نحو « هل رجل عرف » قبيح كما قبح له « هل زيداً ضربت » لأن مذهبه في تقديم المسند إليه على خبره الفعلي ، ينص على أن نحو هذا المثال يقدر فيه أن « رجلاً » بدل من الضمير المستتر في « عرف » فالتقديم يفيد التخصيص المنافي لمقتضى « هل » .

ولم يجعل السكاكي « هل رجل عرف » ممتنعاً لجواز أن يكون التقديم لمجرد الاهتمام وليس للتخصيص .

أو يكون الكلام بتقدير فعل يكون رافعاً « لرجل » :

ويلزم السكاكي حيث جعل علة القبح « تقديماً » يفيد التخصيص ، ألا يقبح ما لا يصح فيه التقديم للتخصيص نحو قولك : « هل زيد عرف » فإن التقديم فيه ليس للتخصيص المستدعي لحصول التصديق بأصل الفعل المنافي للطلب « بهل » وإنما هو للاهتمام والتقوي كما تقدم لأنه اسم ظاهر ومعرفة .

ولا يصح تقدير تأخيره على أنه فاعل معنى ، كما قدر السكاكي في « هل رجل عرف » مع أن هذا التركيب أعني « هل زيد عرف » قبيح بالإجماع .

وأجيب عن هذا بأن انتفاء علة من علل القبح « وهي كون التقديم للتخصيص لا يستلزم انتفاء جميع العلل .

فلا يلزم السكاكي أن يقول بحسن قولنا : « وهل زيد عرف » ، بل يجوز أن تقول فيه بالقبح لعلة أخرى ، إذ يلزم من نفي علة ، نفي جميع العلل ، فاللازم عدم وجود القبح لتلك العلة لا نفي القبح مطلقاً .

وعلل غير السكاكي قبح التركيبين وهما : « هل رجل عرف » و« هل زيد عرف » بعلة أخرى ـ غير ما علل به السكاكي في « هل رجل عرف » :

وهذه العلة هي أن : « هل » في أصل استعمالها بمعنى « قد » ، فأصل هل عرف زيد « أهل عرف زيد » بإدخال همزة الاستفهام على « هل » على أنها بمعنى قد فكأنه قيل : « أقد عرف زيد » ،وهذا أصل استعمالها ثم أسقطت الهمزة قبل « هل » لكثرة وقوعها في الاستفهام ، وأقيمت هي مقام الهمزة التي كانت تصاحبها كثيراً ، وأصبحت « هل » بمعنى « قد » فلم تذكر الهمزة أصلاً ، بل تطفلت عليها « هل » في إفادة معنى الاستفهام .

ولأجل أن « هل » بمعنى « قد » في الأصل أدخلت على الفعل دون الاسم مثل « قد » مراعاة لمعناها الأصلي .

وعلى ذلك إذا وجد الفعل في التركيب ، وجب مراعاة معنى « هل » الأصلي في لزوم موالاتها الفعل . وأما إذا لم يوجد الفعل أصلاً في التركيب روعي في « هل » معنى الاستفهام الذي نقلت له ، فجاز دخولها على الاسم .

فلا يقبح أن يقال : « هل زيد قائم » ، وإنما يقبح أو يمتنع نحو قولك : « هل زيد قام » .

والفرق بين التركيبين : أنها إذا لم تر الفعل في حيزها ذهلت عنه ، وتعلت ، ولم تتذكر المعاهد والأوطان ، وأما إذا رأته أمامها ، فإنها تتذكر المعاهد والأوطان ، فلا تجد بداً من معانقته على أصلها ، فلا تقبل تفريق الاسم ـ سواء أكان معرفة أو نكرة ـ بينها وبين الفعل الذي هو إلفها[1] . من حيث أنها في الأصل بمعنى « قد » المختصة بالفعل .

---

(١) أنظر شروح التلخيص ص ٢٥٩ ـ ٢٦١ .

ولما كانت « هل » منقولة للاستفهام ، وليست أصلاً فيه بل فرعاً ، تقاصرت عن الهمزة ، فاختص المضارع بعد « هل » بالاستقبال .

وعلى ذلك لا يجوز أن تقول : « هل تضرب زيداً وهو أخوك » ، لأن هذا استفهام توبيخ ، والتوبيخ لا يكون على المستقبل ، إنما يكون على الحال والماضي ، واستفهام التوبيخ ، لا يكون إلا بالهمزة .

فيصح أن تقول : « أتضرب زيداً وهو أخوك » توبيخاً على ضرب واقع . فتستفهم بالهمزة عن الحال بخلاف « هل » ، وذلك لأن « هل » منقولة للاستفهام لذلك التزم فيها مقتضى الاستفهام ، ليبين أصل الغرض الذي نقلت إليه ، وذلك هو تخليصها الفعل المضارع للاستقبال ، لأن حصول المستفهم عنه ينبغي أن يكون استقبالياً ، إذ لا يستفهم عن الواقع في الحال حال شهوده . فلا تقول : « هل تضرب زيداً وهو أخوك » ، فإن تقييد الضرب بالأخوة يفيد شيئين : أحدهما الإنكار ، لأن من أشنع المناكر ضرب الأخ سواء أكان صديقاً أو نسباً .

والآخر : الحال ، لأن الأخوة حالية إذ لا يراد استقبالها ولا مضيها لأن الاستفهام الإنكاري لا يناسبه عرفاً إلا الحال ، إذ لا معنى لقولنا : « أتضرب زيداً وهو سيكون لك أخاً » .

ويجوز أن نقول : « أتضرب زيداً وهو أخوك » ، لأن الاستفهام بالهمزة يصح فيه إرادة الحال ، ومعناه الإنكار ، أي : لا ينبغي أن يقع منك الضرب ، فالإنكار إنما يتسلط هنا على الانبغاء ، ويحتمل أن يتسلط على ما لم يقع من الضرب ، لأن الحال أجزاء مضى بعضها وبقي البعض .

وعلى ذلك كل مضارع أريد به الحال يمتنع دخول « هل » عليه ، سواء قيد بجملة حالية مثل : « هل تضرب زيداً وهو أخوك » أو لم يقيد ، وذلك

كقوله تعالى : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ مَا لَا تَعلَمُونَ ﴾[1] ، فإن القرائن تدل على أن المراد إنكار القول الحالي ، لا الاستقبالي والمضي ، وكذلك قولك : « أتؤذي أباك » و« أتشتم الأمير » حال الإذاية والشتم ، فهذه المواضع وأمثالها ليست مواضع « لهل » ، لأن المراد بالفعل فيها الحال وهي تخلصه للاستقبال .

أما إذا دخلت « هل » على الجملة الاسمية مثل : « هل زيد قائم » أو الفعل الماضي مثل : ﴿ فَهَل وَجَدتُم مَا وَعَدَ رَبُّكُم حَقاً ﴾[2] فيبقى كل منهما على أصله ولا تؤثر في أحدهما شيئاً .

ولما كانت « هل » تختص بطلب التصديق بالنسبة ، أي : الحكم بثبوت النسبة أو انتفائها ـ الموجه إلى الحدث الذي هو جزء مفهوم الفعل .

ولما كانت أيضاً تؤثر في بعض أنواع الفعل بتخليص المضارع للاستقبال كان لها مزيد اختصاص بالفعل ، فيكون تعلقها بالفعل ، ودخولها عليه لفظاً أو تقديراً أشد من تعلقها بالاسم ، ودخولها عليه[3] .

وبناء على ذلك إذا جاءت « هل » في أسلوب داخلة على الجملة الاسمية كان ذلك لنكتة بلاغية ، وهذه النكتة هي . أن يجعل « ما سيكون » الذي هو مفاد الجملة الفعلية في معرض الكائن الحاصل الذي هو مفاد الجملة الاسمية اهتماماً بشأنه ، واعتناء بأمره . ومن ثم كان قوله تعالى : ﴿ فَهَل أَنتُم شَاكِرُونَ ﴾[4] الذي عدل فيه عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية ، أدل على طلب حصول الشكر من قولنا : (فهل تشكرون) أو (فهل أنتم

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٨ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٤٤ .

(٣) أنظر شروح التلخيص ح ٢ ص ٢٦١ ومغابدها .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٨٠ .

شكرون) : ولذلك لا يصح قولنا : « هل زيد منطلق » ، إلا من البليغ .

لأن إبراز ما سيحصل في معرض الحاصل أقوى دلالة على كمال العناية بحصوله ، وذلك بناء على قول البلاغيين ، « إن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام ، والفعلية تفيد التجدد والحدوث .

أما باقي الأدوات فهي للتصور لا غير ، ويسأل بها عن معناها ، ويكون الجواب عنها بتعيين المسئول عنه .

فمن : لتعيين أفراد العقلاء نحو : « من فتح الأندلس ؟ » والجواب : القائد المسلم المشهور طارق بن زياد .

ما : لتعيين غير العقلاء ويطلب بها .

١ ـ ايضاح الاسم نحو : ما المسجد ؟ والجواب : ذهب .

٢ ـ بيان حقيقة المسمى نحو : ما الشمس ؟ والجواب : كوكب نهاري .

٣ ـ بيان الصفة نحو : ماسعد ؟والجواب : طويل أو قصير مثلاً .

متى وأيان : لتعيين الزمان . نقول : « متى قامت الحرب العالمية الثانية » ؟ .

« وأيان جئت » ؟

كيف : لتعيين الحال كقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾[1] .

أين : لتعيين المكان نحو : أين تقع مدينة القدس ؟ .

أنى : تأتي لتعيين الزمان كمتى نحو : أنى تمطر السماء ؟

---

(١) سورة النساء الآية ٤١ .

وتأتي لتعيين المكان بمعنى « من أين » نحو قوله تعالى : ﴿ يا مَرْيَمُ أنّى لكِ هَذا ﴾[1] ؟ أي : من أين لك هذا ؟ .

وتأتي لتعيين الحال بمعنى « كيف » نحو قوله تعالى : ﴿ أنَّىٰ يُحيِي هـٰذِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوتِهَا ﴾[2] .

كم : لتعيين العدد نحو . كم بيتاً ملكت ؟ . فيقال مائة وألفاً مثلاً .

أي : تستعمل في تميز أحد المتشاركين في أمر يعمهما نحو : أي الرجلين أكبر سناً ؟ وقوله تعالى : ﴿ أيُّ الفَريقَينِ خَيرٌ مَقَاماً ﴾[3] .

ويسأل بها عن الزمان ، والمكان ، والحال ، والعدد ، والعاقل ، وغير العاقل ، إذ هي تكتسب معنى ما تضاف إليه ، فنقول في السؤال بها عن الزمان . « أي يوم أجرزنا النصر على أعداء الدين ؟ ، وعن المكان : « في أي مكان التقينا ؟ وعن الحال : على أي حال تركت زميلك ؟ ، وعن العدد : « إلى أي عدد بلغت نقودك ؟ » ، وعن العاقل : أي رجل قابلت ؟ وغير العاقل : « أي منزل اشتريت ؟ » .

هذه هي المعاني الحقيقية لأدوات الاستفهام ذكرناها توطئة لما يفاد منها من أغراض بلاغية .

الأغراض البلاغية
التي يخرج إليها الاستفهام

تخرج ألفاظ الاستفهام عن معانيها الأصلية لمعان وأغراض بلاغية ، تفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال ، وجو النص ونفسيته .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٧ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٩ .

(٣) سورة مريم الآية ٧٣ .

وإذا استعملت ألفاظ الاستفهام في غير معانيها الأصلية فإنها تعطي الكلام حيوية ، وتزيد الإقناع والتأثير به ، وذلك لما في هذا الاستعمال من إثارة للسامع ، وجذب لانتباهه ، ومن إشراكه في التفكير ، ليصل بنفسه إلى الجواب دون أن يملى عليه .

ومن أهم الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام هي :

الاستبطاء : وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ مَتَىٰ نَصرُ اللهِ ﴾[1] ؟ حيث وقعت في سياق الآية الكريمة التي تقول : ﴿ أم حَسِبتُم أن تدخُلوا الجنَّةَ ولَمَّا يأتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبلِكُم مَسَّتهُمُ البَأساءُ والضَّرَّاءُ وَزُلزِلوا حَتىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصرُ اللهِ ﴾[2] ؟ والمعنى : أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين مضوا من قبلكم من الأنبياء، ومن معهم من المؤمنين ؟ فأنتم لم تبتلوا مثل ابتلائهم ، مستهم الشدة والخوف والفقر والألم ، والأمراض ، وازعجوا إزعاجاً شديداً ، حتى اضطرهم الخوف الشديد إلى أن يقول الرسول - وهو أعلم الناس بالله ، وأوثقهم بنصره - والذين آمنوا معه : « متى نصر الله » ؟

فقد استطالوا مدة العذاب واستبطئوا مجيء النصر ، فمتى ليست هنا في معناها الحقيقي ، وإنما هي لغرض آخر هو الاستبطاء . وسر التعبير بصيغة الاستفهام في مقام « الاستبطاء » إظهار السآمة من طول الانتظار ، وجذب انتباه السامع ، ودعوته للمشاركة .

وتسمع زميلك وأنت تنتظر معه وصول السيارة ، وقد طال انتظاركما لها - يقول : « متى تصل السيارة » ؟ فهو لا يريد العلم بشيء يجهله ، ولكنه يريد أن يعبر عن ملله وسآمته ، وأنه قد استبطأ وصول السيارة ، فيفيدك هذا بطريق الاستفهام ، ليجذب انتباهك . ويدعوك لمشاركته .

(١ و٢) سورة البقرة الآية ٢١٤ .

وتقول لصاحبك : « كم دعوتك ؟ » ، إذا كنت دعوته فأبطأ في إجابة الدعوة ، فليس المراد استفهام المتكلم عن عدد الدعوة لجهله به ، إذ لا يتعلق بعدد الدعوة غرضه .

فقرينة الإبطاء مع عدم تعلق الغرض بالاستفهام ، ومع جهل المخاطب بالعدد كل هذا يدل على أن المتكلم أراد بالاستفهام « الاستبطاء » .

واستعمال الاستفهام في مكان « الاستبطاء » يقول عنه البلاغيون . إنه استعمال مجازي لعلاقة اللزوم ويوضحون العلاقة بقولهم : إن السؤال ـ مثلاً ـ عن عدد الدعوة الذي هو مدلول اللفظ ، يستلزم الجهل بذلك العدد ، والجهل يستلزم كثرته ، عادة أو ادعاء ، وأنه لا يحصره الإدراك من أول وهلة ـ وكثرته تستلزم بعد زمن الإجابة عن زمن السؤال ، والبعد يستلزم الاستبطاء ، فهو كالمجاز المرسل لعلاقة اللزوم من استعمال الدال على الملزوم في اللازم ، وتكون العلاقة في قوله تعالى : (متى نصر الله) ؟ أن الاستفهام عن زمان النصر يستلزم الجهل به ، والجهل به يستلزم استبعاده عادة أو ادعاء ، إذ لو كان قريباً لكان معلوماً بنفسه أو بأمارته الدالة عليه ، واستبعاده يستلزم استبطاءه على جهة المجاز المرسل .

ومنه قول أبي الطيب :

حتام نحن نساري النجم في الظلم   وما سراه على خف ولا قدم

نساري : من السرى وهو مشي الليل ، يقول : إلى متى نسري مع النجم في الليل ، وهو لا يسري على خف كالإبل ، ولا قدم كالناس فلا يتعب مثلنا ، ومثل مطايانا .

فالشاعر لا يسأل عن الزمان ، ولكنه يستبطيء مجيء هذا اليوم الذي يصل فيه إلى هدفه وبغيته .

ويقول البهاء زهير :

أمولاي إني في هواك معذب وحتام أبقى في العذاب وأمكث

فهو يستبطىء مجيء يوم الخلاص مما يعانيه من هذا العذاب الذي يعيش فيه .

وقوله أيضاً :

يا أنعم الناس قل لي إلى متى فيك أشقى

فهو يستبطىء اليوم الذي يذهب فيه شقاؤه .

وكل ذلك يكون في مقام يقصد المتكلم فيه إظهار السآمة مع توقع حصول المطلوب .

الاستبعاد : وقد يراد من الاستفهام معنى « الاستبعاد » وهو عد الشيء بعيداً ، والفرق بينه وبين الاستبطاء ، أن الاستبعاد متعلقه غير متوقع . والاستبطاء متعلقه متوقع غير أنه بطيء في زمن انتظاره .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾[1] .

يتعجب الكفار من فكرة البعث ، ويوضحون سبب تعجبهم بقولهم « هل حين نموت ، ونصير تراباً ، نرجع ثانياً أحياء ؟! ذلك الرجوع الذي يقول به محمد رجوع غير ممكن ، فرد سبحانه تعجبهم واستبعادهم بقوله : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾[2] فلا يستبعد علينا جمعها بعد تفرقها .

فالاستفهام في الآية الكريمة ليس مراداً به المعنى الحقيقي ، ولكنه خرج إلى معنى الاستبعاد ، وسر التعبير بالاستفهام مقام الاستبعاد أن الاستفهام يوحي بحيرة الكفار واستبعادهم لأمر هذا البعث ، ولا يريب أنه أبلغ وأجمل

---

(١) سورة ق ، الآية ٢ و٣ .

(٢) سورة ق ، الآية ٤ .

من أن يعرض قول الكفار في صورة خبرية ، كأن يقول « إنه لمن غير الممكن أن نرجع إلى الحياة مرة أخرى بعد أن نصير تراباً » لما في الاستفهام من إيجاز وإلهاب وجذب للانتباه ، وإرهاف للمشاعر والحث على التفكير والدعوة إلى المشاركة . وتصوير لحال المتكلمين .

واستعمال الاستفهام في مقام « الاستبعاد » من قبيل المجاز المرسل والعلاقة بين الاستفهام والاستبعاد ، أن الاستفهام مسبب عن استبعاد الوقوع ، لأن بعد الشيء يقتضي الجهل به ، والجهل به يقتضي الاستفهام عنه ، فالعلاقة المسببية .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾[1] فالاستفهام في الآية الكريمة ليس على حقيقته ، لاستحالة حقيقة الاستفهام من الله جل وعلا الذي يعلم السر وما يخفى ، والمناسب في هذه الآية أن يكون الاستفهام في مقام الاستبعاد ، بقرينة سياق الكلام ، وبدليل قوله تعالى بعد : ﴿ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾[2] والمعنى : من أين لهم التذكر والاعتبار والرجوع إلى الحق ، والحال أنهم جاءهم رسول يعلمون صدقه وأمانته ، فأعرضوا عنه ، وفي ذلك استثارتهم وتنبيههم إلى ما هم فيه .

ويقول ناجي :

سيان ما أجهل أو أعلم   من غامض الليل ولغز النهار
سيستمر المسرح الأعظم   راوية طالت ، وأين الستار

فالشاعر في دهشة وحيرة مما يجري على مسرح الحياة من أحداث يتعاقب بها الليل والنهار ، وقد عبر بالاستفهام مقام « الاستبعاد » لما فيه من

---

(١) سورة الدخان ، الآية ١٣ .
(٢) سورة الدخان الآية ١٣ - ١٤ .

تصوير وإلهاب ودعوة إلى المشاركة ، وتحسن معنى الاستبعاد بما وراءه من حيرة وتعجب ، ولا شك أن عرض الفكرة في صورة الاستفهام « أين الستار ؟ » أبلغ وأجمل من عرضها في صورة خبرية كأن يقال : « الستار بعيد » مثلاً .

ويقول أبو تمام :

من لي بإنسان إذا أغضبته   وجهلت كان الحلم رد جوابه

فأبو تمام يستبعد أن يوجد إنسان على هذا القدر من الحلم وقوة الاحتمال .

ونقول : « من يعمل لنصرة دينه »؟ « من يتقي الله في اليتيم ؟ » ، « من يساعد المسكين ؟ » إذا كنا نستبعد أن يوجد إنسان يقوم بهذه الواجبات ، ولا شك أن هذا أبلغ وأجمل وأوجز من قولنا : إنه لمن المستبعد أن يوجد في زماننا شخص يعمل لنصرة دينه . وهكذا .

التحسر : وقد يستعمل الاستفهام في معنى « التحسر » ، وذلك في مقام يظهر فيه المتكلم الحزن على شيء مضى .

تأمل قول البارودي في رثاء زوجه :

يا دهر فيم فجعتني بحليلة   كانت خلاصة عدتي وعتادي
إن كنت لم ترحم ضناي لبعدها   أفلا رحمت من الأسى أولادي ؟

فجعه : أوجعه ، والحليلة : الزوجة ، وخلاصة الشيء : خياره ، والعدة والعتاد : ما يعده المرء لاتقاء حوادث الدهر ، والضنى : المرض ، والأسى : الحزن .

يتحسر البارودي على زوجه ، ويعتب على الدهر الذي انتزع منه كل شيء في حياته ، وكان عليه أن يرحم ضناه أو أسى أولادها ، وقد عبر

بالاستفهام مقام « التحسر » للإثارة والإلهاب ، وجذب المشاعر ، ودعوة الناس لمشاركته في حسرته وأساه .

واستعمال الاستفهام في مقام « التحسر » من قبيل المجاز المرسل ، والعلاقة المسببية ، لأن التحسر عن الشيء يقتضي الجهل به ، والجهل به يقتضي الاستفهام عنه .

ويقول حافظ ابراهيم في وصف حريق « ميت غمر » .

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى

يتحسر شاعر النيل ، ويتفجع على هؤلاء المنكوبين الذين ساءت أحوالهم من جراء ما أصابهم من الحريق ، ويستعمل الاستفهام ، ليلهب الشاعر الجماهير ، ليهبوا إلى مساعدة المصابين في مصابهم .

التعجب : وقد يأتي الاستفهام بمعنى التعجب : وذلك في مقام يتعجب فيه المتكلم من مضمون الكلام ، كما في قوله تعالى في قصة سليمان مع الهدهد يحكي سؤاله عنه : ﴿ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴾[1] ، فليس من المعقول أن يستفهم سيدنا سليمان عن نفسه ، ولكن لما كان الهدهد لا يغيب عنه إلا بإذنه ، فلما لم يره تعجب من حال نفسه في عدم إبصاره إياه .

واستعمال الاستفهام في مقام « التعجب » مجاز مرسل من استعمال اسم الملزوم في اللازم . وذلك لأن السؤال عن الحال ، وهو السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب ، والجهل بسبب عدم الرؤية يستلزم التعجب .

وفي التعبير بأسلوب الاستفهام مقام التعجب ـ إثارة وتحريك .

---

(١) سورة النمل ، الآية ٢٠ .

ومن الإستفهام المراد به « التعجب » قول كثير عزة :

فيا عجباً للقلب كيف اعترافه ... وللنفس لما وطنت كيف ذلت

اعترافه : صبره على آلام الحب .

يتعجب الشاعر من صبره على ما يتحمله من آلام ، ومن نفسه كيف استعذبت المذلة في العشق ، والتعبير بأسلوب الاستفهام في مقام التعجب ، لاستثارة العطف والشفقة على هذا المحب الولهان ، وتصوير لحاله ، وتعبير عن نبضات قلبه :

ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَت يَا وَيلَتَا أألِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعلِي شَيخاً إنَّ هٰذَا لَشَيءٌ عَجِيبٌ ﴾[1] لما بشر الملائكة سيدنا إبراهيم وزوجه بإسحاق وبولده يعقوب ، قالت الزوجة : « يا ويلتا كيف ألد وأنا عجوز عشت طول حياتي عقيماً ، وهذا زوجي كما ترونه شيخاً كبيراً لا يولد لمثله من مثلي .

فاستعملت أسلوب الاستفهام مكان « التعجب » لتعبر عن خلجات نفسها وتصور فرحتها ، وتحرك السامعين وتجذب انتباههم ، بأجمل طريق وأوجزه .

التنبيه : على ضلال : وقد يأتي الاستفهام ، ويراد منه التنبيه على ضلال ، وذلك في مقام يقصد فيه المتكلم لفت نظر المخاطب إلى خطئه ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلا أُقسِمُ بِالخُنَّسِ * الجَوارِي الكُنَّسِ * واللَّيلِ إذَا عَسعَسَ * والصُّبحِ إذَا تَنَفَّسَ * إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَريمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العَرشِ مَكِينٍ * مُطاعٍ ثَمَّ أمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجنُونٍ * وَلَقد رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلىٰ الغَيبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُو بِقَولِ شَيطَانٍ رَجِيمٍ * فَأينَ تَذهَبونَ ﴾[2] .

---

(١) سورة هود ، الآية ٧٢ .

(٢) سورة التكوير ، الآية ١٥ - ٢٦ .

الخنس : جمع خانسة من خنس الشيء إذا تأخر ورجع ، والمراد بها النجوم التي تجري مع الشمس في النهار دون أن ترى ، فإذا غابت الشمس وظهرت ، صارت كأنها تأخرت عن الشمس ، ورجعت عن السير معاً ، فهذا الخنوس يترتب عليه ظهورها ليلاً .

الجواري : جمع جارية ، الكنس : جمع كانسة ، وأصلها الظبية التي دخلت في كناسها بكسر الكاف ، وهو بيتها الذي تتخذه من أغصان الشجر ، والمراد النجوم التي تختفي عند طلوع الشمس ، فالأوصاف الثلاثة للنجوم باعتبار حالاتها المختلفة .

وأقسم بها سبحانه لما فيها من النظام البديع الدال على قدرة مدبرها .

عسعس : أي أقبل ظلامه ، تنفس : أصل التنفس إخراج النفس من الجوف فيستريح صاحبه .

والمعنى : أن أول النهار كأنه شخص مهموم من ضغط الليل عليه ، فإذا ذهب الليل تنفس انبساطاً ، وأشرق وجهه ، والكلام كناية عن ظهور ضوئه .

إنه : أي القرآن ، وما فيه من أخبار الآخرة ، لقول رسول : المراد جبريل عليه السلام ، وهو صاحب مكانة وشرف ، ومطاع في جميع الذين في الملأ الأعلى ، وأمين على الوحي وكل ما يسند إليه .

وأقسم لكم أن محمداً الذي صاحبكم مدة طويلة ، وعرفتم خلقه ، ليس مجنوناً كما يفتري بعضكم ، وأنه يعرف جبريل حق المعرفة فهو واثق بما يلقيه إليه ، ولقد رآه في صور مختلفة حتى في صورته الحقيقية ، وأنه صلى الله عليه وسلم ليس حريصاً على ما عنده من الغيب بخلاً به ، فيستحيل عليه أن يكتم عنكم منه شيئاً طمعاً في أخذ أجر منكم كما يفعل الكهان ، وليس الذي جاء به رسولنا قول شيطان ملعون كما يقول بعضكم ، وإذا كان الأمر كما ذكر ، فأي طريق تسلكونه بعد ما أحاط بكم البرهان من جميع جهاتكم ، فأين

تذهبون في القول إنه إفك ، وأنه أساطير الأولين ؟ لا شك أنكم ذاهبون إلى ضلال .

وسر التعبير بأسلوب الاستفهام ، تصوير لحال الكفار وإثارة مشاعرهم . ولفت انتباههم ، ودعوتهم إلى النظر إلى ما هم فيه من ضلال لعلهم يقلعون عنه .

فاستعمال صيغة الاستفهام في التنبيه المذكور من استعمال اسم الملزوم في اللازم ، وكثيراً ما يؤكد استعمال الاستفهام في التنبيه على ضلال بالتصريح بالضلال ، فيقال لمن ضل عن طريق الصواب : « يا هذا إلى أين تذهب ؟ قد ضللت الطريق فارجع .

التهويل : وقد يراد من الاستفهام « التهويل » ، إذا كان المتكلم يقصد المبالغة والتفخيم في شأن من الشئون كما في قوله تعالى : **﴿ الحَاقَّةُ * مَا الحَاقَّةُ * وَمَا أَدرَاكَ مَا الحَاقَّةُ ﴾**[1] والحاقة : هي القيامة ، لأن الأمر يحق في نفسها من غير شك ، فالله جل وعلا لا يستفهم عنها ، لأنه الخالق لها ، وإنما المراد « التهويل » من شأنها ، وتصوير أمرها ، بأسلوب الاستفهام الذي يحرك النفس . ويلهب المشاعر :

ومثله قوله تعالى : **﴿ القَارِعَةُ * مَا القَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ ﴾**[2] . وكل ما كان على هذه الشاكلة مما هو علم ليوم القيامة ، لأنها تقرع القلوب بالفزع ، وتقرع أعداء الله بالعذاب .

وتأمل قوله تعالى : **﴿ وَلَقَد نَجَّيْنَا بَني إِسرَائِيلَ مِنَ العَذابِ المُهينِ * مِن فِرعَونَ إنَّه كَانَ عَالياً مِنَ المُسرِفِينَ ﴾**[3] قرأ ابن عباس رضي الله عنهما (مَنْ

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات : ١ و٢ و٣ .

(٢) سورة القارعة ، الآيات ١ و٢ و٣ .

(٣) سورة الدخان ، الآية ٣٠ ـ ٣١ .

فرعون ؟) بلفظ الاستفهام .

لما وصف الله تعالى ـ العذاب بأنه مهين لشدته وفظاعة شأنه ، أراد أنْ يصور كنهه ، فقال : (مَنْ فرعون) أي : أتعرفون مَنْ هو في فرط عتوه وتجبره ؟ ما ظنكم بعذاب يكون فرعون هو المعذَّب به ؟ ثم عرف حاله[1] بقوله : (إنه كان عالياً من المسرفين) .

الوعيد : وقد يأتي الاستفهام « للوعيد » كقولك لمن يسيء الأدب معك : « ألم أؤدب فلاناً) ، وإنما يكون وعيداً إذا كان المخاطب المسيء للأدب يعلم ذلك التأديب الذي حصل منك إلى فلان هذا ، وأنت تعلم أنه يعلم ذلك ، فلا يحمل كلامك حينئذ على الاستفهام الحقيقي الذي يقتضي الجهل ، بل يحمله على الوعيد بقرينة كراهيتك للإساءة المقتضية للزجر بالوعيد .

والعلاقة بين الاستفهام والوعيد اللزوم ، فإن الاستفهام ينبه المخاطب على جزاء إساءة الأدب ، وهذا يستلزم وعيده لاتصافه بإساءة الأدب .. فهو مجاز مرسل من استعمال اسم الملزوم في اللازم .

ولك أن تجعل الكلام من قبيل الكناية بأن تجعل اللفظ مستعملاً في الاستفهام لينتقل منه إلى الوعيد ، والغرض تصوير المتكلم وقد كتم غيظه وترجم عنه بلفت انتباه المخاطب إلى ما يقع حوله من تأديب غيره ، فيفهم الوعيد والتخويف ، فلا يجرأ على مخالفته .

تأمل قوله تعالى : ﴿ وَيلٌ يَومَئِذٍ للمُكَذِّبِينَ * أَلَم نُهلِكِ الأَوَّلِينَ * ثُم نُتبِعُهُم الآخِرِينَ ﴾[2] والمعنى : ويل للمكذبين في ذلك اليوم الهائل الذي هو

انظر الإيضاح مع البغية ج ٢ ص ٥٠ ـ ٥١ .

(٢) سورة المرسلات ، الآية ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

يوم الفصل ، فقد علمتم هلاك المكذبين لرسلهم من لدن آدم إلى محمدﷺ ـ بالعذاب في الدنيا ـ ، فلكم في ذلك عبرة وعظة يا كفار مكة أنتم ومن وافقكم في تكذيب محمدﷺ . فإذا لم تعتبروا وتدخلوا في دين الله فسيكون مصيركم مثل مصير هذه الأمم قبلكم ، فأنت تحس « الوعيد » للكفار في هذه الآيات ، وترى صورتهم الحائرة الضالة ، وهم يعلمون ما حدث للمكذبين من قبلهم .

وعلى ذلك فلا مكان للاستفهام بل المقام « للوعيد » وجاء بصورة الاستفهام ليلفت الكفار إلى النظر والتفكير في حالهم ، لعلهم يرشدون ، ويقلعون عن تكذيب رسولهم الذي هو قائد فلاحهم ، ومفتاح نهضتهم .

الأمر : وقد يكون الاستفهام مراداً منه « الأمر » ، نحو قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّم يَستجيبُوا لَكُم فَاعلَموا أَنَّمـا أُنزِلَ بِعلمِ اللهِ وأَنْ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ فَهَـل أَنتُم مُسلِمونَ ﴾[1] والمعنى : فإن لم يستجب لكم من تطلبون منهم المساعدة لكي يتسنى لكم معارضة القرآن ـ لعجزهم ، فيجب أن تعلموا أن القرآن الكريم ما أنزل إلا بعلم الله ، فلا يقدر عليه سواه ، وإذا ثبت هذا فاشهدوا أنه لا إله إلا هو سبحانه ، وبعد انقطاع كل شبهة حول إعجاز القرآن فيجب أن تدخلوا في الإسلام ، أي : ادخلوا في الإسلام .

ومثله قوله تعالى : ﴿ فَهَل مِن مُدَّكِرٍ ﴾[2] ، والمعني : إذكروا فهل هناك عاقل يتذكر عاقبة الكفر بالله فيبتعد عنه ؟ والمراد ابتعدوا عن الكفر إذا كنتم من العقلاء .

واستعمال صيغة الاستفهام في مقام « الأمر » من باب المجاز المرسل لعلاقة الإطلاق والتقييد ، لأن الاستفهام طلب الإقرار بالجواب مع سبق جهل المستفهم ، فاستعمل في مطلق الطلب ، ثم استعمل في الطلب على سبيل

---

(١) سورة هود ، الآية ١٤ .

(٢) سورة القمر ، الآية ١٥ .

الاستعلاء ، وهو « الأمر » .

التقرير : وقد يكون المراد من الاستفهام « التقرير » . وذلك إذا أراد المتكلم حمل المخاطب على الاعتراف بمضمون الكلام ، كما في قوله تعالى : على لسان فرعون : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾[1] .

ففرعون يعلم يقيناً أن موسى عليه السلام قد عاش في مصر وليداً ، إذن فليس الغرض من الاستفهام معناه الحقيقي ، لأن الاستفهام كما علمنا يقتضي الجهل بالمستفهم عنه ، وفرعون كان لا يجهله .

وإنما المراد حمل موسى عليه السلام ـ على الإقرار بذلك ، أو تذكيره به على الأقل ، فتذكر آلاء فرعون عليه في صغره ، وتربيته له ، أملاً في أن يراجع سيدنا موسى عليه السلام ـ نفسه ، ويقلع عن العمل على تقويض عبادة المصريين له ، وأنَّى لموسى أن يرجع وهو مأمور من الله الواحد الأحد ؟!

ومجيء الكلام على صورة الاستفهام تعبير حي عن نفسية فرعون ومحاولته الدفاع عن عرشه بكل وسيلة سواء أكانت حرباً نفسية أم حرباً مسلحة ؟ . وفي هذا أيضاً محاولة لجذب مشاعر المصريين وإثارة انتباههم .

ومنه قول جرير يمدح بني أمية :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

فجرير لم يستفهم على سبيل الحقيقة لأن فضل بني أمية وكرمهم لا يجهله أحد حتى يستفهم عنهما .

ولو كان استفهاماً حقيقياً لما أعطاه الخليفة مائة من الإبل برعاتها[2] .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٨ .

(٢) مجاز القرآن ص ١٨٣ ـ ١٨٤ ، ج ١ تحقيق د. فؤاد سركيس الطبعة الأولى نشر الخانجي .

وإنما المراد بالاستفهام مدح بني أمية بشيء معلوم لدى الناس مع جذب المشاعر نحو بني أمية والالتفاف حولهم .

واستعمال صيغة الاستفهام في « التقرير » مجاز مرسل علاقته الإطلاق والتقييد ، وذلك لأن الاستفهام طلب الإقرار من غير سبق جهل بالمستفهم عنه ، ويجوز أن يكون الاستفهام في هذا البيت للإنكار كما سيأتي .

ويشترط في « الهمزة » أن يليها المقرر به كقولنا : « أفعلت » إذا أردت أن تقرره بأن الفعل كان منه ، وكقولك : « أأنت فعلت » إذا أردت أن تقرره بأنه الفاعل .

وذهب الشيخ عبد القاهر والسكاكي وغيرهما إلى أن قوله تعالى : ﴿ أَأَنتَ فَعلتَ هَـٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبراهِيمَ ﴾[1] من « التقرير » أي : الاستفهام المراد به التقرير ، قال الشيخ : « لم يقولوا ذلك له عليه السلام ، وهم يريدون أن يقرَّ لهم بأن كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقر بأنه منه كان ، وكيف وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم : (أأنت فعلت هذا) وقال عليه السلام : (بل فعله كبيرهم هذا) ، ولو كان التقرير بالفعل في قولهم : (أأنت فعلت) لكان الجواب : « فعلت أو لم أفعل » هذا وسياق الآيات يدل على صحة كلام الشيخ[2] ، وتقول : « أزيداً ضربت »؟ إذا أردت أن تقرره بأن مضروبه زيد .

الإنكار : وقد يأتي الاستفهام « للإنكار » وهو إما أن يكون للتوبيخ أو للتكذيب .

والتوبيخ : هو التعبير والتقريع على أمر قد وقع في الماضي ، أو على

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٨٦ طبع رشيد رضا الطبعة السادسة .

(٢) قوله قبل كسرها . (لأكيدن أصنامكم)، وقولهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) فيهما دلالة على علمهم بأنه هو الذي كسرها ، ومن هنا لا يصلح حمل الاستفهام في الآية على حقيقته .

أمر يخاف المرء أن يقع في المستقبل بأن كان المخاطب بصدد أن يفعله .

فإذا كان « التوبيخ » في الماضي كان المعنى : ما كان ينبغي أن يكون فالفعل واقع ، والمنفى هو الانبغاء ، وقرينته أن يكون المقام للتأنيب كما في قوله تعالى : ﴿ هَلْ عَلِمتُم مَا فَعلْتُم بِيوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُم جَاهِلُونَ ﴾[1] .

فيوسف عليه السلام لا ينتظر جواباً من إخوته إذ أنه يعلم ذلك ، وإنما يريد بالاستفهام أن يحرك مشاعرهم ، ويثير عواطفهم وأفكارهم إلى تذكر هذه الحادثة الأليمة التي تصور مؤامرة الأخوة على أخيهم ، فكان لا ينبغي منهم هذا الفعل ولا يليق بهم . .

ومنه قول امرىء القيس :

أغـرَّك مني أن حبـك قـاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

فهو يريد أن يقول : ما كان ينبغي أن يغرك حبي لك وتعتقدين أنني أصبحت متيماً في هواك أفعل ما تأمرين به . ولعلك تحس التصوير الفني الجميل الذي صوره الاستفهام لنفسية امرىء القيس وقصة حبه مع ما في التعبير من إيجاز بديع .

وتقول للرجل : « أعصيت ربك » ؟ و« أرسبت في الامتحان » ؟ ، بمعنى : ما كان ينبغي أن يكون هذا الذي وقع .

وإذا كان « التوبيخ » في المستقبل كان معناه : أنه لا ينبغي أن يكون ، أي : لا ينبغي أن يحدث ما دخلت عليه أداة الاستفهام ، وذلك نحو قولك لمن هم بالعصيان ولم يقع منه : « أتعصي ربك » ؟ أي أن هذا العصيان الذي أنت بصدد عمله ، لا ينبغي أن يصدر منك في المستقبل ، وهذا التوبيخ

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٩.

لا يقتضي وقوع الموبخ عليه بالفعل ، وإنما يقتضي كون المخاطب بصدد الفعل .

ومثله قولنا للرجل يضيع الحق : « أتنسى قديم إحسان فلان ؟ » ، وقولنا للرجل يركب الخطر : « أتخرج في هذا الوقت ؟ » أتذهب في غير الطريق ؟ .

والغرض بذلك تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل أو يرتدع عن فعل ما هم به .

ومنه قول الشاعر :

إلام الخلف بينكم إلاما ... وهذي الضجة الكبرى علاما
وفيم يكيد بعضكم لبعض ... وتبدون العداوة والخصاما
وفرّقتم فلا مصر استقرت ... على حال ، ولا السودان داما

فالشاعر لا يستفهم ولكنه يلوم مخاطبيه ، ويوبخهم على ما حدث بينهم من فرقة وخصام وما سيقع بينهم ، وكأنه يقول لهم : ما كان ينبغي أن يحدث هذا الخلاف والفرقة والتنازع ، ولا ينبغي أن يحدث مثل هذا التفرق وغيره في المستقبل .

وسر التعبير بالاستفهام مكان « التوبيخ » لفتهم وإثارة انتباههم وطلب الجواب منهم لعلهم يفكرون بجدية في حالهم ، ويصلون بأنفسهم إلى ما يصلح مستقبلهم .

التكذيب : ويسمى الإنكار التكذيبي أو الإنكار الإبطالي .

فإذا كان التكذيب في الماضي كان الاستفهام بمعنى لم يكن ، فالمنكر هو : ما دخلت عليه الهمزة ، ويكون إذا كان المخاطب ادَّعى وقوع شيء فيما مضى فجاء المتكلم بالاستفهام الإنكاري تكذيباً له فيما ادعاه .

وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصفاكُم رَبُّكُم بِالبَنِينَ وَاتَّخذَ مِن المَلائِكَةِ إناثاً إنَّكُم لَتقُولُونَ قَولاً عَظيماً ﴾[1] فهذا تكذيب للمشركين ورد لما يفترونه ، مما يؤدي إلى الجهل العظيم ، فإنهم يزعمون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ، وهذا يستلزم أن الله اصطفاهم واختصهم بالبنين الذين هم الصفوة ، واختار لنفسه النوع الأدنى ، وأنه تعالى قد فضل البنات على البنين ، فكذبهم في كلا الأمرين ، أي لم يكن هذا ولا ذاك .

وإذا كان التكذيب في المستقبل بمعنى لا يكون هذا .

ومنه قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فأمرؤ القيس يكذب إنساناً تهدده بالقتل ، وينكر أن يحصل منه ذلك .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ قَالَ يَا قَومِ أَرَأيتُم إن كُنتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي وَآتَانِي رَحمَةً مِن عِندِهِ فَعُمِّيَت عَلَيكُم أَنُلزِمُكُموهَا وَأَنتُم لَهَا كَارِهُونَ ﴾[2] ؟ أي : أنكرهكم على الاهتداء بها ، والمراد بالرحمة : النبوة والمعنى ، لا يكون ذلك .

وتقول : « أيرضى عنك فلان وأنت مقيم على ما يكره ؟ أي لا يكون ذلك .

ومنه قول الشاعر :

أأترك أن قلت دراهم خالد زيارته ؟ إني إذاً للئيم

أي لا يكون ذلك مني .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٤٠ .

(٢) سورة هود ، الآية ٢٨ .

ولما كان الغرض في المثل المتقدمة إنكار الفعل ، قدم الفعل على الاسم ، فإذا أريد إنكار الاسم ، أو الفاعل أو المفعول أو غيرهما ، وجب تقديمه أيضاً .

فمثال إنكار الفاعل قولك لمن ينتحل شعراً : « أأنت قلت هذا الشعر ؟ » ، كذبت . فأنت لا تنكر الفعل ـ وهو قول الشعر ـ ولكنك تنكر أن يكون هو القائل له ، وترى أن القائل غيره ، وتقول : « أأنت تمنعني حقي ؟ » تريد أن غيرك هو الذي يستطيع أما أنت فلا .

هذا . . ولإنكار الفعل بطريق الاستفهام إنكاراً تكذيبياً صورة أخرى وهي : ألا يكون الفعل فيها والياً الهمزة ، وضابطها أن ينحصر فاعل الفعل أو المفعول أو غيرهما من المتعلقات عقب الهمزة ، ويعطف عليه غيره « بأم » إن وجد ، فيتوجه الإنكار إلى الإسم المقدم بحسب الظاهر ، فيلزم من إنكاره إنكار الفعل ، لأن الفعل إذا نفى « فاعله » الذي لا فاعل غيره ، أو « مفعوله » الذي لا مفعول له غيره ، أو « ظرفه » الذي لا ظرف له غيره ، لزم انتفاؤه حتماً .

وهذه الصورة أبلغ من إيلاء الفعل الهمزة إذا أريد إنكاره ـ لأن نفي الفعل فيها بطريق الكناية واللزوم ، فهي بمثابة دعوى مع دليلها ، وإليك أمثلة توضح هذه الصورة .

إذا قال لك قائل : « بعثني فلان إليك » ، وأردت تكذيبه ، لأنك تعلم أن فلاناً هذا لم يبعثه ، فلك أن تقول : « أبعثك فلان إليَّ ؟ » فتأتى بالفعل عقب الهمزة ، تريد أن تقول له : « لِمَ يبعثك» وهذه هي الصورة الأولى .

ولك أن تقول : « أفلان بعثك إليّ ؟ » تنكر بحسب الظاهر العبارة أن يكون فلان هو الباعث موهماً أنه غلط ، وأن غيره هو الباعث ، وبما أنه لا باعث غيره يلزم إنكار البعث من أصله .

وإذا زعم زاعم أنه سابق أحد ابنيك في أمرٍ فسبقه ، وأردت أن تنكر ذلك ، فلك أن تقول له مكذباً : « أسبقت أحدهما » ، أي : لم يحصل ذلك ، لأنهما لا يسبقان في رأيك ! وهذه هي الصورة الأولى .

ولك أن تقول : « أعلياً سبقت أم محمداً » تنكر بحسب الظاهر أن يكون أحدهما مسبوقاً له ، ولعل المسبوق غيرهما ، وبما أن السبق لم يتعلق بغيرهما ، يلزم انتفاؤه ، وإنكاره من أصله .

وإذا قال لك قائل : زرتك أمس فلم أجدك ، وأردت تكذيبه ، فلك أن تقول : « أزرتني أمس ؟ » بايلاء الفعل الهمزة ، وهذه هي الصورة الأولى .

ولك أن تقول : « أليلا زرتني أم نهاراً ! » تنكر أن يكون الليل والنهار وقتاً لزيارته فيلزم نفي هذه الزيارة ، لأنها ـ إن وقعت ـ فلا بد أن تكون في ليل أو نهار ، وهذه هي الصورة الثانية .

وكذلك إذا قلت : « أراكباً زرتني أم ماشياً ! » تنكر الحالين بحسب الظاهر ، فيلزم انتفاء الزيارة ، لأنها ـ إن حصلت ـ لا بد أن تكون على إحداهما .

ومثل ذلك إذا قلت له : أفي البيت زرتني ؟ ، وكان معلوماً أنك لم تبرح منزلك وقت الزيارة ، تنكر بحسب الظاهر أن يكون البيت موضعاً للزيارة وبما أنه لا مكان غيره فيلزم انتفاء الزيارة من أصلها .

وإذا رأيت رجلاً في مكان لا يدخله أحد إلا بإذنك ، فزعم أنك أذنت له ، فلك أن تقول له مكذباً : « أأذنت أنا لك ! » بايلاء الفعل الهمزة ، أي : لم آذن .

ولك أن تقول : « أأنا أذنت لك ! » تنفي بحسب الظاهر أن تكون أنت الآذن ، يهم أن غيرك هو الآذن ، وبما أنه لا آذن غيرك يلزم انتفاء الإذن من أصله .

تأمل قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِن رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُم ﴾[1] المقصود نفي الإذن من أصله، فإنه لا آذن في التحليل والتحريم إلا الله ، فإذا نفى أن يكون الله آذناً ، فقد انتفى الإذن .

وأخرج الكلام على الطريقة الثانية - أي : طريقة نفي الفاعل لا الفعل - ليكون الكلام أبلغ في نفي الفعل .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ * أَمِ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ ﴾[2] المقصود نفي الفعل - وهو التحريم لشيء ما ذكر - ولكن لم يقدم الفعل عقب الهمزة ، بل أخرج الكلام في صورة نفي المفعول دون الفعل ، ليكون أبلغ في نفي الفعل ، فإن نفيه حينئذ يكون بطريق الكناية واللزوم ، وذكر الدعوى مع دليلها ، كأنه قيل : لو كان هناك تحريم لكان متعلقاً بواحد من هذه الأمور ، لكن واحداً منها ليس بمحرم ، فليس هناك تحريم ، وذلك أنهم كانوا تارة يحرمون ذكور الأنعام ، وتارة إناثها ، وتارة ما في بطون الإناث ذكوراً كانت أم إناثاً مختلفة ، وينسبون ذلك إلى الله ، فرد الله عليهم إفكهم بإنكار محل التحريم[3] .

الفرق بين الإستفهام الإنكاري وبين النفي الصريح :

فسرنا الإستفهام الإنكاري بأنه تارة يكون تكذيبياً بمعنى : ما كان ، أو لا يكون ، وتارة يكون توبيخياً بمعنى : ما كان ينبغي أن يكون أو لا ينبغي أن يكون ، فاتجه السؤال الآتي : هل ترى بناء على هذا أن المعنى متحد في

---

(1) سورة يونس ، الآية ٥٩ .

(2) سورة الأنعام الآية ١٤٣ .

(3) أنظر دلائل الإعجاز ٨٦ - ٨٩ ، وأنظر أيضاً دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر ص ٢٥٢ - ٢٥٧ للشيخ العدل الطبعة الثانية ١٣٧٥ - ١٩٥٥ م المطبعة المنيرية .

أسلوب الإنكار بالإستفهام ، وأسلوب الإنكار بالنفي الصريح ، وأن معنى قولنا : « أأنت قلت هذا الشعر ؟ »، وقولنا : « أنت لم تقل هذا الشعر » - واحد ؟ .

ومعنى قولنا : « أتنسى إحسان فلان ؟ وقولنا : « لا ينبغي أن تنسى إحسان فلان ، واحد ؟ .

والجواب : كلَّا ، لا اتحاد في المعنى بين الأسلوبين من كل وجه ، وغرضنا من التفسير المذكور بيان مآل المعنى فقط ، لكن حقيقة الأمر أن للانكار بالاستفهام مزية بها كان أبلغ أثراً ، وأوقع في النفس من النفي الصريح .

بيان ذلك : أنك إذا قلت : « أأنت قلت هذا الشعر ؟ أتنسى إحسان فلان ؟ فإنك لم تفده غرضك ، وهو تكذيبه أو توبيخه بادىء ذي بدء ، بل أوقعت في روعه أنك تطلب منه جواباً ، فيتنبه ، ويرجع إلى نفسه ليجيب ، فيعيا بالجواب ويخجل ، ويعلم أنك قصدت تكذيبه ، لأنه ادَّعى القدرة على شيء لا يقدر عليه ، أو تخطئته وتوبيخه ، لأنه همَّ بأمر لا يستصوب فعله ، وقد تتمادى به الغفلة ، ويظن أنك مستفهم حقاً ، فيقول : نعم ، أنا قلت هذا الشعر ، فتقول حينئذ : فانظم على غراره ، فيظهر عجزه ، ويفتضح أمره ، ويصبح موضعاً للسخرية والاستهزاء .

ومزية أخرى للاستفهام الإنكاري ، وهي : أن أسلوبه يشعر بثقة المتكلم واطمئنانه لا يخشى تكذيباً ، ولا مخالفة ، لإيهامه أن السامع أعلم منه بحقيقة الأمر ، لذلك يطلب منه الجواب بحسب الظاهر .

أما إذا أتيت بالنفي الصريح فقلت : « أنت لم تقل هذا الشعر » ، لن ينتحل شعراً ، ولا ينبغي أن تنسى إحسان فلان ، فقد أفدت غرضك من أول وهلة ، ولم توح للمخاطب أن يراجع نفسه ، ليخجل ويرتدع ، ويعلم أنه

مخطىء ولم يشعر الأسلوب بثقتك واطمئنانك إلى عدم التكذيب .

وذكر الشيخ عبد القاهر الجرجاني : « أن مما يؤيد الفرق بين الأسلوبين : أن النفي الصريح لا يقال في المستحيل ، وفيما لا يقول به عاقل ، فلا تقول ـ مثلاً ـ لمن يحاول أمراً بعيداً: «أنت لا تصعد إلى السماء ، أنت لا تنقل الجبال » ولكنك تقول : « أتصعد إلى السماء؟ » أتنقل الجبال ؟ أتردّ ما مضى ؟ » فلو كان معنى الأسلوبين واحداً من كل وجه . لامتنع الإنكار بالإستفهام كما امتنع بالنفي .

ولا يخفى أن إنكار المستحيل بالإستفهام إنما يجيء على سبيل التمثيل ، وتنزيل المخاطب الذي يطلب الأمر البعيد ، منزلة من يدعى أنه يستطيع أن يصعد إلى السماء أو ينقل الجبال ، أو يرد ما مضى ، ووجه الشبه : أن كلاً يطلب ما لا يستطيع فهو من قبيل الإستعارة التمثيلية .

والذي يظهر أنه لا مانع أن يقال أيضاً : « أنت لا تصعد إلى السماء » ، على سبيل التمثيل ، والدليل على ذلك : المثل المشهور ، وهو : « إنك لا تجني من الشوك العنب » وجني العنب من الشوك مستحيل ، والكلام تمثيل .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ [1] فقد نزّلت الآية النبي عليه السلام في محاولته هداية الكفار بمنزلة من يحاول إسماع الموتى أو الصم . والمعنى : إن حال الكفار كحال الموتى في إنتفاء الجدوى بالسماع ، أو كحال الصم الذين لا يسمعون ، ولا يفهمون ، ولا يهتدون ، فلا اعتداد بهم، شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل ، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ ، ولا يجيبون الدعاء إلى الله ، ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه وتأكيده فقال : (إذا ولوا مدبرين) أي : إذا

---

(١) سورة النمل ، الآية ٨٠ .

عرضوا عن الحق إعراضاً تاماً ، فإن الأصم لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلا فكيف إذا كان معرضاً عنه مولياً مدبراً .

والآية أدخلت النفي على المستحيل وذلك على سبيل التمثيل بالاستعارة .

وقد قال البحتري :

فعليك الرضا بما قسمته ... لك هذي المطالب المجهولة

لن تنال المزوي عنك بتدبيـ ... ـر ، ولن تصعد السماء بحيلة

فقد أدخل النفي الصريح على المحال تشبيهاً لمن يريد أن ينال ما لم يقدر له ممن يريد أن يصعد إلى السماء .

ومن أمثلة إنكار المحال على سبيل التمثيل : قوله تعالى : ﴿ **أَفَأَنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ أَو تَهدِي العُميَ** ﴾[1] ؟ ليس الكلام على ظاهره ، لأن سماع الصم مما لا يدعيه أحد ، بل هو على سبيل التمثيل ، وتشبيه النبي ﷺ ، في محاولته هداية الكفار الذين أصروا على كفرهم - بمن يحاول إسماع الصم ، وهداية العمي ، ووجه الشبه : أن كلًّا يطلب أمراً لا يحصل[2] .

النفي : وقد يأتي الاستفهام بمعنى « النفي » ، وذلك إذا صح حلول أداة النفي محل أداة الاستفهام نحو قوله تعالى : ﴿ **هَل جَزَاءُ الإحسَانِ إلَّا الإحسانُ** ﴾، والمعنى : ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب والجزاء ، وتلك حقيقة مقررة لا يعارض فيها عاقل ، فكان من الممكن إفادتها بطريق « النفي » أي : « ما جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

ولكن القرآن عرضها في أسلوب الاستفهام ليحرك الفكر ويحث على

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٤٠ .

(٢) أنظر دلائل الإعجاز ص ٩٠ وانظر أيضاً دراسات تفصيلية ص ٢٥٥ - ٢٥٧ .

النظر ليصل المرء إلى الإيمان بطريق البحث والتفكير ، وهذه من وسائل القرآن في الدعوة إلى العلم والتعليم .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَموالُنَا وَأَهلُونَا * فاسْتَغْفِرْ لَنَا * يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيسَ فِي قُلوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَملِكُ لَكُم مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُم ضَراً أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفعاً بَلْ كَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾[1] ، يقول القرآن الكريم للنبي ﷺ : إن الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج معك ، سيقولون لك شغلتنا أموالنا وأهلنا فلم نستطع الخروج خوفاً عليها من الضياع ، لأنه ليس لنا من يحافظ عليها بعدنا ، ويلتمسون منك أن تستغفر لهم الله ، ليغفر لهم ـ والواقع قولهم هذا يخالف ما في قلوبهم فهم حاقدون على الدين ، وترد الآية عليهم فتقول : ﴿ فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ﴾ ! ، والمعنى أن أحداً غير الله تعالى لا يملك من أمرهم شيئاً ففي الاستفهام « فمن » معنى النفي ، ومع النفي تهديد بالعذاب . ودفع للمنافقين على التفكير حتى يصلوا إلى الحقيقة المؤلمة بأنفسهم .

ويقول البحتري :

هل الدهر إلا غمرة وانجلاؤها وشيكاً ، وإلا ضيقة وانفراجها

الغمرة : الشدة ، وانجلاؤها : زوالها ، وشيكاً : سريعاً .

فالبحتري لا يسأل عن شيء ، وإنما يريد أن يقول : ما الدهر إلا شدة سرعان ما تزول ، وما هو إلا ضيق يعقبه فرج ، فالاستفهام في البيت وهو « هل » معناه « النفي » .

وسر التعبير في وضع « الاستفهام » مكان « النفي » أن البحتري لا يريد

---

(١) سورة الفتح الآية ١١ .

أن يفيد مراده من أول وهلة فيقول : « ما الدهر إلا شدة سرعان ما تزول » ولكنه يريد أن ينبه السامع في صورة سؤال ويدعوه بأن يبحث عن الجواب حتى يصل بنفسه ، وتوحي صورة الاستفهام بثقة البحتري واطمئنانه وأنه مهما بحث السامع ونقب فلن يكون أمامه من سبيل إلا التسليم بهذه الحقيقة التي استلهمها الشاعر من الحياة .

التشويق : وقد يأتي الاستفهام بمعنى « التشويق » وذلك في مقام يقصد فيه المتكلم ترغيب المخاطب واستمالته كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1] يقول المولى تبارك وتعالى للمؤمنين : إن الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله خير تجارة ، وقد عرض هذه الحقيقة في صورة الاستفهام ، وذلك ليثير انتباه المؤمنين ، ويدعوهم إلى التفكير ، وانتظار الجواب والتشوق إليه ، وفي ذلك تقدير لهم ، وتثبيت للفكرة في نفوسهم .

التعظيم : وقد يأتي الاستفهام « للتعظيم » ، وذلك في مقام الإشادة والمدح يقول أبو الطيب في الرثاء :

مَن للمحافل والجحافل والسرى　　　فقدت بفقدك نيراً لا يطلع

والمحافل : المجامع . والجحافل : الجيوش . والسرى : مشى الليل ، ويريد به زحف الأعداء .

فأبو الطيب لا يستفهم لأنه يعلم علم اليقين أن المرثي قد اتصف بصفات السيادة والشجاعة والكرم أيام حياته ، وإنما يريد بالاستفهام معنى آخر هو التعظيم والإجلال مع ما في ذلك من إظهار التحسر والتفجع بطريقة الاستفهام

---

(١) سورة الصف ، الآية ١٠ ـ ١١ .

التي تعمل على تحريك النفس ، وإثارة المشاعر :

وتأمل قول الشاعر :

أضاعوني وأيُّ فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فالشاعر لا يستفهم عن نفسه ، لأنه أعلم الناس بها ، وإنما يريد بالاستفهام « التعظيم » بجذب الانتباه إلى شجاعته وفروسيته .

التحقير : وقد يأتي الاستفهام في مقام « التحقير » تقول . من هذا ؟ وما هذا ؟ ومن أنت يا هذا ؟ وهو أسلوب شائع على ألسنة بعض الناس حينما يريدون أن يحقروا إنساناً أو شيئاً لا يعتدون به ، ولا شك أنه أبلغ وأفخم وأجمل وآنق من قولهم ـ مثلاً ـ هذا حقير ، أو « هو حقير » .

وقال أبو الطيب يهجو كافوراً :

من أية الطرق يأتي نحوك الكرم أين المحاجم يا كافور والجلم

المحاجم : جمع محجمة ، وهي آلة الحجام ، والحجام . مأخوذ من الحجم ، والمعنى ، يقال . حجم الصبي ثدي أمه ، إذا مصه ، والجلم الذي يجزيه .

والمعنى يقول : فأنت أهل أن تكون حجاماً مزيناً ، فأين آلة الحجامة حتى تشغل بها .

وأي طريق لك إلى الكرم ! وأنت لست منه في شيء[1] .

التهكم : وقد يأتي الاستفهام في مقام « التهكم » وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعيبُ أَصَلاتُك تَأْمُرُكَ أَن نَترُكَ ما يَعبُدُ آبَاؤنَا أَو أَن نَفعَلَ في أَموالِنَا مَا نَشاءُ ﴾[2] .

---

(١) ديوان المتنبي شرح العكبري ص ١٥٠ ح ٤ المجلد الثاني ، نشر دار المعرفة ـ بيروت .

(٢) سورة هود ، الآية ٨٧ .

يقول الكفار من قوم شعيب ـ مستهزئين به لكثرة صلاته ، يا شعيب هل صلاتك التي تداوم عليها هي التي تأمرك أن تحملنا على ترك ما كان يعبده آباؤ نا من هذه الأصنام ، وأن نمتنع عن التصرف بما ينمي أموالنا كما نشاء مما نراه في مصلحتنا ، وتحس في قول قوم شعيب التهكم والاستهزاء والسخرية ، وعبروا عن هذا بطريق الاستفهام ليدلوا على ثباتهم وكفرهم ووقوفهم الصامد على كفرهم وغبائهم .

والفرق بين التحقير والتهكم . أن التهكم قد يكون بمن هو عظيم في نفسه بخلاف التحقير (١) .

التوبيخ مع التعجب : وقد يأتي الاستفهام مقام « التوبيخ مع التعجب » ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ كَيفَ تَكفُرونَ بِاللهِ وَكُنتُم أمواتاً فَأحياكُم ثُم يُميتُكُم ثُم يُحيِيكُم ثُمَ إلَيهِ تُرجَعونَ ﴾(٢) .

أي : كيف تكفرون وقصتكم هذه ، وحالكم أنكم كنتم أمواتاً نطفاً في أصلاب آبائكم فجعلكم أحياء ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم بعد الموت ، ثم يحاسبكم .

أما التوبيخ فلأن الكفر مع هذه الحال ينبيء عن الانهماك في الغفلة أو الجهل ، وأما التعجيب ، فلأن قصة خلق السموات والأرض والإنسان تدل على وجود الله جل وعلا والإيمان به ، وهذا يؤدي إلى التعجب من الكافر الذي يرى الآيات الواضحات أمامه ثم يتعامى عنها .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ أتَأمُرونَ النَّاسَ بِالبرِّ وَتَنْسَوْنَ أنفُسَكُم وَأنتم

---

(١) أنظر الإيضاح مع البغية ح ٢ ص ٥٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨ .

تتلونَ الكِتابَ أفلا تعقِلونَ ﴾[1]، والمعنى : « أتأمرون » الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم ، والبر سعة الخير والمعروف ، ومنه البر لسعته ، ويتناول كل خير ، ومنه قولهم : « صدقت وبررت » وكان الأحبار يأمرون من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمدﷺ ، ولا يتبعونه ، وقيل : كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون ، وإذا أتوا بصدقات ليفرقوها خانوا فيها . (وتنسون أنفسكم) وتتركونها من البر كالمنسيات (وأنتم تتلون الكتاب) تبكيت مثل قوله : (وأنتم تعلمون) يعني تتلون التوراة ، وفيها نعت محمدﷺ أو فيها الوعيد على الخيانة ، وترك البر ، ومخالفة القول العمل (أفلا تعقلون) توبيخ عظيم بمعنى أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه ، « كأنكم في ذلك مسلوبو العقول ، لأن العقول تأباه وتدفعه »[2] .

وقد يأتي الاستفهام « للتمني » : وذلك إذا صح حلول « ليت » محل أداة الاستفهام ، وذلك يكون في مقام طلب المستحيل ، كما في قوله تعالى على لسان أهل النار : ﴿ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعاءَ فَيَشفَعُوا لَنَا ﴾[3] فهم يعلمون يقيناً أنه لا شفيع لهم ولكنهم من شدة الحيرة والتخبط وشدة العذاب الذي ألمَّ بهم ، ظنوا أن غير الممكن ممكن فذهبوا يسألون عنه كما يسأل عن الشيء الذي لا استحالة في وجوده . ومنه قول الشاعر يخاطب الطلول الدراسة :

هل بالطلول لسائل رد   أم هل لها بتعلم عهد ؟

فالشاعر يتمنى أن يحظى من هذه الأطلال الدارسة برد يخفف ما به من

---

(1) سورة البقرة ، الآية ٤٤ .

(2) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ص ٩٩ ـ ١٠٠ ح ١ مطبعة الاستقامة نشر المكتبة التجارية سنة ١٣٧٣هـ ١٩٥٣ م .

(3) سورة الأعراف ، الآية ٥٣ .

ألم الحسرة على فراق أحبته ، فقد استعمل « هل » مكان « ليت » ، ليصور حالته أتم تصوير وأكمله ، إذ هو في حال الولهان الذي يتخيل أن غير الممكن ممكن الوقوع .

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الإنسَانُ يَومَئِذٍ أَينَ المَفَرُّ ﴾[1] ، والمعنى أن الكافر حينما يرى أهوال القيامة ، يقول متمنياً : هل هناك طريق للفرار ؟ فيزجر عن هذا التمني ، ويقال له : لا ملجأ لك اليوم ينجيك من الحساب والعقاب .

ولا يخفى أن استعمال الاستفهام هنا مكان « التمني » يصور حال الكافر يوم القيامة ، وأنه من شدة وهول ما رأى سأل عن طريق الخلاص فوضع الممكن مكان المستحيل ، وذلك ما يجعل الأسلوب حياً نابضاً له إيحاءات تشبع القارىء ، وتثير فيه روح المتابعة والمشاركة .

إلى غير ذلك من الأغراض التي يدركها صاحب الذوق الأدبي اللماح بمساعدة القرائن ودلالة الأحوال .

أسلوب التمني :

وقالوا في تعريفه : إنه طلب أمر تحبه النفس ، وتميل إليه ، ولكنه لا يرجى حصوله ، إما لاستحالته ، أو لكونه لا يطمع في نيله .

واللفظ الموضوع له هو « ليت » .

فمثال تمني الأمر المحبوب الذي لا يمكن حصوله لكونه مستحيلاً .

قول الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

---

(1) سورة القيامة ، الآية ١٠ .

فالشاعر يتمنى عودة الشباب يوماً واحداً ، وهي أمنية محبوبة إلى نفسه ، وكلاهما غير ممكنة الحصول ، لأنه يستحيل عودة الشباب مرة أخرى . ومثله قول الشاعر :

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمي

فهو يتمنى أن تدنو الكواكب لينظمها عقوداً يقدمها للمدوح ، وهذه الأمنية محببة إلى نفس الشاعر ، ولكنها غير ممكنة الحصول ، لأنه يستحيل أن تدع الكواكب أفلاكها ، وتتجمع بين يديه ليصنع منها عقود مدحه .

ومثال تمني الشيء المحبوب الممكن حصوله ، ولكنه غير مطموع فيه لبعد مناله ، كقول الله تعالى : ﴿ قَالَ الذِينَ يُرِيدُونَ الحَياةَ الدُّنيَا يَا لَيتَ لَنَا مِثلَ مَا أُوتِيَ قَارونُ ﴾[1] فالآية تخبرنا أن قوم قارون حينما رأوا كنوزه تنوء عن حملها العصبة القوية تمنوا أن يكون لهم مثل تلك الكنوز ، وهي أمنية محبوبة لأنفسهم ، وهي ممكنة الوقوع ، وليست بمستحيلة ، ولكن هذه الأموال العظيمة لا يطمعون في نيلها لبعد منالها .

وعلى ذلك يكون « التمني » فيما هو مستحيل ، أو فيما هو ممكن ، ولكن لا طماعية في حصوله لبعد مناله .

فإذا كان الممكن يطمع في حصوله صار ترجياً ، وحينئذ لا يستعمل فيه إلا الألفاظ الدالة على الترجي « كلعل » و« عسى » فمثلاً إذا كنت تطلب حصول مال في هذا العام متوقعاً وطامعاً في حصوله ، قلت : « لعل لي مالاً أحج به » ، وإن كان غير متوقع ولا طماعية لك فيه قلت :

« ليت لي مالاً في هذا العام أحج به » .

---

(١) سورة القصص الآية ٧٩.

وباقي صيغ الطلب ـ (الأمر ـ النداء ـ الاستفهام ـ النهي) تكون فيما هو ممكن .

وعلى ذلك قد يتمنى بألفاظ أخرى غير « ليت » لغرض بلاغي ، وهو إبراز المتمني « غير الممكن » في صورة الممكن القريب الحصول ، لكمال العناية به مثل : هل ، لو ، لعل .

فمثال : « هل » : قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾[1] فالآية الكريمة تخبرنا بأن الكافرين حين نزل بهم العذاب يوم القيامة ، تمنوا أن يجدوا من النار مخرجاً وخلاصاً ، ولكن هذا أمر مستحيل ، ولكنهم من فرط حيرتهم ودهشتهم ، وشدة ما هم فيه ، طارت عقولهم ، وظنوا أن غير الممكن الذي هو : « الخروج من النار » ـ ممكن فاستعملوا لفظ « هل » الموضوع للاستفهام الذي هو ممكن ـ في التمني بدلاً من اللفظ الموضوع له في الأصل ، وهو « ليت » التي تستعمل في الأمر المستحيل ، وتحس بأن استعمال لفظ « هل » قام بتصوير حال الكافرين ، وإبراز مكنون نفوسهم على أتم وجه وأكمله .

وأما « لو » فكقوله تعالى : ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] يتمنى الكافرون حين يذوقون العذاب يوم القيامة أن يعودوا للحياة مرة أخرى ليؤمنوا كما آمن المؤمنون ـ ولكن عودتهم إلى الحياة مرة ثانية أمنية مستحيلة . فكان المقام لـ« ليت » ولكن « النظم الكريم » جاءت فيه « لو » بدل « ليت » ، وذلك لتصوير حالهم ، وشدة ما أصابهم ، وعظم ما حل بهم ، وذهاب عقولهم ، حتى ظنوا أن غير الممكن ممكن ، فاستعملوا « لو »

---

(١) سورة غافر ، الآية ١١ .

(٢) سورة الشعراء الآية ١٠٢ .

التي تستعمل في الأمر الممكن بدل « ليت » التي عرفنا أنها تستعمل في الأمر المستحيل .

أحرف التنديم والتحضيض

أحرف التنديم والتحضيض هي :

١ ـ « هَلَّا » : بتشديد اللام ، مأخوذة من « هل » المنقولة للتمني ، و« ولا » المزيدة .

٢ ـ « أَلَّا » : بتشديد اللام أيضاً ، وهي « هَلَّا » بعينها ، وإنما صارت « أَلَّا » بقلب الهاء همزة .

٣ ـ « لولا » : مأخوذة من « لو » المنقولة للتمني ، و« لا » المزيدة .

٤ ـ « لوما » : مأخوذة من « لو » المنقولة للتمني ، و« ما » المزيدة .

وهذه الأحرف الأربعة : « هَلَّا » ، « أَلَّا » ، « لولا » ، « لوما » ـ كما ترى ـ مأخوذة من « هل » و« لو » حال التركيب مع « لا » و« ما » لا بعد التركيب ، فلم يتحد المأخوذ والمأخوذ منه .

و« هل » و« لو » قبل التركيب يجوز أن يستعملا مكان « التمني » ، وأما بعد التركيب فإن « هلا » ، و« ألا » و« لولا » و« لوما » تدل على معنى التمني نصاً ، والتركيب ـ حينئذ ـ يكون قرينة على هذا المراد .

والتمني هذا ليس مقصوداً بالذات ، بل ليتولد منه معنى التنديم والتحضيض من أول الأمر ـ من غير توسط التمني ـ ، لأن التنديم متعلق بالمضي والتحضيض متعلق بالمستقبل ، وهما مختلفان ، فكان « التمني » واسطة ، لأنه طلب في الماضي وفي المستقبل ، فهو شامل لمعنييهما .

ووجه التولد : أن التمني إنما يكون في الأمور المحبوبة ، فإذا فات الأمر

المحبوب له ندم المخاطب عليه ، وإن كان مستقبلاً حضه عليه .

فإذا دخلت هذه الأحرف على الماضي تولد معنى التنديم ، ومعناه : جعل المخاطب نادماً بإظهار أنه كان ينبغي أن يفعل ما فاته لما فيه من الحكمة المقتضية للفعل ، فيصير لفواته نادماً ، وذلك نحو قولك بعد فوات إكرامه زيداً . « هَلَّا أكرمت زيداً » .

والفعل بعد فوات وقته لا يمكن طلب فعله في وقته حقيقة ، بل تمنيه لصيرورته محالاً .

ولما فات إمكان فعله ـ مع ما فيه من الحكمة المقتضية للفعل المعلومة للمخاطب ـ صار في الكلام إشارة إلى أنه كان مطلوباً من المخاطب ففوته ، فيصير المخاطب بسماع هذا الكلام ـ المفيد لهذا المعنى ـ نادماً ، فمعنى كونه مطلوباً ـ وهو الذي أوجب ندمه ـ أنه كان ينبغي أن يفعله وقت إمكانه ـ فمعنى : « هلا أكرمته » على هذا : ليتك أكرمته ، وتقول أيضاً : « لوما أكرمته » على معنى ليتك أكرمته وتقول : « ألا أكرمت زيداً ، ولولا قلت الحق » على معنى ليتك أكرمت زيداً ، وليتك قلت الحق ، تجعل المخاطب نادماً على ترك هذا الفعل الذي كان ينبغي أن يفعله .

وإذا دخلت هذه الأحرف على المستقبل تولد معنى التحضيض ، ومعناه : الحث على الفعل لإمكان حدوثه ، تقول : « هلا تقوم » و« لوما تقوم » ،و« لولا تقوم » ، و« ألا تقوم » كل ذلك على معنى ليتك تقوم قصداً إلى حثه على القيام[1] .

وأما « لعل » فكما في قوله تعالى حكاية عن فرعون موسى : ﴿ وَقَالَ فِرعونُ يا هَامَانُ ابنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبلُغُ الأَسْبَابَ ۞ أَسبَابَ السَّمٰواتِ فَأَطَّلِعَ

(١) أنظر شروح التلخيص ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥ ح ٢ .

إلىٰ إلٰهِ مُوسَىٰ ﴾[1] ففرعون يعلم أن ما يأمله بعيد المنال ، فالمقام مقام « التمني » ، ولكن النظم القرآني ورد فيه « لعل » مكان « ليت » ، لتصوير حال فرعون النفسية ، ورغبته الملحة في الثبات على كفره والمحافظة على سلطانه ، ومحاربة الحق بأبلغ طريق ، وفي ذلك بيان لإمعانه في عتوه وصلفه وعماه ، حتى اعتقد أن البعيد المنال قريب المنال .

وهكذا ترى أن اللغة العربية فيها من الأدوات التي تكشف عن خبايا النفوس ، وتبرز ما فيها بأوجز طريق .

أسلوب النداء

النداء : هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب كلمة « أدعو » لفظاً كقوله تعالى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾[2] ، أو تقديراً كما في قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾[3] والتقدير : « يا يوسف » .

وأدوات النداء هي : الهمزة ، أي ، يا ، آ ، آي ، أيا ، هيا ، وا .

والأصل في القريب أن ينادي « بالهمزة » ، أو « أي » . وفي نداء البعيد أن ينادي بغيرهما من بقية الأدوات . غير أن هناك أسباباً بلاغية تدعو إلى مخالفة هذه الأصل ، هي :

١ ـ « أيا » و« هيا » موضوعان لنداء البعيد ـ وقد ينزل غير البعيد وهو الحاضر ـ منزلة البعيد لأسباب منها :

---

(١) سورة غافر ، الآية ٣٦ ـ ٣٧ .
(٢) سورة مريم ، الآية ٧.
(٣) سورة يوسف ، الآية ٢٩ .

(أ) أن يكون الشخص نائماً أو ساهياً ، فيكون كل من النوم والسهو بمنزلة البعد في إعلاء الصوت ، فنقول : « هيا فلان استيقظ » .

(ب) أو لتنزيل المنادي منزلة الغافل لعظم الأمر المدعو حتى كأن المنادي غافل عنه مقصر ، لم يف بالواجب عليه ، فتقول له : « هيا فلان تهيأ للحرب » ، أو « أيا فلان تهيأ للحرب » . فتحس بأن هذا الاستعمال قد كشف عن حال المنادي دون التصريح بها ، فهي دعوى بدليلها فهذا الرجل لم يف بالواجب والدليل أننا نناديه بأداة النداء الموضوعة لنداء البعيد ، وهذا من إيحاءات اللغة ، وما لها من ظلال :

٢ ـ و« الهمزة » و« أي » موضوعان لنداء القريب ، وأحياناً ينزل البعيد منزلة القريب ، فيستعملان فيه ، وذلك للدلالة على أنه حاضر في القلب لا يغيب عنه أصلاً حتى صار كالمشهود الحاضر كقوله :

أجيب القلب عني لا تزول

فهو ينادي شخصاً بعيداً عنه ، ولكنه استعمل « أداة » النداء « الهمزة » الموضوعة لنداء القريب ، ليقول لنا من خلال دلالة اللغة وعظمتها ، إنه قريب منه وصورته لا تزول عن خاطره .

ومن المشهور في ذلك قول الشاعر :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا : بأنكمو في ربع قلبيَ سكان

نعمان الأراك : اسم مكان ، والربع : المنزل .

يخاطب الشاعر سكان هذا المكان بأنه مشغوف بهم ، وأنهم في خبايا قلبه وبين جوانحه .

وترى الشاعر قد استعمل « الهمزة » التي لنداء القريب ، ليوحي إلى القارىء أو المستمع : أن هؤلاء السكان قريبون منه ، لأنهم لا يتركون فكره ولا قلبه .

ونقرأ رسالة وردت من والد بعيد عن فلذة كبده ، فتراه يقول : أي فلذة كبدي عليك بالعلم فإنه سبيل النجاح في الدنيا والسعادة في الآخرة ، فتراه من خلال هذه السطور وكأنه يقول لولده : أنت قريب مني دائماً ، وصورتك لا تبرح خيالي ، فإني أراك في نومي ، وأتصورك بشخصك في يقظتي ، والدليل على هذا أنني أناديك بأداة « النداء » أي ، الموضوعة لنداء القريب .

٣ ـ و« يا » موضوعة لنداء البعيد ، ولا تستعمل في « القريب » إلا مجازاً ، وذلك عند تنزيل القريب منزلة البعيد ، وذلك يكون في الأحوال الآتية :

(أ) إذا كان الداعي يتصور نفسه في مكان بعيد عن حضرة المنادي ، كقولنا : « يا الله » مع أنه أقرب إلينا من حبل الوريد .

(ب) أو للتنبيه على عظم الأمر المدعو إليه ، وعلو شأنه ، حتى كأن المنادي مقصر في أمره غافل عنه مع شدة حرصه على الامتثال ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾[1] .

(ج) أو للحرص على إقبال المنادي والرغبة والرضا بذلك ، فصار إقباله كالبعيد ، لأن النفس إذا اشتد حرصها على الشيء صارت كل ساعة قبل وقوعه في غاية البعد ، فنقول : « يا غلام بادر بالماء فأنا عطشان » ، ونحو قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾[2] .

وعليه قول مرة بن محكان السعدي :

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ضمي إليك رحال القوم والقربا

(د) أو للتنبيه على بلادة المنادي ، فكأنه بعيد من التنبيه لا يسمع نحو قولنا : « تنبه يا أيها الغافل » .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

(٢) سورة القصص الآية ٣١ .

(هـ) أو لانحطاط شأنه فكأنه بعيد عن مجلس الحضور نحو : « مَنْ أنت يا هذا ؟ » .

الأغراض البلاغية
التي تخرج إليها صيغة النداء

وقد تخرج صيغة النداء عن معناها الأصلي - وهو طلب الإقبال - إلى معان أخرى تفاد من سياق الحديث وقرائن الأحوال منها :

١ - **الإغراء** : وهو الحث على لزوم الشيء . كقولك لمن أقبل يتظلم : « يا مظلوم تكلم » .

فأنت لا تريد بقولك . « يا مظلوم » طلب إقباله لوجوده معك . وإنما أردت إغراءه وحثه على زيادة التظلم الذي هو بث الشكوى ، وكثيراً ما يؤكد المراد بالتكرار ، فيقال : يا مظلوم يا مظلوم في حال تظلمه إظهاراً لرحمته وتحريكاً لدعايته على الشكوى بذكر ظلمه على وجه النداء ، أو بجملة تتضمن معناه كأن يقال : يا مظلوم اشتك فهذا موضع الشكوى .

٢ - **الاختصاص** : وهو تخصيص حكم علق بضمير باسم ظاهر ، صورته صورة المنادي أو المعرف بأل أو بالإضافة ، أو بالعلمية .

فمثال كون الدال على التحضيض المذكور صورته صورة المنادي قولك : « أنا أفعل كذا أيها الرجل » ، ومثال المعرّف « بأل » قولك : « نحن العرب أسخى من بذل » ومثال المعرّف بالإضافة ،قول النبيﷺ : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » ومثال المعرّف بالعلمية : « بنا تميماً يكشف الضباب».

فليس الغرض من النداء في هذا المثل - طلب حقيقة الإقبال - إذْ ليس المراد بالاسم الظاهر فيها المخاطب ، وإنما المراد : المتكلم نفسه ،

والمتكلم لا يطلب إقبال نفسه ومن أجل هذا حمل على معنى الاختصاص بمعونة القرائن .

ويكون الاختصاص إما للافتخار كما في قولك : « نحن العرب أقرى الناس للضيف » ومثل قولك : « عليّ أيها الجواد يعتمد الفقير » .

وإما لإظهار المسكنة والتواضع كما في قولك « أنا أيها المسكين أطلب المعروف ونحو : « إني أيها العبد الفقير إلى الله » .

وإما لمجرد تأكيد مدلول الضمير كقولك . « أنا أيها الرجل أتكلم فيما يتعلق بمصالحي » .

٣ ـ الاستغاثة : وقد تخرج صيغة النداء عن معناها الأصلي ، ويراد بها الدلالة على الاستغاثة ، وذلك نحو قولنا : « يا الله » أي : الله اغثنا .

٤ ـ التحسر والتحزن : وقد يراد من صيغة النداء « التحسر والتحزن وذلك عند نداء الأطلال والمنازل والمطايا : نحو قول الشاعر :

يا دار مية بالعليا فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأمد

فهو لا يطلب من الدار الإقبال . ولكنه يريد أن يظهر توجعه وتحسره على تلك الأيام الخوالي التي قضاها في حماها عزيزاً مكرماً .

ومثل قوله : « يا منزلي ويا منزل فلان » متحسراً أو متحزناً عليه .

ويقول الشاعر :

أيا منازل سلمى أين سلماك   من أجل هذا بكيناها بكيناك

يقول : من أجل عدم وجدان سلمى بكينا على سلمى ، وبكينا على المنازل ، فهو لا يطلب من المنازل الإقبال ، ولكنه يقصد التحسر والتحزن عليها .

٥ ـ **التعجب** : وقد يراد من صيغة النداء « التعجب » كقولك : عند شهود كثرة الماء : « يا للماء » يقال ذلك عند مشاهدة كثرة حلاوته ، أو برودته ، أو وفائه تعجباً منها ، فكأنه لغرابة كثرته المذكورة يدعوه ويستحضره ليتعجب منه .

٦ ـ **الندبة** : وقد يراد من صيغة النداء « الندبة » وهي نداء المتوجع منه أو المتفجع عليه كقولك : يا رأساه ، ويا عيناه ، ويا مرضي ، ويا سقمي وامحمداه واعمراه .

٧ ـ **الزجر** : وقد يراد من صيغة النداء « الزجر » كما في قول الشاعر :

يا قلب ويحك ما سمعت لناصح ... أما ارعويت ولا اتقيت كلاماً

فهو لا يريد أن ينادي قلبه لأنه معه ، وإنما الغرض من النداء الزجر بدليل ويحك ما سمعت لناصح .

إلى غير ذلك من الأغراض التي تظهر لك إذا قرأت الشعر العربي قراءة مستأنية ، فسوف ترى فيه أساليب متنوعة وفنوناً مختلفة تعرفها من السياق وقرائن الأحوال .

وقوع الخبر موقع الإنشاء

وقد تقع صيغة الخبر موقع صيغة الإنشاء ، وذلك للأغراض الآتية :

١ ـ **التفاؤل** : وذلك يكون في «الدعاء» بأن يقصد المتكلم طلب الشيء ، وتكون صيغة الأمر هي الدالة عليه ، فيعدل عنها إلى صيغة الماضي الدالة على تحقق الوقوع ، وفيه إشعار للمخاطب بأن دعاءه قد حصل ، تقول لصاحبك : « وفقك الله للتقوى » مكان « اللهم وفقه » ، فقد عبّرت بالفعل الماضي « وفقك الله للتقوى » الدال على تحقق الحصول لإدخال السرور على قلب المخاطب ، وتقول : « غفر الله لك » فإنه أبلغ من قولك : « رب اغفر

له » فإن صيغة « غفر » أصلها المضي ، والماضي لا يتعلق به طلب ، فالتعبير عن الطلب بالماضي يحصل به تفاؤ ل .

٢ - إظهار الحرص على وقوع المطلوب : وقد يؤتى بصيغة الخبر مكان صيغة الإنشاء ، لإظهار الحرص على وقوع المطلوب .

وأظهار الحرص مما يستدعي الإمتثال لما تضمنه من الحث على الوقوع ، وذلك أن الإنسان إذا عظمت رغبته في شيء يكثر تصوره إياه ، لأن محبوب الوقوع لا يزول عن الخاطر غالباً فربما يخيل إليه حاصلاً وواقعاً ، فيعبر عنه بصيغة الحصول ، أي : صيغة الخبر المدلول عليها بالفعل الماضي - بناء على ذلك التخيل .

فالتعبير بصيغة الجملة الخبرية الماضوية يفهم منها تخيل الحصول بناء على كثرة التصوير .

٣ - والدعاء من البليغ بصيغة الماضي كأن يقال : « رحمك الله » يحتمل التفاؤ ل وإظهار الحرص ، بمعنى أنه يحتمل أن يريد المتكلم التفاؤ ل بوقوع الرحمة للمخاطب قصداً لإدخال السرور عليه ، أو يريد إظهار الحرص في الوقوع حيث عبر بالمضي لكثرة التصور الناشيء عن كثرة الرغبة قضاء لحق المخاطب .

وإنما قال من البليغ ، لأن البليغ إنما يقول ما يسمع من غير أن يراعي هذه الاعتبارات في موارد المقامات ، والمراد من البليغ من يراعي ما ذكر ، لأنه يعرف مقتضيات الأحوال ومقام كل صيغة .

٤ - وقد يأتي الإنشاء بصيغة الخبر ، كقول المرءوس للرئيس : « ينظر إليّ الرئيس ساعة » فإنه أكثر تأدباً من قوله : « انظر إليّ » بصيغة الأمر .

٥ - وقد يأتي الإنشاء بصيغة الخبر لحمل المخاطب على تحقيق

المطلوب بسبب كون المخاطب لا يحب تكذيب المتكلم ، فإذا أبقى المتكلم الكلام الخبري المقصود منه الإنشاء ، ترى المخاطب أي : السامع قد سعى وبادر في تحصيل المطلوب خوفاً من نسبة المتكلم للكذب ، وهو لا يحب هذا .

تأمل قولك لصاحب : « يا فلان أنت تأتينا غداً » مكان « ائتني غداً » والفرق بين الجملتين : أن الجملة الأولى : « أنت تأتينا غداً » خبرية لفظاً إنشائية معنى لأنها بمعنى « ائتني غداً » الانشائية لفظاً ومعنى .

فحينما يقول المتكلم لصاحبه : « أنت تأتينا غداً » يكون كلامه بحسب الظاهر محتملاً للصدق والكذب ، فهنا السامع الحريص على أن يكون المتكلم صادقاً ولا يريد أبداً أن ينسبه إلى الكذب ، يلبي الإتيان وعلى ذلك تكون الجملة « أنت تأتينا غداً » صادقة ، وبالتالي يكون المتكلم صادقاً .

أما إذا لم يأت السامع كانت الجملة كاذبة ، وكان المتكلم بالتالي كاذباً والفرض أن المخاطب يحرص على صدق المتكلم في كلامه ، ولا يريد أن ينسبه إلى الكذب ، فحرص المخاطب على الإتيان تصوير لنفسيته تجاه المتكلم بأنه لا يتكلم إلا الصدق .

وبذلك يكون المتكلم بماله من منزلة عند السامع حمله على الإتيان بألطف وجه وفاء لتلك المنزلة . وكثيراً ما يؤكد هذا القصد بعد قوله : أنت تأتينا ، بقوله : « إياك أن تكذبني في هذا المقام يا فلان .

أما الجملة الثانية : « ائتني غداً » جملة إنشائية لفظاً ومعنى : لا تحتمل صدقاً ولا كذباً وقائلها لا يوصف بأنه صادق أو كاذب ، فالإتيان أو عدمه سواء . لأنه لا يمس المتكلم بشيء بل يرجع إلى المخاطب من جهة امتثاله للأمر أو عدم امتثاله .

ولذلك كانت الجملة الأولى : « أنت تأتينا غداً » أبلغ من الجملة الثانية

« ائتني غداً » لأن الأولى فيها تصوير للصلة القوية بين القائل والمتلقي .

فالمجيء فيها يحمل معنى بلاغياً لطيفاً .

هذا . . . واستعمال الخبر في هذه الصور مجاز ، لاستعماله في غير ما وضع له ، ويحتمل أن يكون كناية في بعضها .

وهذا الذي عرضناه عليك من أساليب الإنشاء الطلبي ، لم تذكر فيه بيان أحوال أجزاء الجملة الإنشائية ، كالإسناد ، والمسند إليه ، والمسند ، ومتعلقات الفعل ، والقصر ، اكتفاء بما ذكر في الأسلوب الخبري لأن الأسلوب الإنشائي كالأسلوب الخبري في كثير مما ذكر منها .

الفَصْلُ السَّابعُ

أسلوب الفصل والوصل

قال ابن جني ـ رحمه الله ـ : « إنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة ، والدقة ، والإرهاف ، ما يملك عليَّ جانب الفكر »[1] ، ويقصد ابن جني « اللغة العربية » ، ولا ريب أنه محق فيما يقول إلى أبعد غاية .

فهذه اللغة المبنية على نظام دقيق ، إذا نظرنا إلى جانب من جوانبها المتعددة وجدنا كل جانب ، قد أخذ من الحسن غايته ، ومن النظام والدقة والتنسيق ما يثير في أنفسنا لواعج الشوق لدراستها ، وكوامن الدقة للحفاظ عليها .

فإذا أخذنا لذلك مثلاً : فنظرنا في أساليبها من ناحية فصلها ووصلها ، وجدنا نظاماً بديعاً لصورها وتراكيبها وصيغها .

فتارة نرى جملاً منثورة ترك العطف بينها ، وجاءت واحدة بعد أخرى ، كقوله جل وعلا : بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ أَفَرَأَيتُم الماءَ الَّذِي تَشرَبُونَ * أَأَنتُم أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحنُ المُنزِلُونَ * لَو نَشَاءُ جَعلنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشكُرُونَ * أَفَرَأَيتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحنُ

---

(١) الخصائص لابن جني ص ٤٧ ح ١ تحقيق النجار الطبعة الثانية ، نشر دار الهدى ـ بيروت .

الْمُنشِئُونَ * نَحنُ جَعلْنَاهَا تَذْكِرةً وَمَتاعاً لِلمُقْوِينَ ﴾[1]..

وقول الشاعر :

أصون عرضي بمالي لا أدنسه   لا بارك الله بعد العرض في المال

وهي تارة أخرى تأتي فيها مفردات متتابعة لا عطف بينها كما في قوله : ﴿ هُوَ اللهُ الذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ المَلِكُ * القُدُّوسُ * السَّلَامُ * المُؤمِنُ * المُهيمِنُ * العَزيزُ * الجَبَّارُ * المُتَكَبِّر * سُبْحانَ اللهِ عمَّا يُشرِكُونَ ﴾[2] .

وهي ثالثة ترد فيها جمل متعاطفة كقوله سبحانه على لسان فرعون موسى : ﴿ أَلَم نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدَاً وَلَبِثتَ فِينَا مِن عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعلتَ فَعلَتَكَ التِي فَعَلتَ وَأَنتَ مِن الكَافِرِينَ ﴾[3] .

ويقول الكميت :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب   ولا لعبا مني وذو الشوق يلعب

وكما ترد فيها جمل متعاطفة تجيء فيها مفردات عطف بعضها على بعض ، كقوله جل وعلا : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ ﴾[4] .

واللغة المشهورة بالدقة والنظام ، لا بد أن يكون الفصل فيها بين الجمل ، أو المفردات يقوم على أسرار بلاغية ، ويكون الوصل بين جملها أو مفرداتها قائماً على أسس فنية ، ونكت بيانية ، بحيث لا يصلح الفصل في مكان الوصل ولا الوصل في مكان الفصل .

---

(١) سورة الواقعة الآية ٦٨ ـ ٧٣ .

(٢) سورة الحشر الآية ٢٣ .

(٣) سورة الشعراء الآية ١٨ ، ١٩ .

(٤) سورة الحديد ، الآية ٣ .

ولقد شدت هذه الظاهرة انتباه البلاغيين ، فدرسوها دراسة واعية وحاولوا أن يضعوا المقاييس التي تنير الطريق أمام الناقد والأديب .

ولعل أبا عثمان بن بحر بن محبوب ، المعروف بالجاحظ ، والمتوفى سنة ٢٥٥هـ هو أول من نبه على ضرورة مراعاة الوصل والفصل بين الجمل حينما جعله البلاغة كلها . فقد قال في كتابه « البيان والتبيين » ما نصه : « قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ » قال : « معرفة الفصل من الوصل »[1] ، وذكر في كتابه السالف قول الخليفة الأول أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وقد مر برجل في السوق يبيع الثياب ، فقال الخليفة للرجل : أتبيع هذا الثوب ؟ فقال الرجل : لا عفاك الله ، فقال أبو بكر : « قد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعفاك الله »[2] .

يشير الخليفة بذلك إلى موطن من مواطن الوصل بين الجملتين ، وهو : كمال الانقطاع مع الإبهام ، لاختلافهما خبراً وإنشاء ، الأمر الذي يقتضي الفصل بينهما ، ولكن الفصل بينهما يوهم خلاف المقصود ، وحينئذ توصل الثانية بالأولى ، فتجيء واو العطف ، دفعاً لهذا الإبهام . وإقامة لقصد المتكلم .

ثم جاء أبو هلال العسكري صاحب « كتاب الصناعتين » والمتوفي سنة ٣٩٥هـ ، وتحدث عن الفصل والوصل ، ووضح دوره في الكلام الفني الجميل ، ونبه على ضرورة مراعاتهما ، ولكنه لم يفصل القول فيهما ، بل اكتفى بما نقله من أقوال البلغاء : منها قول أبي العباس السفاح لكاتبه : « قف عند مقاطع الكلام وحدوده ، وإياك أن تخلط المرعى بالهمل ، ومن حلية البلاغة : المعرفة بمواضع الفصل والوصل » ، وقول يزيد بن معاوية : « إياكم

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ص ٨٨ ح ١ بتحقيق هارون الطبعة الثانية نشر الخانجي .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦١ ج ١ .

أن تجعلوا الفصل وصلاً ، فإنه أشد وأعيب من اللحن »[1] ، وكلها إرشادات بوجوب مراعاة مواطن الفصل والوصل .

وعلى الرغم من إشارتي الجاحظ وأبي هلال العسكري إلى الفصل والوصل وخطورة الباب ، لم يلق العناية الجديرة به من النقاد والبلاغيين ، حتى جاء الشيخ عبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١هـ أو سنة ٤٧٤هـ الذي اشتكى مر الشكوى من هذا الإهمال الصارخ لباب خطير من أبواب البلاغة العربية ، وقال في كتابه : « دلائل الإعجاز » بعد أن نوه بدور الفصل والوصل في التعبير الفني الجميل : « إنه ما من علم من علوم البلاغة أنت تقول فيه إنه خفي غامض ، ودقيق صعب ، إلا وعلم هذاالباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب »[2] .

ويصف عمل السابقين فيه فيقول : « وقد قنع الناس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف أن الكلام قد استؤنف ، وقطع عما قبله ، لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك ، ولقد غفلوا غفلة شديدة »[3] .

وانبرى يفصل القول في هذا الباب ، وذلك بعرض الأمثلة ومناقشتها ، وتحليلها واستنباط المقاييس البلاغية منها ، ثم أجمل مواضع الفصل والوصل بقوله : « إن الجمل على ثلاثة أضرب :

١ ـ جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف ، والتأكيد مع المؤكد ، فلا يكون فيها العطف البتة ، لشبه العطف فيها ـ لو عطفت ـ بعطف الشيء على نفسه .

٢ ـ وجملة حالها مع التي قبلها حال الاسم يكون غير الذي قبله إلا أنه

---

(١) الصناعتين ص ٤٨ تحقيق البجاوي وابراهيم الطبعة الأولى .

(٢ ، ٣) دلائل الإعجاز ص ٢٥١ بتحقيق المراغي .

يشاركه في حكم ، ويدخل معه في معنى ، مثل أن يكون كلا الاسمين فـاعلاً أو مفعولاً ، أو مضافاً إليه ، فيكون حقها العطف .

٣ ـ وجملة ليست في شيء من الحالين ، بل سبيلها مع التي قبلهـا سبيل الاسم مع الاسم لا يكون منه شيء ، فلا يكون إياه ولا مشاركاً له في معنى ، بل هو شيء إن ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به ، ويكون ذكر الذي قبله ، وتـرك الذكر سواء في حاله ، لعدم التعلق بينه وبينه رأساً ، وحق هذا تـرك العطف ، البتة .

فترك العطف يكون :

١ ـ إما للاتصال إلى الغاية .

٢ ـ أو الانفصال إلى الغاية .

٣ ـ والعطف لما هو واسطة بين الأمرين ، وكان له حال بين حالين[1] .

ثم جاء البلاغيـون بعده فـاعتمدوا على مـا قالـه في هذا البـاب غير أنهم كانوا أكثر ضبطاً للقواعد والحـدود ، وقد قصـروا بحثهم على العطف بـالواو ـ خـاصة دون بقيـة حروف العـطف ، وقالـوا : إن الواو وهي الأداة التي يحتـاج العطف بها إلى لطف في الفهم ، ودقة في الإدراك ، حيث هي لا تفيـد سوى مجرد الربط بين المتعاطفين ، وتشريك ما بعـدها في الحكم لمـا قبلها ، فهي لمطلق الجمع ، ويشترط في العطف بها وجود الجامع .

أما غير الـواو من حروف العـطف ، فإنهـا تفيد إلى جـانب التشريـك في الحكم معاني أخرى ، يقتضيها المقام ، كالترتيب مـع التعقيب في « الفاء » ، والترتيب مع التراخي في « ثم » . . . وهكذا .

ومن أجل ذلك لم يتعرض البلاغيون لغير ـ الواو ـ من حروف العطف .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٥٨ .

ومن هنا عرفوا كلا من الوصل والفصل بقولهم :

الوصل : هو عطف بعض الكلام على بعضه - بالواو - خاصة .

والفصل : هو ترك ذلك العطف .

ولكل منهما مواضع خاصة به سنتناولها - بمشيئة الله - بالتفصيل .

فصل ووصل المفردات
أو عطف المفردات أو تركه

تعطف المفردات على بعضها بالواو - إذا كانت متناسبة ، كما ترى ذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالمينَ ﴾[1] فالصلاة والنسك ، والمحيا ، والممات كلها أسماء متناسبة .

وكقوله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيهِ مِن رَبِّهِ وَالمُؤمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾[2] فالله ، والملائكة ، والكتب ، والرسل أسماء بينها تناسب .

أما في الصفات فإنه لا يعطف بينها إلا إذا كان بينها تضاد ، أما إذا لم يكن هناك تضاد ترك العطف نجد ذلك في قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبدِلَهُ أَزوَاجاً خَيراً مِنكُنَّ مُسلِمَاتٍ مُؤمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبكَاراً ﴾[3] ، فقد ترى أن الصفات قد مضت بجوار بعضها من غير عطف ، إلا بين ثيبات وأبكاراً ، فعطفتا للتنويع ورفع التناقض ، لأنه لو قيل : « ثيبات أبكارا » لكانت كلمة « أبكاراً » إضراباً عن « ثيبات » ، ولكن غرض الآية الكريمة أن تجمع بين « ثيبات وأبكاراً » .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٦٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٥ .

(٣) سورة التحريم ، الآية ٥ .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤمِنُ المُهَيمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبحَانَ اللهِ عَمَّا يُشرِكُونَ * هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِيءُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسماءُ الحُسنَى ﴾[1]، تجد أن النظم القرآني ترك فيه العاطف بين الصفات ، لأنها ليست متضادة .

أما إذا تضادت الصفات عطفت ، أنظر في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ ﴾[2] تجد أن الصفات عطفت على بعضها ، لأنها صفات متضادة .

وأحياناً تكون الصفات غير متضادة ، ويأتي العطف ، وذلك إذا كان العطف يشير إلى معنى كما في قوله تعالى : ﴿ حمٓ * تَنزِيلُ الكِتَابِ مِن اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطُّولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيهِ المَصِيرُ ﴾[3] ، لأن الصفتين وهما : « غفران الذنوب ، وقبول التوبة » تواردا على معنى واحد هو : التجاوز عن الذنب ، فجاءت الواو بينهما مؤذنة بالتغاير ومشيرة إليه ، فالله يغفر الذنب حيناً من تلقاء نفسه بفضله ، وحيناً يعفو عنه بسبب ندم التائب واعتذاره ، فدلت الواو على هذا المعنى وأشارت إليه .

وقوله تعالى : التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالمَعروفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ المُؤمِنِينَ ﴾[4] تجد أن الصفات الأولى جاءت بغير ـ واو ـ وفي الصفتين (الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) جاءتا بالواو . لأنهما متضادان .

هذا . . . والذي يجب أن نضعه أمام أعيننا أن اللغة العربية تمتاز بأنها

---

(١) سورة الحشر الآية ٢٣ و٢٤ .

(٢) سورة الحديد ، الآية ٣ .

(٣) سورة غافر ، الآية ١ ، ٢ ، ٣ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ١١٢ .

تجمع بين الأسماء أو الصفات ، وترتب بينهما ، وتقدم بعضها على بعض وفق منهج فني ودقيق ، وسنذكر لك بعض الأمثلة على ذلك .

تأمل قوله تعالى : ﴿ وَنُسقِيَه مِمَّا خَلَقْنَا أنعاماً وَأَناسِيَّ كَثِيراً ﴾[1] تقدمت الأنعام على الأناسي ، لأن في حياة الأنعام حياة للأناسي .

وقد تتقدم الكلمة لشرفها وعلو مرتبتها ، ولهذا قدم اسمه تعالى في قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا أَطيعُوا الله وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولي الأَمرِ مِنكُم ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ الله وَالرَّسُولَ فأُولئِكَ مَع الذِينَ أنعمَ اللهُ عَليهِم مِن النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ والشُّهداءَ وَالصَّالِحينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفيقاً ﴾[3] نجد أن « النبيين » تقدموا على « الصديقين » لأن « النبي » أشرف من الصديق ، وقوله : « والشهداء والصالحين » فإن الشهداء أعلى درجة من أهل الصلاح .

وقوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالذِينَ اتَّبعُوهُم بِإحسانٍ ﴾[4] ففي الآية تفضيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على الذين اتبعوهم بإحسان في الأفعال والأقوال ـ من الأمة إلى يوم القيامة .

وتتقدم الكلمة لتقدمها في الزمن أو العمل كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ التَّورَاةَ والإنجِيلَ * مِن قَبلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الفُرقانَ ﴾[5] فالتوراة قبل الإنجيل والإنجيل قبل الفرقان في التريب الزمني .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٩ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٥٩ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٦٩ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ١٠٠ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية ٣ ـ ٤ .

وللترقي من العدد القليل إلى الكثير كما في قوله سبحانه : « فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ »[1] .

إلى غير ذلك من الاعتبارات المناسبة والإشارات المقصودة ، ولا يخفى عليك ما بين المعطوف والمعطوف عليه من المناسبة .

مواضع وصل الجمل أو عطف الجمل

تعطف الجملة على الجملة التي قبلها في ثلاث حالات :

١ - إذا كانت الجملة الأولى لها محل من الإعراب ، وأريد إعطاء هذا الحكم الإعرابي للجملة التالية ، وكان بينهما مناسبة ، وليس هناك ما يمنع من العطف ، بيان ذلك :

تقول الآية الكريمة: « مَن ذَا الذي يُقرِضُ اللهَ قَرضاً حَسَناً فيضاعِفَهُ لَه أَضعَافاً كثيرةً وَاللهُ يَقبِضُ وَيَبْسُطُ وَإليهِ تُرجَعونَ »[2] والمعنى : إقراض الله : مثل لتقديم العمل الذي يطلب به ثوابه - والقرض الحسن : إما المجاهدة بنفسها ، وإما النفقة في سبيل الله « أضعافاً كثيرة » كثيرة لا يعلم كنهها إلا الله ، « والله يقبض ويبسط » يوسع على عباده ، ويقتّر ، فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم ، فالله جل وعلا يضيق الرزق على من يشاء امتحاناً ليصبر ، ويوسعه على من يشاء امتحاناً ، هل يشكر ؟ وإلى الله المرجع فيجازيكم على ما قدمتم ، ففي الآية الكريمة جملتان هما : « يقبض » و« يبسط » الأولى منهما لها موضع من الإعراب ، لأنها خبر للمبتدأ قبلها ، والآية تريد إشراك الجملة الثانية لها في هذا الحكم الإعرابي ، وبين الجملتين تناسب ، إذ

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ص٢٤٥ .

المسند إليه في كل منهما واحد ، وهو الله عز وجل ، والمسند فيهما « يقبض ، ويبسط » متناسبان ، لأنهما ضدان ، فبين الجملتين جهة جامعة ، وليس فيهما ـ كما نرى ـ ما يمنع من العطف ومن ثَمَّ وجب عطف الثانية على الأولى ـ بالواو .

وسر بلاغة الوصل في هذا الموطن أن الآية الكريمة تصور عظمة القادر ، وأنه بيده الأمر ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا جمعت له الآية الكريمة بين القبض والبسط ، ولو ترك العاطف ، فقيل في غير القرآن الكريم مثلاً : « الله يقبض يبسط » من غير ـ واو عطف ـ كان قولك : « يبسط » رجوعاً عن قولك : « يقبض » وأبطالاً له .

فواضح أنه إذا كان المبتدأ أو المخبر عنه في الجملتين واحداً كقولنا : « هو يقول ويفعل ، ويضر وينفع ، ويسيء ويحسن ،ويأمر وينهي ، ويحل ويعقد ،ويأخذ ويعطي ، ويبيع ويشتري ، ويأكل ويشرب ، وأشباه ذلك ، ازداد معنى الجمع في ـ الواو ـ قوة وظهوراً ، لأن هذه الأساليب غالباً تستعمل على هذا الوجه وبخاصة في مقام المدح . وعلى ذلك إذا قلت : « هو يضر وينفع » كنت قد أفدت ـ بالواو ـ أنك أوجبت له الفعلين جميعاً وجعلته يفعلهما معاً ، وإذا قلت :« يضر ينفع » من غير ـ واو ـ لم يجب ذلك ، بل قد يجوز أن يكون قولك : « ينفع » رجوعاً عن قولك : « يضر » وإبطالاً له[1] ، ويزداد الجمع بلاغة وقوة إذا كان المتكلم يريد بهذا الأسلوب المدح ، لأنه لو قال : « هو يضر » فقط لم يكن مدحاً بل ذماً ، وكذلك لو قال : « هو ينفع » يشوب هذا المدح شائبة عدم التمييز بين من يستحق النفع ، ومن لا يستحق لكن الجمع بين الفعلين يفيد أن هذا الرجل حكيم : ينفع من يستحق النفع ، ويضر من يستحق الضرر فغرض المدح يؤكد الجمع بين الفعلين ويقويه .

---

(١) أنظر دلائل الإعجاز ص ٢٤٨ .

وهكذا في جميع الأمثلة التي مرت بك .

وقال المعري :

وحب العيش أعبد كل حر   وعلم ساغباً اكل المرار

الساغب : الجائع . والمرار : شجر مر .

يقول أبو العلاء : إن حب الحياة حباً شديداً ، والجري وراء متاع الدنيا ، يجعل الحر عبداً ، ويضطر الإنسان إلى احتمال الأذى ، ففي البيت جملتان هما : « أعبد كل حر » و« علم ساغباً أكل المرار » ، نجد للأولى : « أعبد كل حر » موضعاً من الإعراب ، لأنها خبر للمبتدأ قبلها « حب العيش » وأن المعري أراد أن يجمع للمسند إليه الصفتين : « جعل الحر عبداً ، واضطرار الإنسان إلى احتمال الأذى » فأشرك الجملة الثانية للأولى في الإعراب ، وبين الجملتين جهة جامعة ، إذ أن المسند إليه في كل منهما واحد ، وغرض الشاعر لا يتحقق إلا بالجمع بينهما . ومن ثم وجب العطف .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصرَكُم وَلَا أَنفسَهُم يَنصُرُونَ ﴾[1] . ففي الآية الكريمة : جملتان هما « لا يستطيعون نصركم » و« ولا أنفسهم ينصرون » نجد للأولى منها موضعاً من الإعراب . لأنها وقعت خبراً عن الاسم الموصول ، ونجد أن جملة « ولا أنفسهم ينصرون » تشارك الجملة الأولى في حكمها الإعرابي ، إذ المقصود من القول الكريم : الإخبار عن المبتدأ فيه « والذين تدعون من دونه » بأمرين : أولهما : أنهم لا يستطيعون نصر من يعبدونهم ، والثاني : أنهم لا يملكون نصر أنفسهم أيضاً ، فوصل بين الجملتين .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٧ .

ويقول أبو الطيب :

وللسر مني موضع لا ينالـه　　نـديم ولا يفضي إليـه شـراب

النديم : الجليس على الشراب ، ويفضي : ينتهي .

والمعنى : أنه كتوم للسر يضعه في مكان أمين ، حيث لا يمكن لأحد أن يطلع عليه ، حتى ولو كان نديماً ، ولا يستطيع أيضاً أن يكشف عنه الشراب ولو كان كثيراً .

ففي البيت جملتان : « لا يناله نديم » « ولا يفضي إليه شراب » ، للأولى منهما موضع من الأعراب ، لأنها صفة للنكرة قبلها ، وأنه أريد إشراك الثانية لها في هذاالحكم ، وأيضاً نجد أن غرض الشاعر لا يتحقق إلا بعطف الجملة الثانية على الأولى قضاء لحق المبالغة في حفظ السر ، ولذلك عطفت الجملة الثانية على الأولى ـ كما ترى .

وتقول : عهدي بعلي يكتب ويشعر » فجملة « يكتب » لها محل من الأعراب ، لأنها وقعت حالاً ، وأريد من الثانية « ويشعر » أن تشاركها في هذا الحكم الإعرابي وبينهما جهة جامعة ، وهي إتحادهما في المسند إليه ، وتحقيق غرض القائل الذي يريد أن يجمع « لعلي » الكتابة والشعر ، وأنه يفعلهما جميعاً .

وتقول : « ألم تعلم أني أحترمك وأكرمك » ، فجملة « أني أحترمك » لها محل من الإعراب ، لأنها وقعت مفعولاً ، وعطفت الجملة الثانية « وأكرمك » عليها ، لأنها شاركتها في هذا الحكم الإعرابي ، وبينهما جهة جامعة ، لأن المتكلم يريد أن يخبره بالجمع بين الصفتين .

ومثل ذلك قولك : « العجب من أني أحسنت وأسأت » و« يكفيك ما قلت وسمعت » ، و« أيحسن أن تنهى عن شيء وتأتي مثله » ، وذلك أنه لا يشتبه على عاقل أن المعنى : على جعل الفعلين في حكم فعل واحد .

ومن البين في ذلك قول الشاعر :

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم ... وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

والمعنى : لا تطمعوا أن تروا إكرامنا قد وجد مع إهانتكم ، وكفنا الأذى عنكم قد تحقق مع أذيتكم لنا . ولعلك تحس ترابط هذه الجمل ترابطاً قوياً بحيث لو نزعت جملة لاختل المعنى وضاع غرض الشاعر :

ومما له مأخذ لطيف في هذا الباب قول أبي تمام :

لهان علينا أن نقول وتفعلا ... ونذكر بعض الفضل منك وتفضلا[1]

فأبو تمام يمدح محمد بن عبد الملك الزيات بالكرم . والمعنى : مدح من أبي تمام ، كرم من الممدوح ، ذكر لبعض الفضل من أبي تمام ، زيادة في الفضل للمدوح ، فأي جملة تستطيع أن تنزعها أو تقطعها من هذا البيت . إنك إن فعلت نقص المعنى وضاع غرض الشاعر .

فواضح مما سبق ـ أن الجملة الأولى إذا كان لها محل من الإعراب ، بأن كانت واقعة موقع المفرد من خبر أو حال أو وصف أو مفعول أو غيرها ، وقصد تشريك الثانية لها في هذا الحكم الإعرابي ، وكانت بينهما جهة جامعة وجب الوصل .

فإذا لم يكن بين الجملتين جهة جامعة وجب الفصل ، ولهذا عيب على أبي تمام قوله من قصيدة يمدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم :

زعمت هواك عفا الغداة كما عفا ... عنها طلال باللوى ورسوم

لا والذي هو عالم أن النوى ... صبر وأن أبا الحسين كريم

ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت ... نفسي على إلف سواك تحوم

والشاهد في البيت الثاني .

(١) راجع دلائل الإعجاز ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

النوى : الفراق . والصبر بكسر الباء هو الدواء المر وهو المراد هنا ، وحينئذ فالكلام من باب التشبيه بحذف الكاف ، أي : أن فراق الأحبة كالصبر في المرارة .

وإنما عيب عليه سواء كان العطف من قبيل عطف المفرد ، أي : عطف أبي الحسين على الصبر ، أو الجملة ، أي : عطف جملة : « وأن أباالحسين كريم « على جملة : « وأن النوى صبر » ، لأن وجود الجامع شرط في قبول العطف في الصورتين ، وهما : عطف المفرد أو عطف الجملة .

وقد انتصر بعض الناس لأبي تمام ، فقال الجامع خيالي ، لتفاوتهما في خيال أبي تمام ، أو وهمي ، وهو ما بينهما من شبه التضاد ، لأن مرارة النوى كالضد لحلاوة الكرم ، لأن كرم أبي الحسين حلو ، ويدفع بسببه ألم احتياج السائل ، والصبر مر ، ويدفع به بعض الآلام ، أو التناسب ، لأن كلا دواء ، فالصبر دواء العليل ، والكرم دواء الفقير ، وكل هذه تكلفات باردة ، إذ المعتبر المناسبة الظاهرة القريبة .

والمعنى في الأبيات الثلاثة : زعمت الحبيبة أن هواك يا أبا تمام قد اندرس كما اندرست آثار ديارها التي باللوى - فقلت لها ليس الأمر كذلك ، وأقسم بالله الذي هو عالم بأن الفراق صعب ومر المذاق ، وأن أبا الحسين الممدوح كريم ، ما بعدت عن طريق المحبة ، ولا صارت نفسي تلتفت إلى غيرك[1] .

٢ - التوسط بين الكمالين مع عدم المانع من العطف

وتعطف الجملة على الجملة ، إذا كانت الجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب ، واتفقت مع الثانية خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى ، أو اتفقتا في

---

(١) أنظر حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ص ١١ ، ح ٣ طبع الحلبي .

المعنى ، وإن اختلفا في اللفظ . وكانت بينهما مناسبة تامة ، ولم يكن هناك سبب يقتضي الفصل بينهما ، وهذا الموضع يسميه البلاغيون « التوسط بين الكمالين» بيان ذلك : تأمل قول الله عز وجل : ﴿ يُخرِجُ الحَيَّ مِن المَيِّتِ وَيُخرِجُ المَيِّتَ مِن الحَيِّ وَيُحيِي الأَرضَ بَعدَ مَوتِها وَكَذٰلِكَ تُخرَجُونَ ﴾[1] .

فقد وصل بين جملتي : « يخرج الميت من الحي » و« يخرج الحي من الميت » ، والجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب ـ فما السبب الذي من أجله وصل الجملة الثانية بالأولى ؟ لقد كنا في موضع الوصل الأول الذي عرضناه عليك ، نعتمد في الوصل بين الجملتين أو الجمل على الاشتراك في الحكم الإعرابي وإن كان بين الجملتين أكثر من سبب يصحح العطف بينهما ، ويظهر أن البلاغيين يعتمدون في تحرير القواعد على أسباب معلومة ، فمثلاً ـ في الموضع الأول للوصل اعتمدوا على الاشتراك في الحكم الإعرابي .

ولكن على أي سبب يعتمدون عليه في الموضع الثاني ، وهو المعروف عندهم « بالتوسط بين الكمالين » ؟ : إنهم يعتمدون على نوع الأسلوب ، أخبري هو أم إنشائي ؟ ، أبين الجملتين اتفاق في اللفظ والمعنى أم اختلاف بينهما ؟ فيقولون في الآية التي معنا : إن الجملة الأولى وهي : (يخرج الميت من الحي) ليس لها محل من الإعراب لأنها ابتدائية وخبرية لفظاً ومعنى ، وكذلك الثانية . إذن بين الجملتين نوع صلة ، فلذلك وجب الوصل بينهما ، وفي الواقع أن غرض الآية الكريمة أن تجمع بين الجملتين ، لأنها بسبيل تصوير قدرة الله في أسمى معانيها ، ولا يتحقق ذلك إلا بالجمع ، فكما أن قدرة الله قادرة على إخراج الميت من الحي ، قادرة أيضاً على إخراج الحي من الميت ، وفيها أيضاً تناسب في المضارعة بين الجملتين ، وبينهما جهة جامعة .

---

(١) سورة الروم ، الآية ١٩ .

فالبلاغيون إذا كانوا يجعلون السبب الرئيسي للوصل في هذا الموطن هو : الاتفاق في الخبرية أو الإنشائية ـ فهناك مظاهر وصلات أخرى ، تظهر بالتأمل .

نتلو قول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الأَبرارَ لَفي نَعيمٍ * وَإِنَّ الفُجّارَ لَفي جَحيمٍ ﴾[1] فقد عطفت الجملة الثانية على الأولى التي ليس لها محل من الإعراب ، لأنها ابتدائية والجملتين قد اتفقتا في الخبرية لفظاً ومعنى ، وبينهما مناسبة بتقابل الأجزاء ، وهما اسميتان ، وليس بينهما ما يمنع من العطف ، لذا وجب العطف بينهما ، ولا يخفى عليك أن التقابل بين الجملتين يعطيك صورتين متضادين توضح كل منهما الأخرى وتؤكد معناها في النفس .

ويقول الشاعر :

يشمِّر للج عن ساقه ويغمره الموج في الساحل

اللج : معظم الماء ، والبيت يضرب لمن تحدثه أطماعه بإدراك المطالب العظيمة ، وهو يعجز عن المطالب اليسيرة .

فالجملتان : « يشمر للج عن ساقه » و« يغمره الموج في الساحل » متحدتان خبراً لفظاً ومعنى ، وبينهما مناسبة إذ أن الشاعر يريد أن يقارن بين حالين بطريق التصوير والتمثيل ، والحالين ـ كما علمت من البيت ـ هما صورة من يحاول ويستعد لإدراك المطالب العظيمة ، وصورته أيضاً وهو لا يستطيع أن يدرك المطالب اليسيرة ، فلولا العطف لم تتحقق هذه المقارنة ، ويتأكد المعنى في ذهن السامع .

ويقول الله جل وعلا : ﴿ وَكُلوا وَاشرَبوا وَلا تُسرِفوا ﴾[2] ، ففي الآية

---

(1) سورة الانفطار ، الآية ١٣ ، ١٤ .

(2) سورة الاعراف ، الآية ٣١ .

ثلاث جمل متفقة في الإنشائية لفظاً ومعنى ، وبينها تناسب لتقارنها في الخيال « الأكل والشرب وعدم الإسراف » والمسند إليه متحد وهم : « المخاطبون » وليس هناك ما يمنع من العطف .

ويقول سبحانه : ﴿ وَاعبُدوا الله وَلاَ تُشرِكُوا بِهِ شَيئاً ﴾[1] فقد عطفت الآية جملة « لا تشركوا » على جملة « اعبدوا » ، والجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب وبينهما اتفاق في الإنشاء لفظاً ومعنى ، ومناسبة بين الطرفين ، فالمسند إليه متحد فيهما وهم : المخاطبون ، والمسند في كل منهما من الأمور الواجب على الإنسان أن يؤديها نحو ربه ، وليس فيهما ما يمنع من العطف .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ يَا أَيُّها النَاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم وَاخشَوا يَوماً لاَ يَجزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ ﴾[2] عطفت جملة : « واخشوا » على جملة : « اتقوا » ، والجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب ، وبين الجملتين اتفاق في الإنشائية لفظاً ومعنى ، ومناسبة بين الطرفين إذ المسند إليه في كل منهما متحد ، والمسند في كل من الجملتين من الأمور الواجب على الإنسان آداؤها ، وليس هناك ما يمنع من العطف .

ويقول سبحانه : ﴿ إِنِّي أُشهِدُ الله وَاشهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشرِكُونَ ﴾[3] في الآية الكريمة جملتان هما : (أشهد الله ، واشهدوا) الجملة الأولى منهما : « أشهد الله » خبرية لفظاً ومعنى ، والثانية : « واشهدوا » إنشائية لفظاً خبرية معنى ، إذا المراد : إني أشهد الله . وأشهدكم ، فتكون الثانية إنشائية لفظاً خبرية معنى ، وبذلك اتفقت الثانية مع الأولى في الخبرية معنى . ومن ثم وجب الوصل بينهما ـ كما ترى ـ لوجود الجامع ، وليس هناك ما يمنع من العطف .

---

(١) سورة النساء ،الآية ٣٦ .

(٢) سورة لقمان ، الآية ٣٣ .

(٣) سورة هود ، الآية ٥٤ .

وقد تتفق الجملتان في الإنشائية معنى . وتختلفان في الخبرية لفظاً ، ونجد الثانية معطوفة على الأولى لوجود المناسبة بينهما ، وليس هناك ما يمنع من العطف ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[1] ففي الآية جملتان : « لا تعبدون ، وبالوالدين إحساناً التي هي في تقدير : وأحسنوا بالوالدين إحساناً » نلاحظ أن الجملة الأولى منهما خبرية لفظاً إنشائية معنى ، لأنها تعني « النهي » ، أي لا تعبدوا ، والجملة الثانية : « وأحسنوا » إنشائية لفظاً ومعنى ، بالتأمل نجد الجملتين قد اتفقتا في الإنشائية معنى ، وإن اختلفتا في اللفظ ، إذ كانت الأولى خبرية لفظاً والثانية إنشائية لفظاً .

وهذه الحالات التي عرضناها عليك يسميها البلاغيون : « التوسط بين الكمالين » مع عدم وجود المانع من العطف ، وهو أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشاء ، وتوجد بينهما مناسبة وارتباط ، وليس هناك من سبب يمنع الوصل بينهما . وكانت الأولى منهما ليس لها محل من الإعراب . وبالنظر لما عرضناه عليك يتضح أن « التوسط بين الكمالين » ثلاث صور :

الأولى : أن تتفق الجملتان في اللفظ والمعنى خبراً .

الثانية : أن تتفق الجملتان في اللفظ والمعنى إنشاء .

الثالثة : أن تتفق الجملتان في المعنى ، وإن اختلفتا في اللفظ .

والمراد « بالتوسط بين الكمالين » توسطه بين كمال الانقطاع وكمال الاتصال . وسيأتي الحديث عنهما .

٣ ـ كمال الإنقطاع مع إيهام خلاف المقصود

الموضع الثالث من مواضع الوصل بين الجمل ، إذا كانت الجملة الأولى

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٨٣ .

ليس لها محل من الإعراب ، واختلفت مع الثانية خبراً وإنشاء ، الأمر الذي يوجب الفصل بين الجملتين ، ـ كما سنعلم ـ ولكن الفصل يتعارض مع غرض المتكلم، ويوهم خلاف المقصود . ويطلق البلاغيون على هذا الموضع : « كمال الانقطاع مع الإيهام » بيان ذلك :

نقول : « لا ، وبارك الله فيك » : نجيب بذلك من قال لك :

هل لك حاجة أساعدك في قضائها ؟

في هذه العبارة جملتان : الأولى منهما خبرية ، قامت كلمة « لا » مقامها إذ التقدير : « لا حاجة لي » ، والجملة الثانية : « وبارك الله فيك » إنشائية في المعنى ، أريد بها الدعاء ، وإن كانت خبرية في لفظها ، فليس بين الجملتين إتفاق في المعنى . ولذا ترى البلاغيين يقولون : إن بين الجملتين كمال الانقطاع ، الأمر الذي يوجب الفصل بينهما ، فلا نذكر ـ الواو ـ ، وتكون العبارة « لا بارك الله فيك » ، وهذا الفصل ـ كما ترى ـ يفسد المعنى ، إذ يظن السامع ـ حينئذ ـ أنك تدعو عليه في حين أنك تقصد الدعاء له ، ولذلك وجب العدول عن الفصل إلى الوصل ، وتسمى هذه الصورة « بكمال الانقطاع مع إيهام خلاف المقصود » .

ومثله قولك :« لا ولطف الله به » ، تجيب بذلك من قال : « هل شفى أخوك من علته » ؟ ففي هذا المثال يجب الوصل كما مر في المثال الأول .

وقولك : « لا ويرحمك الله » ، تجيب بذلك من قال : « أذهبت الحمى عن المريض ؟ » ومثله : « لا وكفيت شرها » ، ومثله : « لا وشكر الله لك ، وهذا الأسلوب كما ترى شائع بيننا ونلاحظ فساداً يقع من الناس فيه .

هذا . . وبلاغة الوصل تتحقق في إرادة الجمع بين الجمل أو إضافة صفة أو أمر إلى المسند إليه .

ولا ريب في أن الوصل إذا وقع موقعه يجعل الأسلوب مترابطاً يتصل بعضه ببعض ، وهذا مما يجعل الموضوع وحدة واحدة مترابطة وليست مفككة الأوصال .

والخلاصة : أن الوصل بين الجملتين يكون في ثلاثة مواضع :

الأول : إذا كانت الجملة الأولى لها محل من الإعراب بأن كانت واقعة موقع المفرد من حال ، أو وصف ، أو خبر ، أو مفعول ، أو غيرها ، وقصد إشراك الثانية لها في الحكم الإعرابي ، وليس هناك ما يمنع من العطف مع وجود المناسبة بين الجملتين ، وهذا الموضع يسميه البلاغيون : « العطف للاشتراك في الحكم ما لم يمنع مانع من العطف » .

الثانية : إذا كانت الجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب ، واتفقت مع الثانية خبراً أو إنشاء لفظاً ومعنى ، أو اتفقتا في المعنى ، وإن اختلفتا في اللفظ ، وكانت بينهما مناسبة تامة ، ولم يكن هناك ما يمنع من الوصل بينهما ، وهذا الموضع يسميه البلاغيون « التوسط بين الكمالين » .

الثالث : إذا كانت الجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب ، واختلفت مع الثانية خبراً وإنشاء ، وأوهم الفصل خلاف المقصود ، ويطلق البلاغيون على هذا الموضع « كمال الانقطاع مع الإيهام » .

الجامع بين الجملتين

تقدم أن الجامع بين الجملتين هو المعتمد في إعتبار الوصل ، ولذا تراهم يعرفون الجامع بقولهم : هو الوصف الذي يقتضي الجمع بين الجملتين بحيث يكون مقرباً لهما .

والجامع بين الجملتين : يجب أن يكون باعتبار المسند إليه في الجملة الأولى ، والمسند إليه في الجملة الثانية ، أو باعتبار المسند في الجملة الأولى

والمسند في الجملة الثانية ، أو باعتبار متعلقاتهما إذا كانت مقصودة بالذات من الجملتين ، وإليك بعض الأمثلة التي توضح هذا الكلام .

تقول : « « يشعر زيد ويكتب » ، فتجد جملة : « يكتب » معطوفة على جملة : « يشعر زيد » فما الجامع بين الجملتين الذي أوجب العطف بينهما ؟ ، والجواب : أن المسند إليه متحد في كل منهما ، وهو : « زيد » ، وأما المسند في كل منهما وهو : « الشعر والكتابة » بينهما مناسبة ظاهرة ، وأيضاً تقارنهما في خيال أصحابهما .

وتقول أيضاً : « زيد يعطي ويمنع » فالمسند إليه متحد فيهما ، وكل من المنع والإعطاء يضاد أحدهما الآخر ، هذا عند اتحاد المسند إليه في الجملتين .

وتقول : « زيد شاعر وعمرو كاتب » و« زيد طويل وعمرو قصير » فنجد أن المسند إليه في كل من الجملتين مختلف ، في هذه الحال لا بد من المناسبة بين « زيد وعمرو » وهذه المناسبة تتحقق إذا كان بينهما عداوة أو صداقة أو أخوة أو نحو ذلك ، وكذلك نلاحظ وجود التضاد بين « شاعر ، وكاتب » وبين (طويل وقصير) فبين المسندين جامع من جهة الوهم .

وتأمل قول الشاعر :

بأشدهم كلباً على أعدائهم وأعزهم فقداً على الأصحاب

تجد أن الشطر الثاني معطوف على الشطر الأولى وبينهما أكثر من مناسبة ونلاحظ أن « على أعدائهم » جار ومجرور ، وكذلك « على الأصحاب » جار ومجرور ، وهما من متعلقات الجملتين ، ولكنهما مقصودان بالذات لأن المعنى في البيت مرتبط بهما ، ولذا دخلا في الجامع بين الجملتين ومعنى البيت : أنه قتل الذي أقواهم شدة على الأعداء ، ويعز فقده على الأصحاب .

فواضح مما تقدم أنه إذا اتحد المسند إليه في الجملتين فلا بد من المناسبة بين المسند أو المتعلقات إذا كانت مقصودة ، وكذلك إذا اتحد المسند فيهما أو كان مناسباً للآخر ، فلا بد من المناسبة بين المسند إليه فيهما .

وعلى ذلك : إذا قلنا : « زيد كاتب وعمرو شاعر » بدون المناسبة ، بين زيد وعمرو ، فإنه لا يصح ، وإن اتحد المسندان ، ولهذا حكموا بامتناع نحو « خفي ضيق وخاتمي ضيق » لعدم المناسبة بين الخف والخاتم مع أن المسند متحد فيهما .

وإذا قلنا : « زيد شاعر وعمرو طويل » يمتنع سواء كان بين زيد وعمرو مناسبة أم لم يكن ، لعدم تناسب الشعر وطول القامة .

وذكر السكاكي : أنه يجب أن يكون بين الجملتين ما يجمعهما عند القوة المفكرة جمعاً من جهة العقل ، وهو الجامع العقلي ، أو من جهة الوهم وهو الجامع الوهمي ، أو من جهة الخيال ، وهو الجامع الخيالي .

والمراد بالعقل : القوة العاقلة التي تدرك الكليات والجزئيات المجردة عن عوارض المادة المعروضة للصور والأبعاد ، كالطول والعرض والعمق ، لأنها مجردة ، ولا يقوم بها إلا المجرد .

والمراد بالوهم . القوة الوهمية التي تدرك معاني الجزئيات الموجودة في المحسوسات بشرط أن تكون تلك المدركات الجزئية لا تتأدى إلى مدركها من طرق الحواس ، وذلك كإدراك صداقة زيد وعداوة بكر ، وكإدراك الشاة إيذاء الذئب ـ مثلاً ـ .

وأما الحس المشترك : وهو الذي تتأدى إليه الصور المحسوسة الجزئية من الحواس الظاهرة ، وتحكم بين تلك الصور المتأدية إليها كالحكم بأن هذا

الأصفر هو نفس هذا الحلو ـ مثلاً ـ ويعنون بالصور المدركة : بهذه القوة ما يمكن إدراكه بالحواس الظاهرة ولو كان مسموعاً، كصورة زيد المدركة بالبصر، وكرائحة هذا الشيء المدركة بالشم ، وكحسن هذا الصوت ، أو قبحه المدرك بالسمع، وحلاوة هذا العسل المدركة بالذوق ، ونعومة هذا الحرير المدركة باللمس ويعنون بالمعاني الجزئية المدركة بالوهم ما لا يمكن إدراكه بالحواس الظاهرة كالرغبة والعداوة والإيذاء .

وأما المفكرة : فهي قوة تتصرف في الصور الخيالية ، وفي الثاني الجزئية الوهمية، ومن شأنها التفصيل والتركيب بين الصور المأخوذة عن الحس المدرك والمعاني المدركة بالوهم بعضها عن بعض ، وهي لا تكون يقظة ولا مناماً[1]، وعلى ضوء ما ذكر قسم الخطيب القزويني : الجامع بين الجملتين .

أقسام الجامع
ينقسم الجامع بين الجملتين إلى ثلاثة أقسام
عقلي ، ووهمي ، وخيالي

الجامع العقلي : هو علاقة تجمع بين الشيئين في القوة المفكرة جمعاً . يكون من جهة العقل ، بأن تكون العلاقة أمراً حقيقياً ، أي : في الواقع ونفس الأمر .

وذلك الجامع العقلي يحصل بأن يكون بين الجملتين اتحاد في التصور : أي عند تصور العقل لهما ، وذلك إذا كان الثاني هو الأول ، نحو « زيد كاتب » و« هو شاعر » ،ولا يضر اختلاف الجامع فإنه في المسند إليه « عقلي » وفي المسندين « خيالي » وهو تقارن الشعر والكتابة .

---

(١) راجع شروح التلخيص ج ٣ ص ٨٠، ٨١، ٨٢.

ويحصل الجامع العقلي أيضاً بين الجملتين بأن يكون بينهما « تماثل » : وذلك بأن يتفقا في الحقيقة ، ويختلفا في العوارض ، فمثال ما إذا كان بينهما تماثل في المسند إليه ، كأن يقال : « زيد كاتب ، وعمرو شاعر » فبين زيد وعمرو تماثل في الحقيقة الإنسانية ، فكأنه قيل : « الإنسان كاتب والإنسان شاعر » ، ومثال التماثل في المسند نحو . « زيد أب لبكر ، وعمرو أب لخالد » ، فأبوة زيد ، وأبوة عمرو حقيقتهما واحدة ، وإن اختلفا بالشخص ، فإذا جردتا عن المشخصة صارتا شيئاً واحداً .

وكتماثل المسند في قول الشاعر :

فيبكي إن ناءوا شوقاً إليهم ويبكي إن دنوا خوف الفراق

ويحصل الجامع العقلي أيضاً بين الجملتين بأن يكون بينهما « تضايف » في ركن من أركانهما : وحقيقة التضايف بين شيئين : أن يكون تعقل كل منهما متوقفاً على تعقل الآخر ، كأن يقال : « أبو زيد يكتب وابنه يشعر » ، فالجامع بين الأب والابن المسند إليهما ـ عقلي ، وهو : التضايف ، وكذا يقال في : « أبوك زيد وابنك عمرو » وإن اختلفا من جهة أن الجامع بين المسندين في المثال الأول خيالي ، وفي المثال الثاني عقلي هو التماثل .

وإذا تأملنا نجد أن تصور أي ركن لازم لتصور الآخر ، وحينئذ فحصول كل واحد منهما في المفكرة يستلزم حصول الآخر ضرورة ، وهذا معنى الجمع بينهما .

وكما بين المبادرة إلى الفرصة والنهوض في قول الشاعر :

بادر إلى الفرصة وانهض لما تريد فيها فهي لا تلبث

وكالتضايف الذي بين مفهوم العلة ومفهوم المعلول ، وهو كون الشيء مسبباً عن ذلك الشيء ، كأن يقال حركة الخاتم موجودة وحركة الإصبع موجودة . أو حركة الإصبع علة وحركة الخاتم معلولة .

وكالتضايف الذي بين مفهومي الأقل والأكثر ، كأن يقال : « هذا العدد الأقل لزيد وذلك العدد الأكبر لصاحبه » و« الأربعة أقل من الخمسة ، والخمسة أكثر منها » ، أو هذه الأربعة لزيد والخمسة لعمرو .

وإنما كان الأقل والأكثر من المتضايفين ، لأن كلاً منهما لا يفهم إلا باعتبار الآخر ، فيصور كل منهما مستلزم لتصور الآخر ، فمتى جعل أحدهما في المفكرة حصل الآخر فيها .

وسمى جمع الاتحاد ، والتماثل ، والتضايف ، عقلياً ، لأن العقل يدرك الأمور على حقائقها ، ويثبتها على مقتضاها ، والجمع بهذه محقق في نفس الأمر لا يبطله التأمل فنسب للعقل بخلاف الجمع بالأمر الوهمي .

والجامع الوهمي : هو علاقة تجمع بين الشيئين في القوة المفكرة جمعاً يكون من جهة الوهم بأن تكون العلاقة أمراً إعتبارياً غير محسوس بإحدى الحواس الخمسة الظاهرة ! وبسبب هذا الأمر يحتال الوهم ، وبه يروج في إجتماع الأمرين اللذين حاول الجمع بينهما ، وإذا خلى العقل ونفسه ، ونظر فيه لم يجمع بينهما به وذلك أن العقل إنما يدرك الأمور على حقائقها ، ويثبتها على مقتضياتها ، بخلاف الوهم ، فإن شأنه إدراك الأمور على حقيقتها ويثبتها على خلاف مقتضاها .

وذلك الجامع الوهي يحصل بأن يكون بين تصورهما شبه تماثل : « كلون بياض ولون صفرة » ، وإنما كان هذا جامعاً ، لأن الوهم يبرزهما في معرض المثلين لتقاربهما ، فيتوهم أنهما مثلان كما تقول : صفرة الذهب تسر ، وبياض الفضة ينفع ، ولذلك حسن الجمع بين الثلاثة في قول محمد ابن وهيب يمدح المعتصم :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

فهـذه الثلاثـة (شمس الضحى وأبو إسحـاق والقمر) عنـد النظر والتـأمل متباينة .

فالشمس كوكب نهاري مضيء لذاته ، والقمر كوكب ليلي مطموس لذاتـه يستمد نوره من نور الشمس . وأبو إسحـاق إنسان عم عـدله وإحسـانه جميع العالمين في زعم الشاعر ، بحيث صار عموم عدله وإحسانه شبيهاً بعموم نور الشمس في التوصل إلى الأغراض ، إلا أنه يسبق إلى الوهم تماثل هذه الثلاثة في الإشراق وأنها نوع واحد ، وإنما تمايزت بالعوارض ، أما التـوهم فيما بين الشمس والقمر فواضـح وأما فيما بينهما وبين أبي إسحـاق فلكثرة تشبيـه عموم العـدل والإحسـان بنـور الشمس حتى صـار بحيث يتـوهم فـي معـرض المتماثلات ، ولذا عطف بعضها على بعض ، وهذا المثال وإن كان من عطف المفردات إلا أنه يصح الاستشهاد به لأنه يشترط الجامع فيها أيضـاً ـ والجامـع الوهمي موجود فيها[1] .

ومنه قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في الخلق مطمع ... فـذو التاج والسقاء والذر واحـد

فالوهم هو الذي حسن الجمع بين الملك والسقاء وصغار النمل لاشتراكها في عـدم التوقـع منهم ، والاستغناء عنهم مـع كونهـا متبـاعـدة متبـاينـة غـايـة التباين[2] .

ويحصل الجامع الوهمي بين الجملتين أيضاً إذا كان بين تصـور الجملتين تضاد . وهو التقـابل بين أمـرين وجوديين يتعـاقبان على أمـر واحد ، كـالسواد والبياض في المحسوسات ، وكالإيمان والكفر في المعقولات .

---

(١) راجع شروح التلخيص ح ٣ ص ٨٢ ـ ٩٦ .

(٢) حاشية الدسوقي ح ٢ ص ٩٥ .

والإيمان تصديق النبي ﷺ بكل ما علم مجيئه به بالضرورة كالوحداينة والبعث والرسالة والكفر على هذا جحد شيء من ذلك ، فيكون أمراً وجودياً كالتصديق ، وأما إن فسر الكفر بعدم التصديق بشيء من ذلك ، فالتقابل بينهما تقابل العدم والملكة كما لا يخفى [1] . تقول : « ذهب الكفر وجاء الإيمان » و« الإيمان حسن » .

« والكفر قبيح » ، والسواد لون قبيح والبياض لون حسن ، ومنه : الهمس والجهارة ، والطيب والنتن ، والحلاوة والحموضة والملامسة والخشونة وكالتحرك والسكون ، والقيام والقعود والذهاب والمجيء ، والإقرار والإنكار ، ومنه أيضاً الذوات المتصفة بهذه المتقابلات ، فيقال : الأسود ذهب والأبيض جاء ، والمؤمن حضر ، والكافر غاب ، وكذلك سوداء وبيضاء ومؤمنة وكافرة وتقول : الطائع جاء والعاصي ذهب ، لوجود الجامع الوهمي في كل ذلك .

ويحصل الجامع الوهمي أيضاً إذا كان بين المقصورين في الجملتين : شبه تضاد ، وذلك بألا يكون أحدهما ضد الآخر ، ولا موصوفاً بضد ما وصف به الآخر ، ولكن يشتمل ويستلزم كل منهما معنى ينافي ما يستلزمه ويشتمل عليه الآخر وهو قسمان : ما يكون في المحسوسات ، كالسماء والأرض ، وما يكون في المحسوسات والمعقولات كالأول والثاني .

فيقال : « السماء مرفوعة لنا والأرض موضوعة لنا » و« الأول سابق والثاني لاحق » فالجامع بين المسند إليهما وهمي لتحققه بشبه التضاد بينهما .

وإنما كان المتضاد وشبهه جامعاً وهمياً ، لأن الوهم ينزلهما منزلة التضايف عند العقل ، بمعنى أن العقل لما كان لا يخطر عنده أحد المتضايفين إلا خطر الآخر ، وبذلك ارتباط جمعهما عند المفكرة ، فكذلك

---

(١) مواهب الفتاح ص ٩٧ .

العقل هنا لا يخطره أحد المتضادين أو الشبيهين بهما إلا ويحضر الآخر ، ولذلك نجد الضد أقرب خطوراً بالبال مع الضد الآخر كالسواد والبياض ـ مثلاً ـ[1] .

ومن الوصل للجامع الوهمي قوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ مِنكُم مَن أَسَرَّ القَولَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَن هُوَ مُستَخْفٍ بِالليلِ وسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعقِّبَاتٌ مِن بَينِ يَدَيهِ وَمِن خَلْفِهِ﴾[2] .

وقول الشاعر :

أيقظان في بغضائنا وهجائنا وأنت عن المعروف والبر نائم

الهمزة من « أيقظان » للانكار والتوبيخ ـ يقول : ما ينبغي لك أن تكون يقظان في هجونا وبغضائنا ، ونائماً عن الخير والبر والإحسان .

الجامع الخيالي : هو علاقة تجمع بين الشيئين في القوة المفكرة ، جميعاً من جهة الخيال ، بأن تكون العلاقة أمراً اعتبارياً محسوساً بإحدى الحواس الخمسة الظاهرة .

ويحصل الجامع الخيالي بأن يكون بينهما تقارن في خيال المخاطب عند التذكر والإحضار هذا التقارن سابقاً على العطف ليكون مصححاً له ، أما لو كان التقارن حاصلاً بالعطف فلا يكفي .

وأسباب التقارن في الخيال مختلفة ، ولذلك اختلفت الصور الثابتة في الخيالات من حيث الاجتماع وعدمه أو الوضوح وعدم الوضوح .

فكم صورة تتعانق في خيال ، وهي في آخر لا تتراءى ، وكم صورة لا تكاد تلوح في خيال ، وهي في غيره نار على علم .

---

(١) راجع مواهب الفتاح ص ١٠٠ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١٠ ـ ١١ .

والأديب ابن بيئته يترجم ما حوله ، ويتأثر به ، وتكون الأشياء القريبة منه أشد التصاقاً بباله ، فإذا كانت صنعته الكتابة فإنها تقتضي مخالطته لآلاتها من قلم ودواة ومداد وقرطاس ، فتقترن صور الأشياء المذكورة بخياله ، فيصح أن يعطف بعضها على بعض ، فيقول : القلم عندي والدواة عندك .

وإذا تعلقت همته بصنعة الصياغة أوجب ذلك له مخالطة آلاتها وأمورها من سبائك الذهب والفضة ، فتقترن صور المذكورات بخياله فيصح أن يعطف بعضها على بعض[1] .

والأدب العربي حافل بتأثير البيئة على الأديب فمثلاً يقول البارودي في رثاء زوجه :

يا دهر فيم فجعتني بحليلة كانت خلاصة عدتي وعتادي

فهو متأثر بوظيفته في الجيش فيذكر العدة والعتاد ويصفهما لتقارن صورهم في خياله .

وكما يحكى أن صاحب سلاح ملك ، وصائغاً ، وصاحب بقر ، ومعلم صبية سافروا ذات يوم ، وواصلوا سير النهار بسير الليل ، فبينما هم في وحشة الظلام ومقاساة خوف التخبط والضلال طلع عليهم البدر بنوره ، فأفاض كل منهم في الثناء عليه وشبهه بأفضل ما في خزانة صوره ، فشبهه السلاحي بالترس المذهب يرفع عند الملك ، والصائغ بالسبيكة من الإبريز تفتر عن وجهها البوتقة والبقار بالجبن الأبيض يخرج من قالبه طرياً ، والمعلم برغيف أحمر يصل إليه من بيت ذي مروءة .

وكما يحكى عن وراق يصف حاله : عيشي أضيق من محبرة وجسمي أدق من مسطرة ، وجاهي أرق من الزجاج ، وحظي أخفى من شق القلم ،

---

(١) أنظر حاشية الدسوقي ص ١٠٢ .

وبدني أضعف من قصبة ، وطعامي أمر من العفص ، وشرابي أشد سواداً من الحبر ، وسوء الحال لي ألزم من الصمغ .

فكل هذه الجمل التي وردت وجب عطفها على بعضها لوجود الجامع الخيالي الحادث من تقارن صور هذه المسميات في ذهن المخاطب ، لكثرة وقوعها أمامه وملازمته لها ليل نهار .

فالأديب يأخذ من محيطه ومن واديه ، وعلى القارىء أو السامع أو الناقد أن يدرس بيئة الشاعر والناثر وحياتهما الاجتماعية حتى يكون كل منهم على صلة تامة بعملهما فيستطيع فهمهما والتأثير بهما ، وبهذا تحدث الصلة القوية بين المنشىء والمتلقي .

محسنات الوصل

الوصل بين الجملتين له محسنات من شأنها أن تورثه حسناً ، وتزيده جمالاً .

منها : أن يكون بين الجملتين تناسب في الاسمية ، مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾[1] .

وأن يكون بين الفعليتين تناسب في المضي ، كقول البوصيري يمدح الرسول ﷺ :

فحزت كل فخار غير مشترك   وجزت كل مقام غير مزدحم
وجل مقدار ما وليت من رتب   وعز إدراك ما أوليت من نعم

أو تناسب في المضارعة ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ

---

(١) سورة الانفطار ، الآية ١٣ ، ١٤ .

المُلكِ تُؤتِي المُلكَ مَن تَشاءُ وَتَنزِعُ المُلكَ مِمَّن تَشاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشـاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشاءُ ﴾[1] .

أو تناسب في الأمرية ، كما في قوله تعالى : (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) ، إلى غير ذلك من الأمور التي تؤدي إلى التناسب بين الجملتين ، مثل مراعاة نوع المسند بين الاسميتين من كونه مفرداً أو جملة أو ظرفاً :

ولا يحسن العدول عن هذا التناسب إلا لغرض .

كإفادة التجدد في إحداهما والثبوت في الأخرى كما في قوله تعالى : ﴿ إنَّ المُنافِقِينَ يُخادِعونَ اللهَ وَهُو خادِعُهُم ﴾[2] ، توضح الآية بعض قبائح المنافقين وفضائحهم ، فهم يفعلون فعل المخادع من إظهار الإيمان ، وإبطان الكفر ، ومعنى كون الله خادعهم : أنه صنع بهم صنع من يخادع من خادعه ، وذلك أنه تركهم على ما هم عليه من التظهر بالإسلام في الدنيا ، فعصم به أموالهم ودماءهم ، وأخر عقوبتهم إلى الدار الآخرة ، فجازاهم على خداعهم بالدرك الأسفل من النار ، وجاء « يخادعون » ليفيد بأن خداع المنافقين حادث متجدد وجاءت جملة : « وهو خادعهم » لتفيد بأن فعل الله بهم ثابت ودائم في جميع الأحوال ، وذلك لزيادة التنكيل بهم .

تأمل جمال الوصل في قوله تعالى : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وانْهَ عَنِ المُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلىٰ مَا أَصابَكَ إنَّ ذٰلِكَ مِن عَزمِ الأُمُورِ * وَلاَ تُصعِّرْ خَدَّكَ لِلناسِ وَلاَ تَمشِ فِي الأَرضِ مَرَحاً إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُختَالٍ فَخُورٍ * وَاقصِدْ فِي مَشيِكَ وَاغضُضْ مِن صَوتِكَ إنَّ أنكَرَ الأَصْواتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ ﴾[3] . فإنك سوف ترى الجمل المعطوفة متحدة في الإنشائية ،

---

(1) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ .

(2) سورة النساء ، الآية ١٤٢ .

(3) سورة لقمان الآيات ١٧ ـ ١٩ .

والمناسبة بين العبارات في الآيات واضحة قوية ، وذلك إذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فالمقيم لها جدير بأن يأخذ على عاتقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن من يعرض نفسه لذلك جدير أن يلم به بعض الأذى ، فوصى من ينهض بهذا العبء أن يحتمل ويصبر ، وإذا كان قد أمره بالصلاة ، وهي خضوع للرب فجدير به ألا يمتلىء بالتيه والخيلاء ، وأن يسير في تؤدة ، ويتحدث - إن تحدث - في وداعة وهدوء ، ومن ذلك تتضح لنا هذه الصلات القوية التي تربط بين هذه الجمل ربطاً محكماً .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إذا أَنتُم قَليلٌ مُستَضعَفُونَ في الأَرضِ تَخافونَ أن يَتَخَطَّفَكُم النَّاسُ فَآواكُم وأَيَّدَكُم بِنصرِهِ وَرَزَقَكُم مِن الطَّيِّباتِ لَعلَّكُم تَشكُرونَ ﴾[1] ، نجد أن في هذه النعم رابطاً يصل بعضها ببعض ، ويسمح للواو أن تجمع بينها ، فهؤلاء قوم كانوا مستضعفين في الأرض يخشون أن يغير عليهم مغير ، يسلبهم الحرية ، فكانت نعمة الأمن لها المكان الأول بين نعم الله عليهم ، ولم يقف الأمر عند حد الأمن بل رزقهم خفض العيش وطيبات الحياة .

ثم تأمل قوله تعالى : ﴿ أَفَلا يَنظُرونَ إلَى الإِبلِ كَيفَ خُلِقَتْ * وَإلَى السَّماءِ كَيفَ رُفِعَتْ * وَإلَى الجِبالِ كيفَ نُصِبَت * وَإلَى الأَرضِ كَيفَ سُطِحَتْ ﴾[2] فالمطلوب في الآية التأمل فيما خلق الله ، ليصلوا بهذا التأمل إلى الإيمان بالبعث الذي ينبني عليه أساس الدين ، والتناسب هنا بين الجمل واضح ، فقد بدأ حديثه بالإبل التي هي عنصر أساسي في حياة البدوي في صحرائه ، إذ أن العرب أكثر تعويلهم في معظم تصرفاتهم على المواشي في المطاعم والملابس والمشارب ، والمراكب ، وأعمها نفعاً هي الإبل ، لأن

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٦ .

(٢) سورة الغاشية الآية ١٧ - ٢٠ .

أكثر المنافع هذه لا تصلح إلا فيها على العموم ، مع ما اختصت به من الخلق العظيم والإحكام العجيب ، فمن أجل ذلك صدرت الآيات بالنظر فيها : وترى الآية انتقلت من الإبل إلى ما يرونه أمامهم في كل حين من سماء رفعت بلا عمد وللسماء عند البدوي مكانة خاصة يتجه إليها ببصره ، يستنزل منها الغيث ، ويهتدي بنجومها في سراه بالليل ، فإذا هبط ببصره قليلاً رأى هذه الجبال الشامخة منصوبة تناطح السماء بقممها ، وترسو في ثبات واطمئنان على أرض مهدت ، وسطحت أمامه . أفلا ترى أن تنقل البصر بين هذه المخلوقات تنقلاً هادئاً طبيعياً لا قفز فيه ، وأن ارتباط بعضها ببعض في طبيعة البدوي مهد للربط بينها وعطف بعضها على بعض . وهكذا القرآن كله إذا تأملت في جمله وآياته ستجد نظاماً دقيقاً وتنسيقاً عجيباً[1] .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾[2] فانظر إلى عجائب هذه الآية ولطافة معناها في تقديم بعضها على بعض ، فلما كانت الآية مسوقة من أجل تزيين المشتهيات في أفئدة بني آدم واستيلائها عليها قدم ما هو الأدخل في ذلك ، فصدرها بذكر النساء ، تنبهاً على مكانتهن ، ثم عقبه بذكر « البنين » لما كانوا مما يلي النساء في الرقة والرحمة والشفقة والحنو ، ثم أردف ذلك بالأموال الذهبية والفضية ، لما يحصل فيها من اللذة والسرور والاطمئنان وانشراح الصدور بها والاستطالة والقوة ، كما يحصل بالأبناء ، لكن الأولاد أدخل فرحاً ، وأشد محبة ، وأكثر بهم رحمة ورأفة ، وقوله « القناطير المقنطرة » مبالغة في وصفها ، ثم عقب ذلك بذكر الخيل ، لما يحصل بها من الجمال والهيئة الحسنة والقوة

---

(١) أنظر من بلاغة القرآن للمرحوم د. أحمد بدوي ص ١٧٤ وما بعدها وكذلك الطراز للعلوي ح ٣ ص ٣١١ وما بعدها .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٤ .

والاستطالة على الأعداء بالقهر ، وأردفها بذكر الأنعام لما يحصل بها من المنافع ، وهي دون منافع الخيل وأتبعها بذكر الحرث وختم هذه المنافع بذكره ، لأن كل واحد من هذه الأشياء على مرتبة في السبق على قدر حالها في الجمال والمنفعة ، وقد أشار الله تعالى إلى ترتيبها كما سردها ، تنبيهاً على أن ما تقدم منها فهو أحق من غيره . ولا تزال في تصفحك لآي التنزيل . واستهلال أسراره تطلع على فوائد جمة ، ونكت غزيرة[1] .

مواضع الفصل

يجب ترك العاطف بين الجملتين أو الجمل في المواضع الآتية :

١ ـ الفصل لعدم الاشتراك في الحكم الإعرابي

من الأسباب التي توجب العطف بين الجملتين أو الجمل أن تكون الجملة مشتركة مع الجمل الأولى في الحكم الاعرابي ما لم يمنع من ذلك مانع .

أمَّا إذا منع من ذلك مانع وجب ترك ـ الواو ـ أي : وجب الفصل بيان ذلك :

تقول[2] الآية الكريمة : حكايةً لحال المنافقين ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِم قَالُوا إِنَّا مَعَكُم إِنَّمَا نَحنُ مُستَهزِئُون * اللهُ يَستَهزِىءُ بِهِم ﴾[3] إذا

---

(١) أنظر الطراز للعلوي ح ٣ ص ٣١٣ ـ ٣١٦ .

(٢) ومعنى الآية : وإذا أفضى المنافقون إلى شياطينهم في خلوة عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (قالوا) لشياطينهم (إنا معكم) بقلوبنا في عداوة المسلمين بالثبات على الكفر (إنما نحن مستهزئون) بالمسلمين فيما نظهر لهم من المدارة قال تعالى : (الله يستهزىء بهم) بمجازاتهم باللعن والطرد عن الرحمة في مقابلة استهزائهم بالمؤمنين ودين الإسلام .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٤ ، ١٥ .

تأملنا هذه الآية نجد جملة : (إنا معكم) لها محل من الإعراب ، لأنها جزء المقول ، مفعول (قالوا) وبينها وبين جملة (الله يستهزىء بهم) تتناسب وصلة قوية تصحح العطف لكن يمنع من العطف مانع ، وهو : أنه لم يقصد تشريك جملة : (الله يستهزىء بهم) لجملة (إنا معكم) في حكمها الإعرابي ، لأننا لو قصدنا تشريك جملة: (الله يستهزىء بهم) لجملة (إنا معكم) في الحكم الإعرابي ، ومن ثَمَّ يجوز العطف ، لكانت جملة : (الله يستهزىء بهم) من كلام المنافقين ، مع أنها من كلام الله سبحانه وتعالى ، وفساد ذلك واضح ، ومن ثَمَّ كان الفصل بينهما كما نرى ومثله قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم لَا تُفسِدوا فِي الأَرضِ قَالوا إِنَّما نَحنُ مُصلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُم هُم المُفسِدونَ وَلَكِن لَا يَشعُرونَ ﴾[1] في هذه الآية أيضاً ، جملتان : الأولى منهما (إنما نحن مصلحون) لها محل من الإعراب ، لأنها جزء المقول ـ ، وبينها وبين جملة : (ألا إنهم هم المفسدون) صلة قوية تصحح العطف ، لكن يمنع منه مانع ، لأن جملة : (إنما نحن مصلحون) من كلام المنافقين ، وجملة : (ألا إنهم هم المفسدون) من كلام الله سبحانه وتعالى ، ولذلك فصل بينهما كما ترى .

ولو قصد تشريك الجملة الثانية للجملة الأولى في حكمها الإعرابي ، فعطفت عليها لكانت من مقول المنافقين وفساد ذلك واضح . كما ترى .

وعليه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمِنوا كَما آمَنَ النَّاسُ قَالوا أَنُؤمِن كَما آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُم هُم السُّفهَاءُ وَلَكِن لَا يَعلَمُونَ ﴾[2] فقد فصل بين جملة : أنؤمن كما آمن السفهاء) وهي مفعول « لقالوا » وجملة : « ألا إنهم هم السفهاء » ، لأن الجملة الثانية ليست من قول المنافقين ، بل هي من قول الله

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١١ ، ١٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٣ .

سبحانه ، ولو وصل بين الجملتين لتغير المسمى ، وكانت من مقول المنافقين ، وفساد ذلك واضح ، ومن ثَمَّ فصل بينهما كما نرى .

فواضح مما سبق أنه إذا كان الموضع الأول للوصل بين الجمل هو أن يكون للجملة الأولى محل من الإعراب ، ويقصد تشريك الجملة الثانية الأولى في هذا الحكم الإعرابي ، وكانت بين الجمل مناسبة تامة وليس هناك ما يمنع من العطف وجب العطف .

والموضع الأول للفصل بين الجمل أو ترك العطف وهو : أن يكون للجملة الأولى محل من الإعراب ، ولا يقصد تشريك الجملة الثانية للجملة الأولى في الحكم الإعرابي ، لأنه لو قصد التشريك لوجد المانع من العطف ، لذلك وجب ترك العطف ، وهذا الموضع يسميه البلاغيون : « الفصل » لعدم الاشتراك في الحكم الإعرابي :

٢ ـ التوسط بين الكمالين مع وجود المانع من العطف وهو عدم الاشتراك في الحكم

من الأسباب الموجبة للوصل أن يكون بين الجملتين إتفاق في الخبرية أو الإنشائية لفظاً أو معنى فقط مع وجود المناسبة التامة ، وعدم المانع من العطف ـ لكن إذا وجد المانع من العطف ، وجب ترك العطف ، وبناء على هذا يكون :

الموضع الثاني للفصل أو ترك العاطف هو : أن تكون الجملة الأولى لا محل لها من الإعراب لكن بينها وبين الجملة الثانية اتفاق في الخبرية أو الإنشائية لفظاً ومعنى أو معنى فقط ، وكان هناك مانع من العطف بأن يكون للجملة الأولى « قيد » لم يقصد إعطاؤه للجملة الثانية ، بيان ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وإذا خلو إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ﴾ ، تأمل هذه المرة في جملة : (قالوا) وجملة :

(الله يستهزىء بهم) تجد أن الجملتين قد فصل بينهما ، فما السبب ؟ السبب أن جملة : (قالوا) مقيدة بوقت خلوهم إلى شياطينهم ، أي : أنهم يقولون : « إنما نحن مستهزئون وقت خلوهم إلى شياطينهم .

أما جملة : « الله يستهزىء بهم » - التي وليتها - فغير مقيدة بهذا القيد ، ولذلك فصل بينهما ، ولو ذكرت الواو - فوصل بينهما لشاركت الجملة الثانية الأولى في حكمها وقيدها ، وأصبح المعنى حينئذ : أن استهزاء الله بهم مقيد بوقت خلوهم إلى شياطينهم ، مع أن المعلوم أن استهزاء الله بهم دائم في كل حال فهو من ثم وجب الفصل . وهذا الموضع يسميه البلاغيون (التوسط بين الكمالين مع وجود المانع من العطف : وهو عدم الاشتراك في القيد .

٣ - كمال الاتصال

عرفنا فيما سبق أن من الأسباب التي توجب وصل الجمل بعضها ببعض أن تكون الجملة الأولى ليس لها محل من الإعراب ، ولكنها متفقة مع الجملة التي تليها في الخبرية أو الإنشائية لفظاً ومعنى أو معنى فحسب مع وجود المناسبة ولم يكن هنا ما يمنع من العطف ، في هذه الحالة تأتي الواو ، وتصل بين الجمل .

لكن أحياناً نجد الجملتين أو الجمل بعد اتفاقها في الخبرية لفظاً ومعنى أو معنى فقط ، قد اتحدت الجملة الثانية بالأولى اتحاداً تاماً ، واتصلت بها اتصالاً وثيقاً بحيث تكون بمعناها أو جزءاً منها ، في هذه الحالة تكون الصلة قد أصبحت قوية بين الجملتين أو الجمل بحيث لا تحتاج إلى رابط خارجي يربطهما ، ومن ثم يجب ترك - واو - العطف لما بينهما من ربط معنوي ، ولعدم صحة عطف الشيء على نفسه ، ولا عطف الجزء على كله ، لأن العطف يقتضي المغايرة ، ولذلك لا نقول : في هذا الموضع فصلنا ، ولكن

نقول : تركنا العاطف لقوة اتصال الجملة الثانية بالأولى ، وهذا الموطن يسميه البلاغيون :

كمال الاتصال : ويكون في ثلاث صور :

الصورة الأولى : أن تكون الجملة الثانية بمعنى الجملة الأولى ، ومؤكدة لها وذلك التأكيد إما لفظياً أو معنوياً .

فاللفظي : يتحقق إذا اتفقت الجملتان في المعنى سواء اختلف اللفظ أم اتحد فمثال الجمل أو الجملتين اللتين اتفقتا في المعنى واختلفتا في اللفظ ، قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] فإن جملة : « هدى للمتقين » معناها : أن القرآن الكريم بالغ في الهداية درجة لا يدرك كنهها حتى كأنه هداية محضة ، وذلك مأخوذ من تنكير « هدى » الذي يدل على التعظيم ، لذلك لم يقل « هاد » ، وهدى على هذا خبر مبتدأ محذوف تقديره « هو » ، وجملة : « ذلك الكتاب » معناها : أن القرآن الكريم بلغ الدرجة القصوى من الكمال في الهداية ، وهذا المعنى مأخوذ من جعل المبتدأ « ذلك » إشارة إلى بعد المنزلة وتعريف الخبر بالألف واللام يقتضي « القصر » أي : هذا الكتاب هو الكامل لا غيره ، والمراد بكماله كماله في الهداية ، لأن الكتب السماوية بقصر الهداية واعتبارها تتفاوت في درجات الكمال .

فالمعنى بين جملة « ذلك الكتاب » وجملة « هدى للمتقين » تتحد ، وإن اختلف اللفظ فيهما ، ومن ثَمَّ ترك العطف ـ بالواو ـ كما نرى لأنه لا يجوز عطف الشيء على نفسه ، ولأن العطف يقتضي المغايرة ولا مغايرة هنا بين الجملتين .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢ .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذِينَ كَفَروا سَواءٌ عَلَيهِم أَأَنذَرتَهُم أَمْ لَم تُنذِرهُم لاَ يُؤمِنونَ * خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلوبِهِمْ وَعَلىٰ سَمعِهِمْ وَعَلىٰ أَبصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾[1] ففي النظم القرآني الكريم ثلاث جمل : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » أي : يستوي الإنذار وعدمه (ولا يؤمنون) وهي تأكيد للآية الأولى لأنهما متحدان في المعنى ، وجملة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة[1] تأكيد ثان أبلغ من الأول لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان في غاية الجهل ، وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة ، ولذلك ترك العاطف بين هذه الجمل الثلاث لما بينهما ، من كمال الاتصال .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِاليَومِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمؤمِنينَ يُخَادِعونَ اللهَ وَالذِينَ آمَنُوا ﴾[2] فالجملة الثانية « يخادعون الله والذين آمنوا) لا تختلف من حيث المعنى عن جملة (آمنا) ، وذلك لأنهم حينما قالوا : (آمنا) قالوها وهم غير مؤمنين ، والذي يقول خلاف ما يضمر ، فإنه يخادع فلا فرق من حيث المعنى بين الجملتين « آمنا » و« يخادعون » ومن ثم ترك العطف بالواو - كما نرى ، لأن اتحاد الجملتين اتحاداً تاماً يمنع عطف الشيء على نفسه ، ويوجب ترك واو العطف .

وقد يتحدان في المعنى واللفظ كما في قوله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الكَافِرينَ أَمهِلْهُمْ رُويداً ﴾[3] فيلاحظ أن جملة : « فمهل الكافرين » وجملة : « أمهلهم رويدا » قد اتحدتا في المعنى واللفظ كما نرى - فلا حاجة إلى وصلهما - بالواو - وقوة الرابطة بينهما من ناحية اللفظ والمعنى ، هي التي أغنت عن

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٦ ، ٧.

(٢) سورة البقرة ، الآية ٨ - ٩ .

(٣) سورة الطارق ، الآية ١٧ .

ـ واو ـ العطف ، وتجاوزوا بقول فصل بينهما ، إذ تركت الواو : لكن في الحقيقة أن الجملتين ربطا ربطاً وثيقاً محكماً من ناحية إتحادهما في اللفظ والمعنى ، ومن ثمَّ تركت ـ الواو ـ إذ لا حاجة لها الآن .

ويقول المتنبي :[1]

وما الدهر إلا من رواه قلائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فالشطر الثاني لم يعطف على الشطر الأول ، لأنهما قد اتحدا في المعنى واللفظ كما ترى ـ فلا حاجة إلى وصلهما ـ بالواو ـ لقوة الرابطة بينهما .

أما التأكيد المعنوي : فيتحقق إذا اختلف مفهوم الجملتين ، واتحدا في تقرير المعنى المراد ، لأن معنى الأولى يستلزم معنى الثانية ، بيان ذلك : تقول الآية الكريمة : ﴿ آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ ففي القول الكريم جملتان أولهما : « ذلك الكتاب » ومعناها ـ كما سبق ـ أنه الكتاب الذي بلغ الدرجة القصوى في الكمال . وثانيتهما : « لا ريب فيه » ومعناها : أنه لا يتطرق إليه شك ولا ريب ، فالمعنيان مختلفان ، لكنهما متلازمان ، فإنه يلزم من بلوغ القرآن درجة الكمال ألا يكون محلاً للريب ، فجاءت جملة : « لا ريب فيه » مقررة لهذا المعنى ، دافعة لتوهم السامع التجوز أو الغلط في الأولى ، إذ يظن أن وصف القرآن الكريم بهذا الوصف قد بولغ فيه ، وحيث أن الجملة الثانية دفعت توهُّم التجوز أو الغلط ، فتكون قد أشبهت التوكيد المعنوي في مثل قولنا : جاء الخليفة نفسه .

وكما لا يجوز عطف « نفسه » على « الخليفة » ، ففي هذا المثال لا يجوز عطف جملة : « لا ريب فيه » على جملة « ذلك الكتاب » ، والعلة في ذلك أن التوكيد والمؤكد كالشيء الواحد ، ولا يجوز عطف الشيء على نفسه .

---

(١) ديوان المتنبي ص ٢٩٠ ح ١ نشر دار المعرفة بيروت .

فالجملتان مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً فلا حاجة إلى الربط « بواو » العطف . وواضح أن بلاغة هذا التعبير تكمن في تأكيد المعنى المراد في ذهن السامع وتقلع منه جذور الشك في مضمون الجملتين .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتلىٰ عَلَيهِ آياتُنا وَلّىٰ مُستَكبِراً كَأنْ لَم يَسمَعْهَا كَأنَّ فِي أُذُنيهِ وَقْراً ﴾[1] ففي الآية الكريمة جملتان : « كأن لم يسمعها » و « كأن في أذنيه وقراً » ، ومعنى الجملة الأولى : أنه لم يسمعها مصادفة أو قصداً لعدم سماعها ومعنى الجملة الثانية أنه لم يسمعها لفساد سمعه فالمعنى في الجملة الثانية ـ كما هو واضح ـ مقرر لما أفادته الجملة الأولى ، وإن اختلفتا في المعنى ، فبين الجملتين « كمال الاتصال » ومن ثَمَّ ترك العطف ـ بالوا ـ .

الصورة الثانية : وتتحقق إذا كانت الجملة الثانية بياناً للجملة الأولى ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَوَسوَسَ إلَيهِ الشَّيطَانُ قَالَ يا آدَمُ هَل أَدُلُّكَ عَلىٰ شَجَرَةِ الخُلدِ وَمُلكٍ لَا يَبلىٰ ﴾[2] ، فأنت ترى أنه فصل جملة : (قال يا آدم) عن جملة : (فوسوس إليه الشيطان) ، لأن جملة : (فوسوس إليه الشيطان) فيها خفاء وإبهام وإجمال فجاءت جملة (قال يا آدم) مفسرة وموضحة لهذا الإجمال ، فكانت منها بمنزلة عطف البيان . في إفادة الإيضاح . وعطف البيان لا يعطف على متبوعه ، فكذلك لم تعطف الجملة الثانية على الأولى ، لأن قوة الاتصال بينهما أغنت عن الربط ـ بواو العطف ـ ولعلك تلاحظ أن بلاغة هذه الصورة تأتي من جهة الإبهام والتوضيح ، فإذا ذكر الإبهام كانت النفس متشوقة لتفسيره وتوضيحه ، فإذا نالت ما تريد ، اطمأنت وارتاحت وكذلك في هذه الصورة تأكيد للمعنى في نفس السامع يذكره مرتين مرة على

---

(١) سورة لقمان ، الآية ٧.

(٢) سورة طه ، الآية ١٢٠ .

سبيل الإجمال ومرة على سبيل التوضيح .

وقال أبو العلاء :

النـاس للنـاس من بـدو وحـاضـرة بعض لبعض وإن لم يشعـروا خدم

والمعنى : أن الناس لا بد لهم من التعاون ، فلا يتهيأ لإنسان أن يستقل في هذه الحياة بشئون نفسه ، فأنت ترى أن الجملة الثانية : « بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم » ما جاءت إلا لإيضاح الجملة الأولى : « الناس للناس من بدو وحاضرة فهي بيان لها ، ولذلك ترك عطفهما ـ بواو ـ العطف ، لأن الشيء لا يعطف على نفسه :

الصورة الثالثة : وتتحقق إذا كانت الجملة الأولى غير وافية بالمراد ، وفي الجملة الثانية وفاء به حسب ما يتطلبه المقام ـ فتكون الثانية بدلاً من الأولى .

وهو إما بدل اشتمال : كما في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمُ اتَّبِعوا الْمُرسَلِينَ * اتَّبِعوا من لاَ يسأَلُكُم أجراً وهُم مُهتَدونَ** ﴾[1] لم تعطف جملة : « اتبعوا من لا يسألكم أجراً » على جملة : « اتبعوا المرسلين » ، لأن الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى ، وأوفى بتأدية المراد ، فإن المراد بالقول الكريم هو : حمل المخاطبين على اتباع الرسل ، وقوله تعالى : ﴿**اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون**﴾ أوفى بتأدية ذلك ، لأن معناه : لا تخسرون مع أتباع الرسل شيئاً من دنياكم ، وتربحون صحة دينكم ، فينتظم لكم خير الدنيا وخير الآخرة ، فتجد أنه ترك عطف الجملتين ـ بالواو ـ لقوة الصلة بينهما لأن الجملة الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى .

ومنه قول الشاعر :

أقول لـه : ارحل لا تقيمن عندنـا وإلا فكن في السر والجهر مسلما

---

(١) سورة يس ، الآية ٢٠ ، ٢١ .

فإن المراد به كمال إظهار الكراهة لإقامته بسبب خلاف سره المعلن ، وقوله : لا تقيمن عندنا » أو في تأدية المراد لدلالته عليه بالمطابقة مع التأكيد لانك إذا قلت لآخر : « لا تقم عندي » لم تقصد كفه عن الإقامة فحسب ، وإنما تقصد إظهار الكراهة لإقامته .

أمَّا « ارحل » فإنها تدل على المراد بالإلتزام ، لأن طلب الإرتحال يقتضي عرفاً محبته ، ومحبة الارتحال تقتضي كراهه ضده وهي الإقامة .

وإمَّا بدل بعض : كما في قوله تعالى : ﴿ أَمَدَّكُم بِمَا تعلَمونَ * أَمَدَّكُم بِأنعَامٍ وَبَنينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيونٍ ﴾[1] : القول الكريم مسوق لغرض التنبيه على نعم الله عند المخاطبين وجملة : « أمدكم بما تعلمون » مؤدية لهذا الغرض ، بما فيه من عموم ، وما فيه من الإلزام حيث تركهم إلى علمهم ، وجملة : « أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون » أوفى بتأدية المعنى المراد من الجملة الأولى ، إذ أن الثانية تدل على المعنى بالتفصيل من غير إحالة على علمهم مع كونهم معاندين ، والإمداد بما ذكر من الأنعام وغيرها ، بعض الإمداد بما تعلمون ، ومن ثَمَّ لم تعطف الجملة الثانية على الأولى بالواو ولقوة الربط بينهما فلا حاجة إلى الربط بواو ـ العطف .

ومثله قوله تعالى :﴿ يُدَبِّرُ الأمرَ يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُم بِلقاءِ رَبِّكُم تُوقِنونَ ﴾[2] لم تعطف جملة : « يفصل الآيات » على جملة : (يدبر الأمر) ، لأن تفصيل الآيات بعض من تدبير الأمر ، فهي بدل بعض منها ، ومن ثَمَّ ترك العطف ـ بالواو ـ بين الجملتين لقوة الربط بينهما ، لأن الثانية بمنزلة بدل البعض من الأولى ، والتابع لا يعطف على متبوعه .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٣٢ ، ١٣٤ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ٢ .

٤ ـ شبه كمال الإتصال

وأحياناً نجد الجملة الثانية قوية الصلة الأولى ، ونبحث عن السبب فنجده غير ما سبق ـ ونتأمل فنجد : أن الجملة الثانية وقعت جواباً عن سؤال اقتضته الجملة الأولى أو فهم من الجملة الأولى بمعونة القرائن وسياق الأحوال .

ويقول البلاغيون حينئذ : إن بين الجملتين شبه كمال الاتصال ـ ومن ثَمَّ يجب ترك ـ واو العطف ـ أي : لا تعطف الجملة الثانية على الأولى ، لامتناع عطف الجواب على السؤال بيان ذلك :

تقول الآية الكريمة : ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾[1] ففي القول الكريم جملتان : الجملة الأولى : (إنه ليس من أهلك) والثانية : (إنه عمل غير صالح) ونلاحظ أن الجملة لم تعطف على الأولى ، فما السبب ؟ السبب أن الجملة الأولى : (إنه ليس من أهلك) أثارت سؤالاً بما تضمنته من حكم غريب ، كيف لا يكون من أهلي ، وهو ابني من صلبي ؟ ألِأنَّه لم يؤمن ، أم لسبب آخر ؟ فكان الجواب عن ذلك : إنَّ أهلك هم المؤمنون الذين صلح عملهم ، وهذا ليس منهم : (إنه عمل غير صالح) فالجملة الثانية جواب عن سؤال اقتضته الأولى فهي مرتبطة بالأولى ارتباطاً وثيقاً كما يرتبط الجواب بالسؤال ، ومن ثَمَّ تُرِكَ العطف بينهما ـ بالواو ـ ، لأن الجواب لا يعطف على السؤال ، ولقوة الرابطة بينهما تراها أغنت عن الربط بواو العطف .

ومنه قول الشاعر :

يرى البخيل سبيل المال واحدة ... إن الكريم يرى ما له سُبُلا

ففي البيت جملتان : « يرى البخيل . . » و« إن الكريم . . . » والشاعر لم

---

(١) سورة هود الآية ٤٦ .

يـربط بينهما ، وذلـك لأن الجملة الثانية جـواب عن سؤال نشأ من الأولى ، فكأن الشاعر بعد أن نطق بالشطر الأول توهم أنَّ سائلاً سأله ، وما رأي الكريم في ماله ؟ فأجاب : « إن الكريم يرى ما له سبلا » فأنت ترى أن الجملة الثانية لم يربط الشاعر بينها وبين الأولى ـ بالواو ـ ولا سبب لترك الواو إلا قوة الرابطة بين الجملتين ، فـإن الجواب شـديد الارتبـاط والاتصال بـالسؤال ، فـأشبهت الحـال هنا من بعض الـوجوه حـال « كمال الاتصـال » التي تقدمت ، ولـذلك يقال : إنَّ بين الجملتين « شبه كمال الاتصال » .

ومثله قول أبي تمام :

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملاً   إن السماء تـرجى حين تحتجب

فالشـاعر لم يـربط الجملتين : « وليس الحجاب . . » ، و« إن السماء . . » بالواو لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

فكأن أبا تمام بعد أن نطق بالشـطر الأول تَوَهَّم أن سـائلاً سـأله ، كيف لا يحول حجاب الأمير بينك وبين تحقيق آمالك ؟ فـأجاب : « إن السمـاء تُرجَّى حين تحتجب .

وسـر بلاغـة ترك الـواو العطف في هـذا المـوضـع هـو : بث الـروح في الأسلوب الأدبي ، وجعله حياً نابضاً موحياً ، فالقارىء أو السامع تجده يتفـاعل مع الأديب ، ويستبطن المعنى ، ويفهم معاني أخرى غيـر الظاهـرة التي تطفـو على السـطح ، ويفهم أن هـذه الجملة تـوحي بسؤال ، وأن الجملة الثـانيـة جواب عن هذا السؤال ، وفي ذلك إيجاز في الكـلام بتقديـر جملة السؤال ، وإغناء القارىء أو السامع عن السؤال . .

وهـذا الأسلوب شائـع في اللغة العـربية لنـظامها البـديـع ، الـذي يقضي بالمناسبة بين عباراتها ، وتقديم ما يقدم وتأخير ما يؤخر بمقتضى قـوانين ثابتة تدل على رقيها وحيوتها ، وقد أشرنا إلى بعض هذه المقاييس وذلك النظام في بدء الحديث عن ظاهرة الوصل والفصل في اللغة .

هذا . . ويسمى ترك ـ الواو ـ بين الجملتين استئنافاً ، والجملة الثانية تسمى استئنافاً .

والبلاغيون يقولون : إن الاستئناف يجيء على ثلاثة أضرب :

أن يكون السؤال المقدر الذي تضمنته الجملة الأولى عن سبب عام للحكم كقول الشاعر :

قال لي : كيف أنت قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

فجملة : « أنا عليل » اقتضت سؤالاً عن سبب عام للحكم الذي دلت عليه . فكأنه قال : « ما بالك عليلاً » أو ما سبب علتك ؟ بقرينة العرف والعادة ، لأنه إذا قيل : « فلان مريض » ، فإنما يسأل عن مرضه وسببه ، لا أن يقال : هل سبب علته كذا وكذا ، لا سيما السهر والحزن ؟ حتى يكون السؤال عن السبب الخاص .

وعليه قول أبي العلاء :

وقد غرضت من الدنيا فهل زمني معط حياتي لغر ما غرضا
جربت دهري وأهليه فما تركت لي التجارب في وُدِّ امرىء غرضا

غرضت : ضجرت . الغر : الغافل ، وقوله : « ما غرضا » أي : لم يضجر الحياة بعد كما ضجرت ، وأن تجربته للناس لم تترك له غرضا . أي حاجة في وُدِّهم ، وجعلته يسأم الحياة معهم .

فترى الشاعر قد فصل جملة : « جربت دهري . . . » عن جملة : « وقد غرضت . . لأن الجملة الثانية وقعت جواباً عن سؤال اقتضته الاولى وهو : لم تقول : هذا ويحك ؟ فأجاب « جربت دهري . . » وهذا السؤال عن سبب عام للحكم .

٢ ـ أن يكون السؤال عن سبب خاص للحكم كقوله تعالى : ﴿ وَمَا

.أُبَرِّىءُ نَفسِي إنَّ النفسَ لأمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾[1] كـأنـه قيـل : هـل النفس أمـارة بالسوء ؟ فقيل إن النفس لأمارة ، فالسؤال عن سبب خاص هـو : (أنها أمـارة بالسوء).

٣ ـ أن يكـون السؤال عن غيـر السبب العـام والخـاص ، ويكـون على نوعين :

(أ) عام كما في قوله : ﴿ قَـالُوا سَـلاماً قَـالَ سَلاَمٌ ﴾[2] : فـإن جملة : « قالوا سلاماً » اقتضت سؤالاً هـو : ماذا قـال إبراهيم عليـه السلام ، فقيـل : قال سلام : وواضح من السؤال انه عن شيء عام غير سبب .

(ب) خاص كقول الشاعر :

زعـم الـعـواذل أنـنـي فـي غـمـرة   صـدقـوا ولكن غمـرتي لا تنجلي

فالشطر الأول ذكر فيه الشاعر شكايته من جماعة العُذَّال ، فَتَحرَّك ذهن السامع ليسأل : أصدقوا في هذا الزعم أم كذبوا ؟ فأجاب الشاعر في الشطر الثاني « صدقوا » وأوردها مفصولة لما بينها وبين الأولى من شبه كمال الاتصال وواضح أن السؤال عن سبب خاص غير سبب .

ومنه قول جندب بن عمار : -

زعم العـواذل أن نـاقـة جـنـدب   بـجـنـوب خـبـت عـريـت وأجـمـت

كـذب العـواذل لـورأين مناخـنـا   بـالـقـادسيـة قـلن : لـج وذلـت

خبت : ديار من ديار كلب ـ عريت أزيل عنها رحلها : أجمت : تـركت فلم تركب ، وهذا كناية عن قعوده بهذا المكان دون غرضـه ، والقادسيـة : بالعراق : ـ وذلت : جد في السير وانقادت له ناقته .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(٢) سورة هود ، الآية ٦٩ .

فالبيت الأول دلَّ على سؤال هو : أصدقوا في هذا الزعم أم كذبوا ؟

والبيت الثاني جواب له فكأنه قيل : كذبوا ، وأوردها مفصولة لما بينها وبين البيت الأول من شبه كمال الاتصال كما نرى .

ومثله قول الوليد بن يزيد الأموي :

عرفت المنزل الخالي   عفا من بعد أحوال
عفاه كل حنَّان   عزوف الوبل هطال

فإنه لما قال : « عفا من بعد أحوال » حرك ذهن القارىء أو السامع ليسأل عن الفاعل فكان الجواب : عفاه كل حنان . . .

فالبيت الثاني فصل عن الأول لما بينهما من شبه كمال الأتصال .

و« عفا » : درس . والمراد بأحوال في قوله : « من بعد أحوال » : الأحوال التي سعد فيه بسكانه من أحبابه ، والحنان : السحاب ، وعزوف الوبل : شديد المطر .

وقال أبو الطيب :

وما عفت الرياح له محلا   عفاه من حدا بهم وساقا

ففي البيت جملتان : « وما عفت . . » و« عفاه . . » وتجد الشاعر قد نفى الفعل عن الرياح فتحرك ذهن السامع ليسأل عن الفاعل ، فكان الجواب : « عفاه من حدا . . . » فالجملة الثانية فصلت عن الأولى لما بينهما من شبه كمال الاتصال .

ومن الاستئناف ما يأتي بإعادة اسم ما استؤنف عنه الحديث نحو : « أحسنت إلى زيد ، زيد حقيق بالإحسان » بإعادة اسم زيد ، والجملتان فصلتا عن بعضهما لما بينهما من شبه كمال الإتصال ، كأن سائلاً سأل : لماذا أحسنت إلى زيد ؟ والجواب الجملة الثانية : « زيد حقيق بالإحسان » ؟

ومنه ما يبني على صفة ما استؤنف عنه دون اسمه . والمراد صفة تصلح لترتب الحديث عليه ، نحو : « أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك » والسؤال المقدر : هل زيد حقيق بالإحسان ؟

ويقول البلاغيون : إن الاستئناف المبني على الصفة أبلغ ، لاشتماله على بيان السبب الموجب للحكم : كالصداقة القديمة في المثال المذكور ، لما يسبق إلى الفهم من ترتيب الحكم على الوصف الصالح لكنه عله . وقد يحذف صدر الاستئناف لقيام قرينة ، كقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ وَالأَصَالِ * رِجَالٌ. . . ﴾[1] فيمن قرأ « يُسَبَّحُ » مبنياً للمفعول ، فالسؤال : « مَنْ يسبحه ؟ » والجواب : يسبحه رجال ، فحذف صدر الاستئناف وهو « يسبح » والمحذوف فعل كما ترى .

وقد يكون المحذوف اسماً نحو قولنا : « نعم الرجل » أو نعم رجلاً زيد ، على قول من يجعل المخصوص بالمدح « زيد » خبر المبتدأ محذوف هو زيد مكانه لَمَّا قيل (نعم الرجل) فأبهم الفاعل ، فسئل عن تفسيره فقيل « هو زيد » فحذف صدر الإستئناف « هو » كما ترى .

وقد يحذف الاستئناف كله « أي السؤال والجواب » ـ ويقام ما يدل عليه مقامه :

كقول الخماسي : مساوربن هند بن قيس يهجو بني أسد :

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف

والمعني : زعمتم أنَّكم مثل قريش فكيف تكونون مثلهم ، وليس لكم شيء مما لهم .

إلف : أي إيلاف في الرحلتين المعروفتين لهم في التجارة رحلة في

---

(١) سورة النور ، الآية ٣٦ ، ٣٧ .

الشتـاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، و« ليس لكم إلاف » أي مؤالفة في الرحلتين المعروفتين ، كأنه قيل : أصدقنا في هذا الزعم أم كذبنا ؟ فقيل : كذبتم ، فحذف هذا الاستئناف كله ، وأقيم قوله : « لهم إلف وليس لكم إلاف » مقامه لدلالته عليه .

وقد يحذف الاستئناف ولا يقام شيء مقامه كقوله : « نعم العبد) أي : هو أيوب ، وقوله تعالى : (فنعم الماهدون) أي نحن .

٥ ـ كمال الانقطاع بلا إيهام خلاف المقصود

من الأسباب الموجبة للفصل أن يكون بين الجملتين تباين تام ، وذلك يكون باختلافهما خبراً وإنشاء ، الأمر الذي يوجب الفصل بينهما بترك العطف لأن العطف يقتضي التآلف والتناسب بينهما ، وهما متباينان تبايناً تاماً ، وذلك بشرط ألا يكون هنا ما يمنع من الفصل ، وهذا الموضع يسميه البلاغيون « كمال الانقطاع بلا إيهام خلاف المقصود ، ويأتي ذلك في ثلاث صور :

الأولى : أن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى ، كقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « أيها الناس إني وليت عليكم » فالأولى : إنشائية لفظاً ومعنى ، والثانية : خبرية لفظاً ومعنى ، ولذلك لم تعطف الثانية على الأولى ، ولأن الفصل لا يوهم خلاف المقصود .

وعليه قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . . .﴾[1] ، والمعنى لا تستوي الحسنة التي يرضى الله بها ويثبت عليها ، ولا السيئة التي يكرهها الله ويعاقب عليها ، إدفع السيئة إذا جاءتك من المسيء بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات ، ومنه مقابلة الإساءة بالإحسان والذنب . بالعفو ، والغضب بالصبر ، والإغضاء عن الهفوات ،

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

والاحتمال للمكروهات فالجملة الأولى : لا تسـوي . . » خبريـة لفظاً ومعنى ، والجملة الثـانية : ادفـع بالتي هي أحسن » إنشـائيـة لفـظاً ومعنى ، فبينهمـا ، كمال الانقطاع ، لذلك فصل بينهما ، ولأن الفصل لا يوهم خلاف المقصود .

وقال الشاعر :

وقـال رائـدهـم أرسـوا نـزاولـهـا فكـل حتف امـرىء يجـري بمقـدار

والرائد : هـو الذي يتقـدم القوم لـطلب الماء والكـلأ للنزول عليـه ، ولا يكون غالباً إلا عريفهم . « أرسوا » أن أقيموا بهـذا المكان المـلائم للحرب ، وهو مأخوذ من أرسيت السفينة حبستها في البحر بالمرساة ، وهي حديـدة تلقى في الماء متصلة بالسفينة ، فتقف ، وقد تطلق « المرسـاة » بفتح . الميم على البقعة التي رسيت فيها السفينة . « نزاولها » أي تحاول الحرب ونعالجهـا ، أي نحتال لإقامتهـا بأعمـال ، « فكل حتف امـرىء يمشي بمقدار » أي لا يمنعكم من محاولة إقامة الحرب بمباشرة أعمالها خوف المـوت ، فإن المـرء لا يجري عليـه الموت إلا بقـدر الله وقضائـه باشـر الحرب أم لم يبـاشرهـا ، فلا الجبن ينجي منه ، ولا الإقدام يوجبه : فقوله : « أرسوا » جملة : إنشائية لفظاً ومعنى وقوله : « نزاولها » جملة : خبرية لفظاً ومعنى ، ولـم يعطف الثانية على الأولى لكمال الانقطاع .

ومنـه قولهم : « لا تـدن من الأسد يأكلُك » ، وهل تصلح لي كـذا أدفع إليك الأجرة ، برفع المضارع في الجملتين الآخيرتين .

وذكر ابن السبكي في عروس الأفراح : « أن الخبر والإنشاء المتحدين لا يعطف أحدهمـا على الآخر فيجب الفصـل بلاغـة ، وأما لغـة فاختلفـوا فيه ، فـالجمهور على أنـه لا يجوز ، واختـاره ابن عصفور في شـرح الإيضـاح وابن مالك في باب المفعول معه في شرح التسهيل وجوزه الصفـار . وطائفة ، ونقل الشيخ أبو حيان عن سيبويه جواز عطف المختلفتين بالإستفهام والخبر ، مثل : « هذا ، ومَنْ عمرو » .

وقد تكلموا على ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾[1] .

وحاصله : أن أهل هذا الفن متفقون على منعه ، وظاهر كلام النحاة جوازه ولا خلاف بين الفريقين ، لأنه عند مَنْ جوزه ، يجوز لغة ، ولا يجوز بلاغة ، واختلفوا في : « باسم الله وصلى الله سيدنا محمد » في إثبات الواو وإسقاطها[2] » .

الصورة الثانية : أن تكون الجملتين مختلفتين خبراً وإنشاء بالنظر إلى المعنى ، وإن اتفقتا من ناحية اللفظ ، كقولك : « قال عمر ، رضي الله عنه » ، فجملة : « قال عمر » خبرية : لفظاً ومعنى ، وجملة : « رضي الله عنه » خبرية لفظاً إنشائية معنى ، فهما متفقتان في الخبرية لفظاً ولكنهما مختلفتان معنى ، إذ الأولى خبرية ، والثانية إنشائية ، لأنها دعائية ، ولذلك وجب الفصل لإختلافهما معنى ، فحدث بينهما تباين ، ولأن الفصل لا يوهم خلاف المقصود .

ومنه قولنا : « مات فلان رحمه الله » فالجملة الأولى : « مات فلان » خبرية لفظاً ومعنى ، والثانية : رحمه الله » خبرية لفظاً إنشائية معنى لأنها دعائية ، فبينهما اختلاف من جهة المعنى وإن اتفقتا من جهة اللفظ ، وذلك وجب الفصل لاختلافهما معنى ، فحدث بينهما تباين ، ولأن الفصل لا يوهم خلاف المقصود .

الصورة الثالثة : أن تتفق الجملتان خبراً وإنشاء ، ولكن لا صلة ، ولا مناسبة بينهما في المعنى ، أي لا جامع بينهما . وذلك كقول الشاعر :

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢١ .

(٢) عروس الأفراح ص ٦ ، ٧ ح ٣ ضمن شروح التلخيص طبع الحلبي .

وإنما المرء بأصغريه   كل امرىء رهن بما لديه

الأصغران : القلب واللسان ورهن بما لديه : يجازى بما عمل .

فجملة : كل امرىء رهن ». لم تعطف على جملة : « إنما المرء بأصغريه » لعدم التناسب والربط بينهما ، أي : عدم وجود جهة جامعة . مع أن الجملتين كما ترى ـ قد اتفقتا خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى الأمر الذي يوجب وصلهما ولكن عدم وجود المناسبة منع العطف .

ومن أمثلة هذا النوع قول أبي العتاهية :

الفقر فيما جاوز الكفافا   من اتقى الله رجا وخافا

فأنت تجد أنه لا مناسبة بين الشطرين ، ولذلك فصل بينهما .

٦ ـ شبه كمال الأتصال

من الأسباب الموجبة للفصل أن تكون الجملة مسبوقة بجملتين يصح عطفها على الأولى منهما لوجود المناسبة ، ولا يصح عطفها على الثانية ، فيترك العطف دائماً لتوهم عطفها على الثانية ، وتصبح الجملة الثالثة بمنزلة المنقطعة عن الأولى بهذا الحائل ، ويطلق البلاغيون على هذا الموضع « شبه كمال الانقطاع » وذلك كما في قول الشاعر :

وتظن سلمى أنني أبغي بها   بدلاً أراها في الضلال تهيم

ففي البيت ثلاث جمل « تظن سلمى » و« أنني أبغي بها » و« أراها » .

فترى أن جملة: « أنني أبغي » من مظنونات سلمى . وجملة : « أراها » من كلام الشاعر ، فلا يصح عطف جملة « أراها » على جملة : « إنني أبغي » حرصاً على سلامة المعنى لكن يصح عطف جملة : « أراها » على جملة « وتظن سلمى » لوجود المناسبة بينهما ، ولكن يمنع من هذا توهم عطفها على جملة « أنني أبغي » ، فتكون جملة « أراها » من مظنونات سلمى مع أنه غير المقصود ، ولهذا وجب الفصل لما بينهما من « شبه كمال الانقطاع » .

وتأمل قول الشاعر : يقولون :

إني أحمل الضيم عندهم أعوذ بربي أن يضام نظيري

لم يعطف جملة : « أعوذ » على جملة : « يقولون » ، لئلا يتوهم عطفها على جملة : « أحمل » ، فتكون من مقولهم ، مع أنها ليست منه وإنما هي من كلام الشاعر . فبين جملة : « يقولون » وجملة : « أعوذ » شبه كمال الانقطاع ، ولذلك فصل بينهما .

فروق الجملة الحالية

لما كانت الجملة التي تقع موقع الحال تقترن تارة ـ بالواو ـ ، وتارة لا تقترن بها ، والفصل ترك الاقتران ـ بالواو ـ ، والوصل الاقتران بها ، فاقتران الجملة الحالية ـ بالواو ـ شبيه بالوصل ، وعدم إقترانها ـ بالواو ـ شبيه بالفصل ـ وهذا يجري على أن ـ واو ـ الحال في الأصل العطف ـ . ومن ثَمَّ صار للجملة الحالية حالتا فصل ووصل بحسب الصورة ، ولذلك ترى البلاغيين يذكرون فروق الجملة الحالية عقيب الفصل والوصل .

والنحوي قد لا يهتم بالفروق التي تحدث بين الجملة الحالية التي إقترنت ـ بالواو ـ والتي لم تقترن بها ، والتي يجوز ربطها بالضمير وحده ، أو ـ بالواو فقط ـ أو بهما معاً ، أما النحوي المتذوق للغة أو البلاغي فيحس بتلك الفروق ، ويرى أن الأديب عندما يقصد إلى الجملة الحالية إنما يريد أن يحقق أغراضاً بلاغية ، فإذا أوردها مقترنة ـ بالواو ـ فذلك للتأكيد الذي يحقق مراده من زيادة الارتباط بين الحال وصاحبها ، أو الاهتمام ، أو إزالة الشك على حسب المقامات التي تسيطر عليه وتحرك قلمه .

وهذا ما أحس به الشيخ عبد القاهر الجرجاني فقد ذكر في كتابه القيم « دلائل الإعجاز » ما نصه . « واعلم أن الخبر ينقسم إلى خبر هو جزء من

الجملة لا تتم الفائدة دونه ، وخبر ليس بجزء من الجملة ، ولكنه زيادة في خبر آخر سابق له ، الأول خبر المبتدأ كمنطلق في قولك : « زيد منطلق » . والفعل كقولك : « خرج زيد » ، وكل واحد من هذين جزء من الجملة ، وهو الأصل في الفائدة .

والثاني : هو الحال ، كقولك : « جاءني زيد راكباً » ، وذلك لأن الحال خبر في الحقيقة من حيث إنك تثبت بها المعنى لذي الحال ، كما تثبته بالخبر للمبتدأ ، وبالفعل للفاعل ، ألا تراك : قد أثبت الركوب في قولك : « جاءني زيد راكباً » لزيد ، إلا أن الفرق أنك جئت به لتزيد معنى في إخبارك عنه بالمجيء » ، وهو أن تجعله بهذه الهيئة في مجيئه ، ولم تجرد إثباتك الركوب ، ولم تباشر به إبتداء ، بل بدأت فاثبت المجيء ثم وصلت به الركوب فالتبس به الإثبات على سبيل التبع لغيره ، وبشرط أن يكون في صلته ، وأما في الخبر المطلق نحو : « زيد منطلق وخرج عمرو » فإنك أثبت المعنى إثباتاً وجردته له وجعلته يباشره من غير واسطة ، ومن غير أن تتسبب بغيره إليه .

وإذ قد عرفت هذا فالعلم أن كل جملة وقعت حالاً ثم امتنعت من ـ الواو ـ فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد ، وكل جملة جاءت حالاً ثم اقتضت ـ الواو ـ فذاك لأنك مستأنف بها خبراً ، وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات .

تفسير هذا أنك إذا قلت : « جاءني زيد يسرع » كان بمنزلة قولك : « جاءني زيد مسرعاً » في أنك تثبت مجيئاً فيه إسراع ، وتصل أحد المعنيين بالآخر ، وتجعل الكلام خبراً واحداً ، وتريد أن تقول : « جاءني كذلك جاءني بهذه الهيئة ،

وهكذا قوله :

وقــد علوت قتـود الــرحـل يسفعني ... يـوم قـديديـمـة الجـوزاء مسمـوم[1]

كأنه قال : وقد علوت قنود الرحل بارزاً للشمس ضاحياً ، وكذلك قوله :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله

لأنه في معنى : « متى أرى الصبح بادياً لائحـاً بينا متحليـاً » ، وعلى هذا القياس أبداً ، وإذا قلت : « جـاني وغلامـه يسعى بين يديـه » ، و« رأيت زيداً وسيفـه على كتفيه » ، كـان المعنى على أنـك بـدأت المجيء والـرؤيـة ، ثم استأنفت خبراً وابتدأت إثباتاً ثانياً لسعي الغلام بين يديه ، ولكـون السيف على كتفه .

ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانيـة بالأولى ، فجيء بالواو كما جيء بها في قولك : « زيد منطلق ، وعمرو ذاهب والعلم حسن ، والجهل قبيح ، وتسميتنا لها ـ واو الحـال ـ لا يخرجهـا عن أن تكون مجتلبة لضم جملة إلى جملة »[2] .

وتـطلق الحـال في اللغـة على الـوقت الـذي أنت فيـه ، وعلى مـا عليـه الإنسان من خير أو شر[3] .

والحال في اصطلاح النحـاة : وصـف فضلة مذكـور لبيان هيئة صاحبـه ، والمراد بالـوصف : ما دل على معنى في صـاحبه ، وبـالفضلة . ما يـأتي بعد تمام الجملة لا ما يستغني الكلام عنه .

---

(١) القتود : جمع قتد . وهو خشب الرجل . وسفعـه اليوم : لفحـه بحره فغيـر لونـه . وأصله من سفع النار . قديد يمة : تصغير قدام . والجوزاء : برج من أبراج الشمس مسموم : حار .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٣) لسان العرب لابن منظور ص ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ـ دار المعارف .

ولا بد للحال من صاحب تصفه ، لأنّ الحال وصف لشيء هو : ما يسمى صاحب الحال .

والأكثر في صاحب الحال أن يكون معرفة نحو : « جاء محمد مسرعاً » فمسرع حال من محمد ، وهو معرفة بالعلمية ، وقد تكون الحال نكرة بمسوغ نحو قول الشاعر :

نجيت يا رب نوحاً واستجبت له   في فلك ماخر في اليم مشحونا

« فمشحوناً » حال من النكرة « فلك » لوصفها « بماخر » .

وأكثر ما تكون الحال نكرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَالَ اخرُجْ مِنها مَذءوماً مَدحُوراً . . ﴾[1] فمذءوماً ومدحوراً حالان من المضمر المستتر في « أخرج » وهما نكرتان ، وقد تكون الحال معرفة ، وهذا مقصور على السماع مثل : أرسلها العراك ، أي : معركة .

وتكون الحال مفردة : مثل « جاء زيد مسروراً » فمسرور حال من « زيد » وهو مفرد كما ترى .

وتكون جملة مثل قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَجعَلوا لِلهِ أَنداداً وَأَنتُم تَعلَمُون ﴾[2] فجملة : « وأنتم تعلمون » في موضع الحال من الواو في « تجعلوا » .

وتنقسم الحال إلى مؤسسة ومؤكدة : والمؤسسة : هي التي تفيد معنى جديداً لايفاد إلا بذكرها ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾[3] فهي حال مقدرة من فاعل « ادخلوا » ومعناها لا يفاد إلا بذكرها .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٢ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٩٩ .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنوا أَن تَأتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِن عَذابِ اللهِ أَو تَأتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغتَةً وَهُم لاَ يَشعُرونَ ﴾[1] فقوله : « وهم لا يشعرون » جملة في موضع الحال من المنصوب في « تأتيهم » ومعناها لا يفاد بدون ذكرها .

وأما المؤكدة فهي التي لا تفيد معنى غير مفاد قبل ذكرها ، وإنما تؤكد معنى مفاداً قبل ذكرها ، وذلك مثل قول الشاعر :

أنا ابن دارة معروفاً بها نسبي وهل بدارة يا للناس من عار

والشاهد فيه نصب « معروفاً » على الحال المؤكدة لمضمون جملة : « أنا ابن دارة » .

وتنقسم الحال باعتبار وصفها إلى منتقلة ، وإلى لازمة :

فالحال اللازمة هي : التي لا يفارق الوصف بها صاحبها ، وتتحقق الملازمة في ثلاث مسائل :

١ ـ أحدها أن يكون معناها التأكيد نحو : « محمد أبوك رحيماً » فكلمة « رحيماً » حال من أب الذي هو صاحبها ، وهي ملازمة له ، إذ أن معنى الحال وهو الرحمة لا يتخلف عن الأبوة ، لأن الأبوة لا تتجرد من الرحمة .

٢ ـ المسألة الثانية : أن يكون عاملها دالاً على تجدد صاحبها وحدوثه نحو قولهم : « خلق الله الزرافة يديها أطول من رجليها » فأطول بالنصب بدل من الزرافة ، والحال هنا وصف لازم لصاحبها ، لأن كل زرافة مخلوقة على هذه الصورة ، ومثله في اللزوم قولك : « خلق الله جلد النمر منقطاً » ، «وجلد الحمار الوحشي مخططاً » ، فكل نمر جلده منقطاً ، وكذلك كل حمار وحشي جلده مخططاً ، فالحال فيها وصف لازم لصاحبها .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٧ .

٣ ـ أن تكون الحال جامدة غير مؤولة بالمشتق نحو قولنا : « هذا مالك ذهباً » فإن الذهبية لا تنفك عن المال المعين .

وهذه الحال يمتنع اقترانها بالواو ، لأن شدة ارتباطها بصاحبها ولزومها له يجعلها مستغنية عن رابط يربطها به .

والحال المنتقلة ، هي التي تبين هيئة صاحبها مدة مؤقتة ثم تفارقه أو هي التي يفارق الوصف بها صاحبها ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾[1] فجملة الحال « تجري بأمره » وصف مفارق للريح فقد تسكن .

والأصل فيها أن تكون بغير واو أيضاً ، أوجهٍ[2] .

الأول : أن الحال معربة بالأصالة لا بالتبعية ، والإعراب في الأسماء إنما جيء به للدلالة على المعاني الطارئة عليها بسبب تركيبها مع العوامل ، فهو دال على التعليق المعنوي بينها وبين عواملها ، فيكون مغنياً عن تكلف تعلق آخر كالواو ، واستدل البلاغيون على ذلك بالقياس على الخبر والنعت .

٢ ـ الثاني : ولأن الحال ، وإن كانت في اللفظ فضلة تأتي بعد تمام الجملة لكنها في المعنى حكم على صاحبها كالخبر بالنسبة إلى المبتدأ من حيث أنك تثبت بالحال المعنى لصاحب الحال ، كما تثبت بالخبر المعنى للمبتدأ ، فإنك في قولك : « جاءني زيد راكباً » تثبت الركوب لزيد كما في قولك : « زيد راكب » إلا أن الفرق بين التركيبين : أنك جئت به لتزيد معنى في إخبارك عنه بالمجيء ، ولم تقصد إبتداء : إثبات الركوب له ، بل اثبته على سبيل التبع بخلاف الخبر فإنك تثبت به المعنى ابتداء وقصداً .

---

(١) سورة ص ، الآية ٣٦ .

(٢) راجع في هذا البحث الايضاح مع البغية ص ٩٥ ـ ١٠٧ وكذلك دلائل الإعجاز ص ١٣٨ ـ ١٤٩ طبعة رشيد رضا والمطول ص ٢٧١ ـ ٢٨٢ وشروح التلخيص ص ١١٦ ـ ١٥٩ .

٣ ـ الثالث : ولأن الحال في المعنى وصف لصاحبه كالنعت بالنسبة إلى المنعوت ، إلا أنك تقصد في الحال أن صاحبها كان على هذا الوصف حال مباشرة الفعل ، فهي قيد للفعل ، وبيان لكيفية وقوعه بخلاف النعت ، فإن المقصود بيان حصول هذا الوصف لذات المنعوت من غير نظر إلى كونه مباشراً للفعل أو غير مباشر ، ولهذا جاز أن يقع نحو الأسود والأبيض والطويل والقصير وما أشبه ذلك من الصفات التي لا انتقال فيها نعتاً لا حالاً . وبالجملة كما أن من حق الخبر والنعت أن يكونا بدون الواو فكذلك الحال .

وإذا ثبت أن الحال مثل الخبر والنعت ، وهما يكونان بغير الواو ، كان الأصل في الحال أن تكون بدون الواو أيضاً قياساً عليهما .

لكن خولف هذا الأصل إذا كانت الحال جملة ، فإنها من حيث هي جملة تراها مستقلة بالإفادة من غير أن تتوقف على التعليق بما قبلها ، وإن كانت من حيث هي حال غير مستقلة ، بل هي متوقفة على التعليق بكلام سابق عليها ، لما مر من أنك لا تقصد بالحال إثبات الحكم ابتداء ، بل تثبت أولاً ـ حكماً ، ثم توصل به الحال ، وتجعلها من صلته لتثبت على سبيل التبع له ، ومن ثم تحتاج الجملة الواقعة حالاً ـ بسبب كونها مستقلة من حيث هي جملة ـ إلى رابط يربطها بصاحبها الذي جعلت حالاً عنه ، وكل من الضمير والواو صالح للربط ، والأصل الضمير بدليل الاقتصار عليه في الحال المفردة والخبر والنعت ، ومعنى أن الضمير هو الأصل : أنه لا يعدل عنه إلى الواو ـ ما لم تمس حاجة إلى زيادة ارتباط ، وإلا ـ فالواو ـ أشد في الربط ، لأنها الموضوعة له ، والحال لكونها تجيء بعد تمام الكلام أحوج إلى الربط ـ بالواو ـ التي أصلها الجمع .

وإذا تأملنا الأساليب العربية نجد أن الجملتين الواقعة « حالاً » تكون جملة اسمية ، وجملة فعلية وشبه جملة ، وتتنوع بحسب الرابط إلى :

١ ـ ما يجب فيها الربط بالواو .

٢ ـ ما يجب فيها الربط بالضمير .

٣ ـ ما يستوي فيه الربط بإحدى الأداتين على السواء .

٤ ـ ما يترجح الربط بإحداهما على الأخرى .

وإليك تفصيل هذا :

إذا كانت جملة اسمية فيها ضمير يعود على ذي الحال نحو : « جاءني زيد وهو راكب » ، « ورأيت زيداً وهو جالس » ، و« دخلت عليه وهو يملي الحديث » ، و« انتهيت إلى الأمير وهو يعبىء الجيش » ، فيجب على الأديب أن يربطها ـ بالواو ـ فلو قلنا : « جاءني زيد هو راكب ، ودخلت عليه هو يملي الحديث » ، لم يكن كلاماً .

وإذا فقد الضمير في جملة الحال تجب الواو للربط أيضاً ، وذلك مثل قول امرىء القيس :

وقد أغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فجملة : « والطير في وكناتها » جملة إسمية وقعت موقع الحال ، والرابط فيها ـ الواو ـ كما ترى ، هي خالية من الضمير الذي يعود إلى صاحبها .

أما إذا قلنا : « جاءني زيد وعمرو أمامه » ، و« أتاني وسيفه على كتفه » فجملة « وعمرو أمامه » وكذلك « وسيفه على كتفه » وقعت كل منهما حالاً ، والغالب أن تجيء مع الواو ـ كما ترى .

أما إذا كان الخبر في الجملة الإسمية جاراً ومجروراً وقدم على المبتدأ كقولنا : « عليه سيف ، وفي يده سوط ، كثر فيها أن تجيء بغير واو ، فمما جاء منه كذلك قول بشار :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها ... خرجت مع البازي عليَّ سواد

يعني على بقية من الليل ـ وجملة الحال : « على سواد » كما هو ظاهر .

وقول أمية بن أبي الصلت :

فاشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً في رأس غمدان داراً منك محلالا

فأمية يمدح سيف بن ذي يزن ، وغمدان حصن بصنعاء عاصمة اليمن الشمالية، وروضة محلال أي سهلة لينة .

وقول الآخر :

لقد صبرت بالذل أعواد منبر تقوم عليها في يديك قضيب

كل ذلك في موضع الحال وليس فيه ـ واو ـ كما ترى ، ولا هو محتمل لها إذا نظرت . وقد يجيء ترك الواو فيما ليس الخبر فيه كذلك ، ولكنه لا يكثر فمن ذلك قولهم : « كلمته فوه إلى في ، ورجع عوده على بدئه » في قول من رفع ، وإنما حسن بغير ـ واو ـ من أجل أن المعنى : « كلمته مشافهاً له » و« رجع ذاهباً في طريقه الذي جاء فيه » .

ومنه قول الآخر :

نصف النهار الماء غامره ورفيقه بالغيب لا يدري

نصف من باب « قتل » بلغ نصفه ، وهذا على رواية نصب النهار ، وعلى رواية رفعه فلا واو ولا ضمير ، فنقدر ـ الواو ـ والبيت في وصف غائص على الدر أخرج الجمانة التي نشبه بها المحبوبة ، وقد انتصف النهار وهو غائص وصاحبه لا يدري ما حاله ؟ .

ومما ظاهره أنه منه قول الأخطل يمدح بشر بن مروان من بني أمية :

إذا أتيت أبا مروان تسأله وجدته حاضراه الجود والكرم

فقوله : « حاضراه الجود والكرم » جملة من مبتدأ « الجود » والخبر « حاضراه » كما ترى ، وليس فيها ـ واو ـ والموضع موضع حال ، ألا تراك

تقول « أتيته فوجدته جالساً » ، فيكون جالساً حالاً ، ذاك لأن « وجدت » في مثل هذا من الكلام لا تكون المتعدية إلى مفعولين ، ولكن المتعدية إلى مفعول واحد ، كقولك : « وجدت الضالة » ومما ساعد على الاستغناء عن ـ الواو ـ تقديم الخبر الذي هو : « حاضراه » وأنه لو قال : وجدته الجود والكرم حاضراه لم يحسن حسنه الآن ، وكان السبب في حسنه مع التقديم أنه يقرب في المعنى من قولك : « وجدته حاضره الجود والكرم ، أو حاضراً عنده الجود والكرم .

ومن ذلك ما أنشده الشيخ أبو علي الفارسي في كتابه « الإغفال » .

ولولا جنان الليل ما آب عامر ... إلى جعفر سر باله لم يمزق

وجنان الليل ظلمته .

وأحياناً يتعين الربط بالضمير ، تأمل قوله تعالى : ﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنا بَياتاً أو هُمْ قَائِلونَ ﴾[1] ، فجملة : «هم قائلون» في موضع الحال ، وهي معطوفة على « بياتاً » وهو مصدر منصوب على أنه حال ـ فأو ـ عطفت جملة حالية على حال ، والمعنى : جاءها عذابنا حال كونهم بائتين أو قائلين نصف النهار .

و« قائلون » في الآية من القيلولة ، وهي نصف النهار ، فتمتنع ـ الواو ـ فلا يقال : « أووهم قائلون » كراهة اجتماع حرفي عطف في الصورة ، وإنما قيل في الصورة ، لأن ـ واو ـ الحال ليست عاطفة ، وإنما هي تشبه العاطف في الصورة ، فلما استقبح اجتماع حرفي عطف امتنع ـ واو ـ الحال .

ويمتنع الربط ـ بالواو ـ أيضاً إذا كانت جملة الحال مؤكدة لمضمون الجملة قبلها نحو قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[2] ، فجملة :

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢ .

« لا ريب فيه » حال مؤكدة لمضمون الجملة قبلها ، وكما لا تدخل الواو في التوكيد نحو : « جاء زيد نفسه » ، لا تدخل هنا ، لأن المؤكِّد نفس المؤكَّد في المعنى ، فلو دخلت الواو لكان في صورة عطف الشيء على نفسه .

وترى الجملة قد جاءت حالاً بغير ـ واو ـ ويحسن ذلك ، ثم تنظر فترى ذلك إنما حسن من أجل حرف قد دخل عليها مثاله قول الفرزدق :

فقلت عسى أن تبصريني كأنما بنى حوالي الأسود الحوارد

الحوارد جمع حارد وهو : المكتنز الخلق المهيب المنظر يرى لعزته كأنه غضبان ، وقوله : « كأنما بنى حوالي الأسود الحوارد » في موضع الحال من مفعول تبصريني من غير شبهة ، ولو أنك تركت « كأن » فقلت : « عسى أن تبصريني بني جوالي كالأسود رأيته لا يحسن حسن دخول « كأنما » ، ورأيت الكلام يقتضي ـ الواو ـ كقولك : عسى أن تبصريني وبني حوالي كالأسود الحوارد .

وشبيه بهذا أنك ترى الجملة قد جاءت حالاً بعقب مفرد ، فلطف مكانها ولو أنك أردت أن تجعلها حالاً من غير أن يتقدمها ذلك المفرد لم يحسن ، مثال ذلك قول ابن الرومي :

والله يبقيك لنا سالماً برداك تبجيل وتعظيم

فقوله : برداك تبجيل ، في موضع حال ثانية ، ولو أنك أسقطت « سالماً من البيت فقلت : والله يبقيك برداك تبجيل ، لم يكن شيئاً .

وإذا كانت جملة الحال جملة فعلية مبدوءة بمضارع مثبت مسبوق « بقد » كان الربط بالواو نحو قوله تعالى : ﴿ لِمَ تُؤذونَني وَقَد تَعلمونَ أَنِّي رَسولُ اللهِ إِلَيكُم ﴾[1] ، فجملة : « وقد تعلمون » في موضع الحال من ـ الواو ـ في

(١) سورة الصف ، الآية ٥ .

« تؤذونني » وهي جملة فعلية فعلها فعل مضارع مثبت مسبوق « بقد» والرابط فيها الواو كما ترى .

أما إذا كان الحال جملة مبدوءة بمضارع منفي « بلا » فإن الربط يكون بالضمير كقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾[1] فجملة : « لا نؤمن بالله » في موضع الحال من الضمير المجرور باللام في « لنا » ولم تقترن ـ بالواو ـ ، لأن المضارع المنفي ـ بلا ـ بمنزلة اسم الفاعل المخفوض بإضافة غير ، وهو لا تدخل عليه ـ الواو ـ فكما لا يقال : « وما لنا وغير مؤمنين » ، كذلك لا يقال : « وما لنا ولا نؤمن بالله » .

فالربط هنا بين الحال وصاحبها ـ بالضمير ـ كما ترى .

لكن أحياناً نجد جملة المضارع المنفي بـ« لا » واقعة حالاً والرابط لها ـ الواو ـ وذلك كقولهم : « كنت ولا أُخَشَّى بالذئب » .

وقول مسكين الدارمي :

أكسبته الورق البيض أبا . ولقد كان ولا يدعى لأب

« كان » في المثالين تامة ، والجملة الداخل عليها ـ الواو ـ في موضع الحال ، ألا ترى أن المعنى : « وجدت غير خاش للذئب » ، « ولقد وجد غير مدعو لأب » .

على أن مجيء المضارع منفياً حالاً من غير الواو كثير وحسن أيضاً فمن ذلك قول الشاعر :

مضوا لا يريدون الرواح وغالهم
من الدهر أسباب جرين على قدر

فقوله : « لا يريدون الرواح » في موضع حال .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٨٤ .

وقال آخر : وهو لطيف جداً :

إن تلقني لا ترى غيري بناظرة
تنس السلاح وتعرف جبهة الأسد

فقوله : «لا ترى» في موضع حال .

ومثله في اللطف والحسن قول أعشى همدان ، وصحب عباد بن ورقاء إلى أصبهان فلم يحمده فقال :

أتينا أصبهان فهزلتنا ... وكنا قبل ذلك في نعيم
وكان سفاهة مني وجهلاً ... مسيري لا أسير إلى حميم

فقوله : « لا أسير إلى حميم » حال من ضمير المتكلم الذي هو الياء في « مسيري » وهو فاعل في المعنى فكأنه قال : وكان سفاهة مني وجهلاً أن سرت غير سائر إلى حميم ، وأن ذهبت غير متوجه إلى قريب . وقال خالد ابن يزيد بن معاوية :

لو أن قوماً لارتفاع قبيلة ... دخلوا السماء دخلتها لا أحجب

وهو كثير إلا أنه لا يهتدي إلى وضعه بالموضع المرضي إلا من كان صحيح الطبع .

وأما إذا كانت جملة المضارع منفية « بلم » فيجوز الربط بالضمير وحده أو ـ بالواو ـ وحدها ، أو الجمع بينهما :

فالأول كقوله تعالى : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعمَةٍ مِن اللهِ وَفَضلٍ لَم يَمسَسهُم سُوءٌ ﴾[1] فجملة : « لم يمسسهم سوء » في موضع الحال من المضمر في « انقلبوا » وهي مرتبطة بالضمير فقط .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٧٤ .

ومنه قول زهير بن أسلمى :

كأن فتاة العهن في كل منزل   نزلن به حب الفنا لم يحطم

فقوله : « لم يحطم » جملة مبدوءة بمضارع منفي « بلم » وهي في موضع الحال من « حب الفنا » وهي مرتبطة بالضمير فقط .

والثاني : كقول عنترة :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر   للحرب دائرة على ابن ضمضم

فجملة الحال « ولم تدر . . . » مرتبطة بصاحبها بالواو فقط .

والثالث : كقوله تعالى : ﴿ أَو قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَم يُوحَ إِلَيهِ شَيءٌ ﴾[1] ، فجملة : « ولم يوح إليه شيء » في موضع الحال ، وهي مرتبطة - بالواو - والضمير معاً .

وكذلك الحال في المضارع المنفي بـ« لَمّا » نحو : « أديت واجبي نحو الدين ولما أقصر ، فجملة الحال « ولما أقصر » مبدوءة بمضارع منفي بـ« لما » ، وهي مرتبطة بصاحبها بالواو والضمير .

وقد تتعين الواو إذا عدم الضمير نحو : قرب الامتحان ولمّا يذاكر المهمل ومثله : « حضر زيد ولم يقم عمرو » .

وإذا كانت جملة الحال مبدوءة بمضارع منفي بـ« ما » جاءت بغير الواو كقول الشاعر :

عهدتك ما تصبو وفيك شبيبة   فما بالك بعد الشيب صباً متيماً

فقوله : « ما تصبو » فعل مضارع منفي في موضع الحال ، وقد جاء بغير الواو . وأحياناً نجد جملة المضارع المنفي بـ« ما » واقعه حالاً ومقترنة -

(١) سورة الأنعام، الآية ٩٣ .

بـالواو ـ وليس هـذا بعزيـز في الكلام : ألا تـراك تقول : (جعلت أمشي ومـا أدري أين أضع رجلي) ، و(جعل يقول وما يدري) وقال أبو الأسود :

يصيب وما يدري ويخطي وما درى

وكيف يكون النوك إلا كذلك

وقول مالك بن رفيع ، وكان جنى جناية ، فطلبه مصعب بن الزبير :

أتـانـي مـصـعـب وبـنـو أبيـه   فـأين أحيـد عـنهـم لا أحيـد
أقـادوا مـن دمـي وتـوعـدونـي   وكـنت ومـا ينهـنهـني الـوعـيـد

وكان في البيت الثاني تامة ، والجملة في موضع الحال ، والمعنى : (ووجدت غير منهته بالوعيد وغير مبال به . وقد ورد فيها الواو كما ترى .

ومما يجيء ـ بالـواو ـ وغير ـ الـواو ـ الماضي ، وهـو لا يقع حـالاً إلا مع « قد » مظهرة أو مقدرة .

أما مجيئها بالواو فالكثير الشائع كقولك : « أتاني وقد جهـده السير » وأمـا بغير ـ الواو ـ فكقوله :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله   والليل قد مزقت عنه السرابيل

وقول الآخر :

فـأبـوا بـالـرمـاح مكسـرات   وأبنـا بـالسيـوف قـد انحنينـا

وقال آخر ، وهو لطيف جداً .

يمشون قد كسروا الجفون إلى الوغى

متبسميـن وفيـهـم إستشـار

ومما يجيء ـ بالواو ـ في الأكثر الأشيع ، ثم يأتي في مواضع بغير ـ الواو ـ فيلطف مكانه ، ويدل على البلاغة ـ الجملة قد دخلهـا « ليس » تقول : أتـاني

وليس عليه ثوب ، ورأيته وليس معه غيره ، فهذا هو المعروف المستعمل .

وقد يجيء بغير ـ الواو ـ فيكون من الحسن على ما ترى ، وذلك كما في قول الأعرابي :

لنا فتى وحبذا الإفتاء   تعرفه الأرسان والدلاء

إذا جرى في كفه الرشاء   خلى القليب ليس فيه ماء

أما إذا كانت جملة الحال مبدوءة بمضارع مثبت مجرد من قد نحو : « جاء زيد يضحك امتنعت الواو وعلة إمتناعها أن المضارع يشبه إسم الفاعل في الزنة والمعنى ، والواو لا تدخل اسم الفاعل فكذلك ما أشبهه .

وما ورد من ذلك وفيه الواو قول عنترة العبسي :

علقتها عرضاً وأقتل قومها   زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم

وموضع الشاهد فيه قوله : (وأقتل قومها) فهي جملة مبدوءة بمضارع مثبت فقيل : إن دخول واو الحال ضرورة ، وقيل : إن الواو عاطفة ، وليست ـ واو ـ الحال ، والمضارع مؤول بالماضي والتقدير : (وقتلت قومها) فعدل عن لفظ الماضي إلى لفظ المضارع قصداً لحكاية الحال الماضية ، ومعناها أن نفرض ما كان في الزمن الماضي ، واقعاً في هذا الزمان ، وقيل : هي ـ واو ـ الحال والمضارع في موضع خبر مبتدأ محذوف ، أي : (وأنا أقتل قومها) والجملة من المبتدأ والخبر هي الحال ، فتكون الحال جملة إسمية .

ومثل ما سبق قول بعضهم : (قمت وأصك عينه) وقول الشاعر :

فلما خشيت أظافيرهم   نجوت وأرهنهم مالكا

فيقال في : (وأصك عينه ، وأرهنهم مالكا) ما قيل في جملة : (وأقتل قومها) من التخريج على الضرورة ، أو على تأويله بالماضي ، وجعل ـ الواو ـ عاطفة ، أو على تقدير : مبتدأ دخلت عليه ـ الواو ـ فتكون جملة الحال إسمية وهكذا يقال في كل ما ورد على هذا النمط من الأساليب .

هـذه أحوال الجملة الحالية والتي يجب على الأديب والمتلقي أن يكـونا على ذكر منها وذلك ليأتي الكلام مطابقاً لمقتضى الحال محققاً الغرض الـذي قيل من أجله .

الفَصْلُ الثَامِنْ

الإيجاز والإطناب والمساواة

الأديب أو البليغ وهو ينقل المعاني التي تجول بخاطره - إلى قرائه أو مستمعيه لا تخرج حاله عن ثلاث صور :

١ - أن يكون تعبيره مساوياً للمعنى الذي يريد أن ينقله إلى قرائه أو مستمعيه وهذا يسمى (بالمساواة) .

٢ - أن يكون أسلوبه الذي ينقل به ما في نفسه قليل اللفظ كثير المعنى وهذا يسمى (بالإيجاز) .

٣ - أن يزيد الأسلوب عن مقدار المعنى ، بشرط ألا يكون في هذه الزيادة عبث ، وهذا يسمى (بالإطناب) .

ولا يكون الكلام بليغاً في إحدى هذه الصور إلا إذا كان مطابقاً لمقتضى حال السامع أو القارىء أو المتلقي ، فخطاب الذكي يخالف الغبي ، وخطاب المنكر يخالف حال غير المنكر .

والبليغ هو الذي يعرف مقتضيات الأحوال ، ويقف على نفسيات قرائه ومستمعيه ، ويضع الكلام موضعه ، ويصيب به هدفه ، فيوجز في مقام الإيجاز ويطنب إذا استدعى المقام الإطناب وإليك تفصيل هذه الصور .

الإيجاز

الإيجاز في اللغة العربية أصل وروح وطبع ، لأنها لغة أمة صافية الذهن ، دقيقة الحس ، سريعة الفهم ، تشعر بقوة ، وتعبر بقوة ، وتفهم بقوة ، والبلاغة الإيجاز ، والإيجاز إمتلاء في اللفظ ، وقوة الحبك ، وشدة في التماسك[1] .

وكان سيد البلغاء محمد بن عبد الله عليه السلام يكره أن يجاوز الكلام مقدار القصد به ، فقد تكلم رجل عنده فأطال ، فقال له : (كم دون لسانك من حجاب ؟ قال : شفتاي ، وأسناني ، فقال له الرسول : إن الله يكره الانبعاق[3] في الكلام ، فنضّر الله وجه رجل أوجز في كلامه واقتصر على حاجته) .

وقيل لإياس : (لا عيب فيك إلا أنك تطيل) ، قال : (أخيراً تسمعون أم شراً ؟ قالوا : خيراً . قال : فالزيادة في الخير خير) روى ذلك الجاحظ وعلّق عليه بقوله : (وليس الأمر كما قال إياس ، فإن للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ، ودعا إلى الاستثقال والملال ، فذاك الفاضل الهذر ، وهو الخطل ، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه ﴾[3] .

والإيجاز معروف لدى العلماء والنقاد منذ بدء نشأة مسائل البلاغة العربية وتكوينها .

فقد أشار إلى موضعه كل من سيبويه المتوفي سنة ١٨٠هـ وأبي عبيدة معمر بن المثنى سنة ٢١٠هـ والفراء سنة ٢٠٨هـ .

---

(١) أنظر دفاع عن البلاغة العربية ص ١٠٥ للمرحوم احمد حسن الزيات نشر عالم الكتب .

(٢) الانبعاق : الاندفاع .

(٣) البيان والتبيين ح ١ ص ٩٩ بتحقيق هارون .

حتى جاء الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥هـ وعرّفه بقوله : لو أن قائلاً قال لبعضنا ما الإيجاز ؟ لظننت أنه يقول : الأختصار[١] » .

والإيجاز عنده ليس يعني به قلة عدد الحروف واللفظ ، بل لا بد أن يكون مطابقاً لمقتضى الحال ، وأن يكون السامع على علم به .

ويقول : « وللإطالة موضع وليس ذلك بخطل ، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز » ، ويقول : « ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب ، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً ، وزاد في الكلام »[٢] .

على أن الجاحظ قد عرف الإيجاز بنوعيه : إيجاز الحذف ، وإيجاز القصر .

أما إيجاز الحذف فقد فتح له باباً في كتابه « البيان والتبيين » بعنوان « باب من الكلام المحذوف » وذكر له أمثلة كثيرة منها : « أن المهاجرين قالوا يا رسول الله : إن الأنصار قد فضلونا بأنهم آووا ونصروا ، وفعلوا وفعلوا ، قال النبي عليه السلام : أتعرفون ذلك لهم ؟ قالوا : نعم ، قال : « فإن ذاك ». ليس في الحديث غير هذا » يريد : أن ذاك شكر ومكافأة[٣] .

وأما إيجاز القصر ، فقد تعرّض له من غير تسمية ، فقد علّق على قول الإمام علي رضي الله عنه : « قيمة كل امرىء ما يحسن » بقوله : « فلو تقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية مجزئة مغنية ، بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية ، وغير مقصرة عن الغاية ، وأحسن الكلام ما كان

---

(١) الحيوان للجاحظ ح ٣ بتحقيق هارون .

(٢) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٩٤ .

(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٧٨ الطبعة الثانية .

قليله يغنيك عن كثيره[1] .

وتحدث عن إيجاز القصر مرة أخرى في كتابه : « الحيوان » فقال : « وقد ذكرنا أبياتاً تضاف إلى الإيجاز وقلة الفضول ، ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن ، لتعرف بها فضل ما بين الإيجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز ، والجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة على الذي كتبته لك في باب الإيجاز ، وترك الفضول . فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة : ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنزِفونَ ﴾[2] ، وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة : ﴿ لاَ مَقطُوعةٍ وَلاَ مَمنُوعَةٍ ﴾[3] ، جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني ، وهذا كثير قد دللتك عليه ، فإن أردته فموضعه مشهور »[4] .

فإيجاز القصر عنده هو الجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ، وهو أحسن الكلام وأبلغه والإيجاز بوجه عام البلاغة كلها[1] .

وكان ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ عرض للإيجاز بنوعيه : إيجاز الحذف وإيجاز القصر .

أما إيجاز القصر فقد تعرض له في صدر كتابه : « تأويل مشكل القرآن » من غير تسمية عندما وصف « النظم القرآني » بأنه جمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه ـ وسماه الاختصار ـ وذكر أمثلة من القرآن الكريم ومن كلام العرب[6] .

---

(١) البيان والتبيين ص ٨٣ ج ١ .

(٢) سورة الواقعة الآية ١٩ .

(٣) سورة الواقعة الآية ٣٣ .

(٤) الحيوان ج ٢ ص ٨٦ .

(٥) أنظر البيان والتبيين ج ١ ص ٩٦.

(٦) أنظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٧ بتحقيق الأستاذ صقر .

أما إيجاز الحذف فقد فسح له باباً في كتابه السابق بعنوان « باب الحذف والاختصار » حشد فيه كثيراً من الأمثلة تناولت حذف الكلمتين والجملة وحذف الحرف والاسم والفعل ، هذه الأمثلة كانت المدد الذي لا ينضب لمن أتى بعده من البلاغيين والنقاد .

ويشترط ابن قتيبة والجاحظ وأبو عبيدة لإيجاز الحذف أن يكون معلوماً لدي السامع ،وألا يخل الحذف بالمعنى المراد ، وأن يكون في الكلام ما يدل عليه ويرى ابن قتيبة أن ظاهرة الحذف من مذاهب العرب في فن القول ومن مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز ، ومن مذاهبهم أيضاً التكرار : إرادة التوكيد والإفهام ، ولأن افتنان المتكلم والخطيب في الفنون ، وخروجه عن شيء إلى شيء أحسن من إقتصاده في المقام على فن واحد[1] .

وفي القرن الرابع الهجري تناوله العالم الفذ على بن عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٦هـ في رسالته « النكت في إعجاز القرآن » وقسمه إلى قسمين : إيجاز حذف وإيجاز قصر وله هذه التسمية .

وقد قفز الرماني بدراسة الإيجاز ، إذْ بين السر البلاغي له ، حتى جاء الإمام عبد القاهر الجرجاني الذي تعمق في فهم أسرار الإيجاز بنوعيه ، وذلك في كتابه القيم « دلائل الإعجاز » .

ثم تناوله البلاغيون من بعده ، محافظين تارة ، ومقصرين تارة أخرى .

تعريف الإيجاز

قالوا في تعريفه : إنه عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح ، ليسهل تعلقها بالذهن ، وتذكرها عند الحاجة إليها في المناسبات المختلفة ، وقالوا : إن الإيجاز نوعان ، إيجاز قصر ، وإيجاز حذف .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٢ .

ويأتي إذا تضمنت العبارة القليلة معاني كثيرة ، دون أن يكون في تركيبها لفظ محذوف ، كما في قوله تعالى : ﴿ خُذِ العَفوَ وَأْمُر بِالعُرفِ وَأَعرِض عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾[1] فقد جمع في هذه الآية جميع مكارم الأخلاق ، لأن في العفو : الصفح عمن أساء . والرفق في كل الأمور والمسامحة .

وفي قوله : (وأمر بالعرف) صلة الأرحام ، وصون اللسان والعين عن كل محرم .

وفي قوله : (وأعرض عن الجاهلين) الصبر والاحتمال وكظم الغيظ ، فهذه الألفاظ القليلة قد أعطتنا معاني كثيرة كما ترى .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ أولَئِكَ لَهُم الأَمنُ ﴾[1] . ففي هذه الآية إيجاز قصر في كلمة « الأمن » يدخل تحتها كل أمر محبوب ، وينتفي بها كل أصناف المكاره من خوف أو فقر أو جور أو زوال نعمة .

وقوله تعالى : ﴿ أَخرَجَ مِنهَا مَاءَها وَمَرعَاهَا ﴾[3] فيه إيجاز قصر ، فقد دلّ سبحانه بكلمتين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعاً للناس من العشب والشجر والحطب واللباس والنار والماء .

ومن إيجاز القصر قوله تعالى : ﴿ ألا لَهُ الخَلقُ وَالأَمرُ ﴾[4] فهذه العبارة القصيرة ، قد أحاطت بجميع الأشياء والشئون على وجه الاستقصاء ، حتى لقد روى أن ابن عمر رضي الله عنه قرأها فقال : « من بقي له شيء فليطلبه » .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٨٢ .

(٣) سورة النازعات ، الآية ٣١ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية ٥٤ .

ومن المشهور في ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَكُم فِي القِصاصِ حَيـاةٌ ﴾[1] ، لأن معناه أنه إذا قتل القاتل امتنع غيره عن القتل ، فأوجب ذلك حياة الناس . ويتضح لك الإعجاز البلاغي لهذه الآية ، إذا قارنتها بما كانوا يعدونه أوجز كلام قيل في معناها ، وهو قولهم : « القتل أنفى للقتل » .

والآية الكريمة معجزة ببلاغتها ، ودقة نظمها ، وتفوق ذلك القول من وجوه :

١ ـ فيما قالوه تكرار ، والنظم القرآني لا تكرار فيه .

٢ ـ أنه ليس كل قتل نافياً للقتل إلا إذا كان على حكم القصاص وهذا ما تدل عليه الآية ، فإن في كل قصاص حياة .

٣ ـ في الآية الكريمة لون من البديع لطيف ، وهو الطباق بين القصاص والحياة ـ وقولهم خال من هذا اللون .

٤ ـ جعلت الآية الكريمة القصاص كالأصل للحياة بإدخال « في » عليه ، فكأن أحد الضدين ، وهو ـ الفناء ـ محل للحياة وفي ذلك ما لا يخفى من المبالغة الجميلة ، والتخييل العجيب إذ يكون الفناء محلاً للحياة .

٥ ـ في الآية الكريمة : « في القصاص حياة » هو الذي يناظر قولهم « القتل أنفى للقتل » لأن قوله تعالى : « ولكم » لا مدخل له في المناظرة لكونه زائداً على معنى قولهم : « القتل أنفى للقتل » ، وعلى ذلك تكون الآية الكريمة تمتاز بقلة الحروف ـ عن قولهم : « القتل أنفى للقتل » ، فحروف « في القصاص حياة » أحد عشر حرفاً ـ إن اعتبر التنوين ـ وإلا فعشرة .

وحروف « القتل أنفى للقتل » أربعة عشر حرفاً ، والمعتبر الحروف الملفوظة لا المكتوبة ، لأن الإيجاز إنما يتعلق بالعبارة دون الكتابة .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٧٩ .

٦ ـ في تنكير كلمة « حياة » ما يفيد التعظيم والتنويع ، أي : لكم في القصاص حياة عظيمة ، ونوع من الحياة الحاصلة للمقتول والقاتل ، وذلك بالارتداع عن القتل ، لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل ، لأنه إذا هَمَّ بالقتل فعلم أنه يقتص منه ـ فارتدع ، سلم صاحبه من القتل ، وسلم هو من القود .

٧ ـ اطراده بخلاف قولهم ، فإن القتل الذي ينفي القتل هو ما كان على وجه القصاص لا غيره ، لأن الاقتصاص مطلقاً سبب للحياة بخلاف قولهم : فإن القتل الذي هو أنفى للقتل ما يكون على وجه القصاص لا مطلق القتل ، لأن القتل ظلماً ليس أنفى للقتل بل أدعى له .

٨ ـ سلامة الآية الكريمة من لفظ « القتل » المشعر بالوحشة وعكسه الحياة .

٩ ـ إبانة العدل بلفظ القصاص .

١٠ ـ ملاءمة الحروف في الآية الكريمة . لأن الخروج من القاف إلى الصاد أعذب من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد اللام من الهمزة ، والخروج من الصاد إلى الحاء أعذب من الخروج من اللام إلى الألف .

١١ ـ سلامة الآية الكريمة من تكرير قلقلة القاف الموجب للضغط والشدة وبعدها عن غنة النون .

١٢ ـ إشتمال الآية الكريمة على تكرير الصاد المستجلب باستعلائها وأطباقها مع الصفير للفصاحة .

ومن إيجاز القصر قول الرسول ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » ومعناه : لا ينبغي لأحد أن يضر غيره ، ولا ينبغي لك أن تضر أحداً ، ولا ينبغي له أن يضرك .

ومن هذا قوله ﷺ : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، وعودوا

كل جسم ما عتاد » فهذه الجمل الثلاث قد جمّعت من المعاني الحكمية . والأسرار الطبية ما لا يحيط بوصفه إلا الله . ومنه قول الشاعر :

وإن هو لم يحمّل عن النفس ضيمها

فليس إلى حسن الثناء سبيل

فالشاعر قد جمع في هذا البيت جميع مكارم الأخلاق من سماحة وشجاعة وكرم ومروءة ونجدة وإغاثة ملهوف ، وغير ذلك ، فإن هذه الأخلاق من ضيم النفس ، لأنها تجد بحملها مشقة وعناء .

إيجاز الحذف

قالوا في تعريفه : هو التعبير عن المعاني الكثيرة في عبارة أقل منها ، بحذف شيء من تركيبها ، مع عدم الإخلال بتلك المعاني ، ويشترط فيه علم السامع به . يقول فيه الإمام عبد القاهر الجرجاني : وهو فن عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، وذاك أنك ترى الحذف أفصح من الذكر . والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون مبيناً إذا لم تبن »[1] .

والمحذوف للإيجاز : إما مفرد أو شبه جملة ، أو أكثر من جملة .

والمفرد : قد يكون حرفاً كقوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾[2] ، أي : لا تفتأ .

وقد يكون اسماً ، وهذا الاسم قد يكون مبتدأ مثل قول الشاعر :

قال لي : كيف أنت قلت : عليل

سهر دائم وحزن طويل

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٥ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٨٥ .

فالتقدير : قلت : « أنا عليل » فقد حذف « أنا » لدلالة الكلام عليه .

وقد يكون مفعولاً به ، كقول البحتري يمدح أبا الصقر الشيباني ، ويذكر صيانته له ، ودفعه نوائب الدهر عنه .

كم ذدت عني من تحامل حادث ... وسورة أيام حززن إلى العظم

السورة : الشدة والبطش .

فالشاعر قد حذف المفعول في جملة : « حززن إلى العظم » ، والأصل : حززن اللحم إلى العظم ، وفي حذفه مزية عجيبة وفائدة جليلة ، فلو كان الشاعر أظهر المفعول فقال : وسورة أيام حززن اللحم إلى العظم ، لجاز أن يقع في وهم السامع قبل أن يسمع قوله : « إلى العظم » أن هذا الحزكان في بعض اللحم دون كله ، وأنه قطع ما يلي الجلد ، ولم ينته إلى ما يلي العظم ، فحذف الشاعر المفعول « اللحم » لينبه السامع من أول الأمر أن الحز مضى في اللحم حتى وصل إلى العظم »[1] .

وقال البحتري أيضاً يمدح المعتز بالله :

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤ ... دد والمجد والمكارم مثلاً

السؤدد : رفعة القدر . وكرم المنصب والسيادة ، والمعنى : قد طلبنا لك مثلاً في السيادة والمجد فلم نجد لك مثلاً .

فقد حذف الشاعر لفظ « مثلاً » مفعول « طلبنا » لأنه ذكره في الفعل الثاني « نجد » وفي حذفه مزية وروعة ، لأنه لو قال : « طلبنا لك في السؤدد والمجد المكارم مثلاً فلم تجده » لم تر من هذا الحسن الذي تراه شيئاً ، وسبب ذلك أن الأصل في المدح نفي الوجود عن المثل صراحة ، أي أن النفي يقع صراحة على لفظ المثل لا على ضميره .

---

(١) أنظر دلائل الإعجاز ص ١١٣ .

فلو قال : طلبنا لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلاً ، فلم نجده لكان نفي وجود المثل وقع على ضميره لأعلى لفظه ـ وفي هذا المقام ، أي : المدح يكون التصريح أبلغ من الكناية[1] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ﴾[2] ، ففي النظم القرآني حذف مفعول في أربعة مواضع ، إذ المعنى : وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم ، وامرأتين تذودان غنمهما ، وقالتا لا نسقي غنمنا ، فسقى لهما غنمهما . وسر بلاغة الحذف مع ما فيه من إيجاز توفر العناية على إثبات الفعل لفاعله ، وهو أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقي . فأما ما كان المسقي غنماً أم إبلاً أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه ، وذاك أنه لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما جاز أن يكون موسى لم ينكر الذود من حيث هو ذود بل من حيث هو ذود غنم حتى لو كان مكان الغنم « إبل » لم ينكر الذود ، كما أنك إذا قلت : « ما لك تمنع أخاك » كنت منكراً المنع لا من حيث هو منع ، بل من حيث هو منع أخ ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت إلا لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة ، وأن الغرض لا يصح إلا بتركه)[3] .

وقد يكون المحذوف مضافاً قد أقيم المضاف إليه مقامه ، نحو قوله

---

(١) أنظر المرجع السابق ص ١١١ .

(٢) سورة القصص الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) أنظر دلائل الإعجاز ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

تعالى : ﴿ وَاسأَلِ القَرْيَةَ ﴾[1] أي أهل القرية ، لأن القرية لا تسأل ، ولعلك تحس التخييل العجيب وجذب الانتباه ، وتحرك المشاعر والعقول .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِي يَنعِقُ بِمَا لَا يَسمَعُ إلَّا دُعَاءً ونِداءً صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُم لَا يعقِلونَ ﴾[2] فأصل العبارة : ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع ، ثم حذف المضاف وهو « داعي » رفعة لشأنه في اللفظ ، عن أن يقرن بهذا الذي ينعق بما لا يسمع .

وقد يكون المحذوف مضافاً إليه كقوله سبحانه : ﴿ لِلهِ الأَمرُ مِن قَبلُ وَمِن بَعدُ ﴾[3] فقد حذف فيه المضاف إليه اكتفاء بالمضاف ، والتقدير من قبل ذلك ومن بعده .

وقد يكون المحذوف موصوفاً كقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُم قَاصِراتُ الطَرفِ أَترابٌ ﴾[4] ، أي : حور قاصرات الطرف .

وقد يكون المحذوف الصفة كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَراءَهُم مَلِكٌ يَأخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾[5] ، فقد حذفت الصفة بعد سفينة ، إذ المراد بها السفينة الصالحة لدلالة الآية على هذه الصفة .

وقد يحذف القسم من الجملة كقوله تعالى : ﴿ لَئِن لَم يَنتَهِ المُنافِقُونَ وَالذِينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ وَالمُرجِفُونَ في المَدِينَةِ لَنُغرِيَنَّكَ بِهِم ثُم لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إلَّا قَليلاً ﴾[6] والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عمّا هم عليه

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٨٢.

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٧١ .

(٣) سورة الروم آية ٤ .

(٤) سورة ص الآية ٥٢ .

(٥) سورة الكهف ، الآية ٧٩ .

(٦) سورة الأحزاب ، الآية ٦٠ .

من النفاق ، والذين في قلوبهم شك وريبة عمّا هم عليه من الاضطرابات ، والمرجفون في المدينة عما يصدر منهم من الإرجاف بذكر الأخبار الكاذبة المتضمنة الأباطيل لتوهين جانب المسلمين ، وظهور المشركين عليهم .

والمعنى : أن المنافقين قد جمعوا بين النفاق ومرض القلوب والإرجاف على المسلمين ، وذلك بأن هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بأنهم هزموا ، وتارة بأنهم قتلوا ، وتارة بأنهم غلبوا ، ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الأخبار ، فتوعدهم الله سبحانه بقوله : (لنغرينك بهم) أي لنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك ، وجملة لنغرينك بهم جواب القسم ، والقسم محذوف كما ترى .

وقد يحذف جواب القسم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً * والسَّابِحَاتِ سَبحاً * فَالسَّابِقَاتِ سَبقاً * فَالمُدَبِّرَاتِ أَمراً * يَومَ تَرجُفُ الرَّاجِفَةُ * تتبعها الرَّادِفَةُ ﴾[1] والقول الكريم حذف منه جواب القسم ، لدلالة القرينة عليه ، دون إخلال بالمعنى ، والمعنى : أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها ، وهي : الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسامهم كما ينزع النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد ، وكذا المراد بالناشطات والسابحات ، والسابقات والمدبرات : يعني الملائكة ، هذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وفي الآيات تفسيرات غير ذلك ، والجواب المحذوف تقديره : « لتبعثن » وحذف لمعرفة السامعين به .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُم إِلَىٰ الجَنَّةِ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَت أَبوَابُهَا وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيكُم طِبتُم فَادخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾[2] والمعنى : ساقت الملائكة المتقين ربهم سوق إعزاز وتشريف

---

(١) سورة النازعات ، الآيات ١ ـ ٧ .

(٢) سورة الزمر ، الآية ٧٣.

وتكريم - إلى الجنة حتى إذا جاءوها وجواب « إذا » محذوف تقديره سعدوا . « وفتحت » الواو هنا دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبل أن يأتوا لكرامتهم على الله .

وسر بلاغة حذف الجواب هنا : الدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف أو لتذهب فيه النفس كل مذهب ، ولو عين شيء لاقتصر عليه .

ومنه قوله عز وجل : ﴿ وَلَو تَرىٰ إِذْ المُجرِمونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِم عِندَ رَبِّهِم ﴾[1] ، وقوله : ﴿ وَلَو تَرىٰ إذ وُقِفوا عَلىٰ رَبِّهِم ... ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَو تَرىٰ إذ وُقِفُوا عَلىٰ النَّارِ ﴾[3] ، جواب « لو » في الآيات الثلاث محذوف تقديره : لرأيت أمراً عظيماً أو فظيعاً ، فحذف من النظم الكريم قصداً للتهويل والتفظيع .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَو أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ أو قُطِّعَتْ بِهِ الأَرضُ أو كُلِّمَ بِهِ المَوتَىٰ ﴾[4] ، وبلاغة حذف جواب « لو » هنا أنه يشير إلى وضوحه وظهوره ، فلو أن قرآناً أوتي تلك القوة الخارقة ، لكان هذا القرآن جديراً أن تكون له هذه القوة .

ومن حذف جواب « إذا » قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّقُوا مَا بَينَ أَيدِيكُم وَمَا خَلفَكُم لَعَلَّكُم تُرحَمُونَ * وَمَا تَأتِيهِم مِن آيَةٍ مِن آيَاتِ رَبِّهِم إلَّا كَانُوا عَنهَا مُعرِضِينَ ﴾[5] ففي الآية الكريمة حذف جواب « إذا » وكأنه قيل لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون . أعرضوا .

---

(١) سورة السجدة ، الآية ١٢ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٣٠ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٢٧ .

(٤) سورة الرعد ، الآية ٣١ .

(٥) سورة يس الآية ٤٥ ، ٤٦ .

وسر بلاغة الحذف في الآية : الإشارة إلى أنه معروف وواضح عند المخاطبين ، لا يكاد يحتاج إلى أن يذكر ـ وفي الآية الثانية دليل عليه ، وبيان أن هذا الإعراض سجية لهم ، فلا تكاد الآية تأتي إليهم حتى يعرضوا عنها .

ومن حذف جواب . « لما » قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[1] ، والمعنى : فلما انقاذ الخليل وولده لأمر الله وطرح الوالد ولده على الأرض كما تطرح الذبيحة . ووضع السكين على عنقه تجلى للملأ الأعلى صدق عزيمته ، فأنعمنا عليه بالخلة حتى لقب بخليل الرحمن ، وناديناه على لسان ملك قائلين له : يا إبراهيم قد وفيت الرؤ يا حقها ، وبذلت جهدك في تحقيقها فجازيناك أحسن الجزاء ، لأن من شأننا أن نجزي كل محسن مثل ما جازيناك . وجواب « لما » محذوف ، وتقديره : ظهر صبرهما أو أجزلنا لهما أجرهما ، أوفديناه بكبش هذا رأي البصريين ، وللكوفيين رأي آخر لم يسلم من الأعتراض[2] وسر بلاغة حذفه لتذهب فيه النفس كل مذهب .

وقد يكون المحذوف جملة كما في قوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[3] ، فالآية الكريمة تصور لنا مشهداً من قصة إبراهيم عليه السلام ، وهو يبني الكعبة مع ابنه إسماعيل ، وكأنما نحن نشهدهما يبنيان ويدعوان الآن ، لا قبل اليوم بأجيال وأزمان .

نجد في الآية الكريمة حركة عجيبة في الإنتقال من الخبر إلى الدعاء ، هي التي أحيت المشهد ، وردته حاضراً ، فالخبر : « وإذ يرفع إبراهيم

---

(١) سورة الصافات ، الآية ١٠٣ ـ ١٠٥ .

(٢) أنظر فتح القديرح ٤ ص ٤٠ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٢٧ .

القواعد من البيت وإسماعيل . . . » ، والدعاء : « ربنا تقبل منا . . » ، وكم في الإنتقال هنا من الخبر إلى الدعاء من إعجاز فني بارز ، يزيد وضوحاً لو فرضت استمرار الحكاية . ورأيت كم كانت الصورة تنقص . لو قيل : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » إنها في هذه الصورة حكاية ، وفي الصورة القرآنية حياة ، وسر الحركة والبلاغة الفائقة كله في حذف جملة : « وهما يقولان » وذلك هو الإعجاز [١] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ . . لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَو كَرِهَ المُجرِمونَ ﴾ والمعنى كما قال العلماء : فعل ما فعل ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل :

فإحقاق الحق وإبطال الباطل سبب فيما حذف ، وهذا المحذوف مسبب عما ذكر - ومن بلاغته مع ما فيه من الإيجاز هو : أن تذهب النفس في هذا الفعل كل مذهب ، أو أنه فعل لا يسعه التعبير .

وقد يكون المحذوف جملاً كثيرة كقوله تعالى : ﴿ فَأَرسِلونِ * يُوسُفُ أَيُّها الصِّدِّيقُ ﴾[٢] ، والتقدير : فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤ يا فأرسلوه فأتاه ، وقال له : يوسف أيها الصديق .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَقُلنَا اذهَبَا إلَى القَومِ الذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرنَاهُم تَدمِيراً ﴾[٣] ، المحذوف ثلاث جمل ، تقديرها : فأتياهم ، فأبلغاهم الرسالة فكذبوهما فدمرناهم .

---

(١) أنظر التصوير الفني في القرآن ٤٩ ، ٥٠ للمرحوم سيد قطب .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية ٣٦ .

الحذف نوعان

والحـذف على وجهين : الأول : ألا يقـام شيء مقـام المحـذوف أي في مكانه ، بل يكتفي بالقرينة التي تشير إليه كما في قوله تعالى : ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[1] والقرينة اللفظيـة هي جملة : « فعدتهن ثـلاثة أشهـر » تشير إلى أن المحذوف بعد « واللائي لم يحضن » فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً ـ فالصمت عن الخبر ، وعطف اللائي لم يحضن على اللائي لم يحضن على اللائي يئسن ، مؤذن باتحادهما في الخبر .

الثاني : أن يقام مقام المحذوف ما يدل عليه في مكانـه ، وذلك كقـوله سبحانه : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾[3] والمعنى : أراد الله سبحانه أن يسلي نبيه حتى لا يجزع لتكذيبهم فقال عز وجل : فإن كذبوك بعد أن جئتهم بـالمعجزة الخـالدة ، وهي القـرآن الكريم الـذي لـو اجتمع الإنس والجن لما استطاعوا أن يأتوا بسورة منه ، فلا تحزن ، لأنه قد كذب رسـل من قبلك جاءوا لأممهم بالمعجـزات الواضحـات ، والمواعظ المؤثـرات والكتب المنيرة بطريق النجاة .

فجملة « فقـد كـذبت . . » ليست هي جـواب الشـرط ، وإنمـا هي علة لجواب الشرط المحذوف ، وتقديره « وإن يكذبوك فلا تحزن فقد كـذبت رسل من قبلك » .

---

(١) سورة الطلاق الآية ٤ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ٤ .

(٣)

أدلة الحذف

والحذف لا بد له من دليل يدل على المحذوف والأدلة الكثيرة منها العقل وحده نحو : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفاً صَفاً ﴾[1] والمعنى : جاء أمر الله ، لأن العقل لا يجيز مجيء الرب ، وإنما يأتي أمره ، فقد دل العقل على تعيين الحذف والمحذوف .

ومنها : أن يدل العمل على الحذف ، والعادة على التعيين ، نحو قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾[2] ، فإن العقل دل على أن فيه حذفاً ، إذ لا معنى للوم الإنسان على ذات الشخص إذ لا يلام الشخص إلا على فعل من أفعاله ، ودلت العادة على أن المحذوف المراودة دون الحب ، لأنه أمر اضطراري لا يلام عليه صاحبة بخلاف المراودة فمن الممكن ومنها أن يدل العقل على الحذف ، ويدل الشروع في الفعل على تعيين المحذوف نحو « بسم الله » فيقدر ما جعلت التسمية مبدأ له ، ففي القراءة يقدر : بسم الله أقرأ وعلى هذا القياس .

ومنها : أن يدل العقل على الحذف ومقارنة الكلام للفعل على تعيين المحذوف كما تقول لمن تزوج : « بالرفاء والبنين ، فإن مقارنة هذا الكلام لإعراس المخاطب دل على تعيين المحذوف ، أي : أعرست ، أو مقارنة المخاطب بالإعراس وتلبسه به دل على ذلك ، والرخاء : الالتئام والاتفاق ، والباء للملابسة إلى غير ذلك من الأدلة التي لا يصعب عليك معرفتها .

الإطناب

لعل أول من أشار إلى موطنه من غير تسمية ، وبين بعض أغراضه هو :

---

(١) سورة الفجر ، الآية ٢٢ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٣٢ .

أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفي سنة ٢١٠هـ في كتابه : « مجاز القرآن » ، إذ يقول : ومن مجاز المكرر للتوكيد قال : ﴿ إذ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوكَباً والشَّمْسَ والقَمرَ رَأَيتُهُمْ لِي سَاجِدينَ ﴾[1] ، أعاد الرؤية ، وقال : ﴿ أَولَىٰ لَكَ فَأَولَىٰ ﴾[2] أعاد اللفظ[3] .

ثم جاء أديبنا الجاحظ وأطال عنه الحديث محدداً له الحال والمقام الذي يستدعيه ، يقول : « وجملة القول في الترداد أنه ليس فيه حد ينتهي إليه ، ولا يؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص ، وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود ، وهارون وشعيب وإبراهيم ولوط ، وعاد وثمود ، وكذلك ذكر الجنة والنار ، وأمور كثيرة ، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم ، وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب »[4] .

ويقول : « وقد بقيت أبقاك الله » ـ أبواب توجب الإطالة ، وتحوج إلى الإطناب ، وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة ، ووقف عند منتهى البغية .

وكان ابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦هـ ، ونال أسلوب الإطناب على يديه تقدماً إذ عقد له باباً في كتابه : « تأويل مشكل القرآن » تحت عنوان « باب تكرار الكلام والزيادة فيه »[5] ، ويرى أن مذاهب العرب في فن القول ـ التكرار إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار وقد حدد ابن قتيبة للإطناب المقام والغرض الذي يستدعيه ، وهو عنده ـ بعد وقوعه في

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٤ .

(٢) سورة القيامة الآية ٣٤ .

(٣) مجاز القرآن ح ١ ص ١ .

(٤) البيان والتبيين ح ١ ص ١٠٥ .

(٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٨٢ .

موقعه ـ التعبير عن المعنى بعبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة ، فإن كانت الزيادة في اللفظ لغير فائدة ، فقد خرج الأسلوب عن مراتب البلاغة ، ولم يكن إطناباً ، بل كان الزائد تطويلاً أو حشواً وكلاهما عيب في الكلام .

والحق أن ابن قتيبة قد أبلى بلاء حسناً في معالجته لأسلوب الإطناب ، إذ ذكر له كثيراً من الأمثلة ، ووضح بعض الأغراض التي كانت عوناً ، وزاداً لا ينضب لمن أتى بعده من البلاغيين والنقاد .

ثم تناوله جميع البلاغيين تقريباً بعد ابن قتيبة ، ونوعوه إلى أنواع وحددوا كل نوع تحديداً دقيقاً .

تعريف الإطناب

وقد قالوا في تعريفه : هو عرض المعنى في عبارة زائدة بحيث تحقق الزيادة فائدة ، ومثلوا له بقول الله عز وجل على لسان زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي واشتعَلَ الرَّأْسُ شَيباً ﴾[1] فزكريا يريد أن يقول : « ربي إني قد كبرت » فأنت تلاحظ أن الألفاظ قد زادت عن المعاني ، ولكن هذه الزيادة لفائدة وهذه الفائدة ، لإظهار الضعف وتأكيده ، لأن كبرت إنما تدل على تقدم السن فقط ، وقد يكون زكريا مع تقدم سنه قوياً ، وهو يريد أن ينص على أنه ضعيف الجسم زيادة على كبر سنه ، وليس أدل على غرضه هذا من ضعف العظم وانتشار الشيب .

أما إذا كانت الزيادة في الكلام لغير فائدة ، فإن كانت بذكر شيء لا يمكن زيادته كالمترادفين في مثل : كذب ومين ، وحظ ونصيب ، وأقوى وأقفر ، كان الزائد تطويلاً .

---

(١) سورة مريم الآية ٤ .

ومنه قول عنترة :

حييت من طلل تقادم عهده　　أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فقد عاب النقاد عليه ذكر كلمتين بمعنى واحد ، وهما : « أقوى » و« أقفر » إذ المعنى لكل منهما « خلا » وإحدى الكلمتين زائدة ، فلا يتغير المعنى بإسقاط أيهما شئت ، وكقول عدي بن الرقاع :

وألفى قولها كذباً وميناً

فالكذب والمين بمعني واحد ، ولا يتغير المعنى بإسقاط أحداهما .

وكقول الحطيئة :

قالت أمامة لا تجزع فقلت لها　　إن العزاء وإن الصبر قد غلبا

هلا التمست لنا إن كنت صادقة　　مالاً نعيش به في الناس أو نشبا

فالعزاء والصبر بمعنى واحد ، وكذلك المال والنشب .

أما إذا كانت الزيادة لغير فائدة ، وكانت متعينة ولا يفسد بها المعنى ، سميت حشواً كقول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله　　ولكنني عن علم ما في غد عمى

فكلمة « قبله » حشو لأن الأمس لا يكون إلا قبلاً وهي متعينة .

ومنه قول الهذلي :

ذكرت أخي فعاودني　　صداع الرأس والوطبا

فذكر « الرأس » حشو ، لأن الصداع لا يكون إلا في الرأس .

ومن الحشو ما هو مفسد للمعنى كلفظ « الندى » في قول المتنبي :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى[1]　　وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

---

(١) الندى : الكرم .

فإن لفظ « الندي » في البيت حشو يفسد المعنى ، لأن المعنى ، ولا فضل في الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت .

وهذا حكم صحيح بالنسبة للشجاعة والصبر ، لأنهما إنما يكونان من الفضائل فيهما من الإقدام على الموت ، لأن الشجاع إذا علم أنه خالد ولا يصيبه الموت فيكون إقدامه وشجاعته لا فضل فيهما ، لأنه أقبل على البطولة وهو عالم بأن الموت لا يصيبه ، وكذلك الصابر إذا علم أنه خالد فيكون صبره لا فضل فيه ، لأنه يعتقد أنه لا يصيبه الموت ، أما الشجاع والصابر إذا علما أن الموت أمامهما وأقدما عليه ، فيكون الصبر والشجاعة حينئذ من الفضائل .

أما الندى أي : الكرم لا يكون فضيلة إلا إذا اعتقد صاحبه بأنه خالد في الدنيا ، فإن فضل جوده وكرمه يظهر . وذلك لأن الخلود يوجب الحاجة إلى المال ، ويدعو إلى الحرص عليه ، فإذا بذله مع تلك الحال ، فإنما يقاوم في نفسه الشعور بهذه الحاجة ، ويتغلب على نزعة الحرص على المال بخلاف ما إذا علم أنه سيموت ، وأنه سيترك المال لغيره هان عليه بذله وعطاؤه وحينئذ لا يكون له فضل أكبر في البذل والعطاء .

فواضح أن وضع كلمة « الندى » بجوار الشجاعة والصبر ـ حشو يفسد المعنى كما رأيت .

والحكم بزيادة كلمة من الكلمات ، وخلوها عن الفائدة مرتبط بالمقام والحال التي قيلت في جوه الكلمة .

فمثلاً قولنا : « رأيته بعيني » ، و« قبضته بيدي » ، و« وطأته بقدمي » ، و« ذقته بفمي » كل هذا قد يقال فيه : إن فيه زيادة لا حاجة إليها ، لأن الرؤية لا تكون إلا بالعين ، والقبض لا يكون إلا باليد ، والوطء لا يكون إلا بالقدم والذوق لا يكون إلا بالفم ، وليس الأمر كذلك ، لأن هذه الجمل إنما تقال في كل شيء يعظم مناله ، ويعز الوصول إليه فيؤتى بذكر هذه الأدوات على

جهة الإطناب دلالة على نيله ، وأن حصوله غير متعذر .

وعلى هذا ورد قوله تعالى : ﴿ وَتَقولُونَ بِأَفواهِكُم مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلمٌ وَتَحسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُو عِندَ الله عَظيمٌ ﴾[1] معلوم أن القول لا يكون إلا عن طريق الفم ، ومن هنا قد يظن بادىء ذي بدء أن كلمة « بأفواهكم » مزيدة بدون فائدة ولكن حينما تعلم أن الآية الكريمة نزلت للرد والإنكار على أهل الإفك في الرمي بفاحشة الزنا لمن هي ظاهرة العفاف والستر ، وكان هذا القول فيه افتراء وإثم عظيم ، سجل الله على قائله هذا التسجيل مبالغة في الإنكار .

وعليه قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللهُ لِرجُلٍ مِن قَلبينِ في جَوفِهِ وَمَا جَعلَ أزواجَكُم الَّلائي تُظاهِرونَ مِنهُنَّ أُمهاتِكُم وَمَا جَعَلَ أدعِياءَكُم أبنَاءَكُم ذٰلِكُم قَولُكُم بِأفواهِكُم وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُو يُهدِي السَّبِيلَ ﴾[2] ، فأنت ترى أن مساق الكلام أن الإنسان يقول لزوجته : « أنت علي كظهر أمي » ، ويقول لمملوكه « يا بني » ، فضرب الله مثالاً ، فقال . كيف تكون الزوجة أماً ؟ وكيف يكون المملوك ابناً ؟ والجمع بين الزوجية والأمومة ، وبين العبودية والبنوة في حالة واحدة كالجمع بين القلبين في الجوف ، وهذا تعظيم لما قالوه ، وإنكار له ، وكان في ذكر الجوف فائدة عظيمة ، لأن الكلام في حال الإنكار والتعظيم ، ففيه زيادة تصوير للمعنى المقصود ، لأنه إذا سمعه المخاطب به ، صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين فكان ذلك أسرع إلى إنكاره[3] .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عليهِمُ السَّقفُ مِن فَوقِهِم ﴾[4] فإن

---

(١) سورة النور ، الآية ١٥ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٤ .

(٣) أنظر الطرازج ٢ ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٤) سورة النحل الآية ٢٦ .

المعلوم من حال السقف ، أنه لا يكون إلا من فوق ـ وأنت تجد أن الآية الكريمة ذكرت « من فوقهم » .

ومن ثم قد يظن أنها زائدة ، ولكن إذا علم أن الغرض المبالغة في الترهيب والتخويف والإنكار والرد زال هذا الظن ، وتحقق لنا أنها واقعة في موقعها . وأن لها فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام ، وأنت تحس هذا من نفسك ، فإنك إذا تلوت هذه الآية يخيل إليك أن سقفاً خر على أولئك من فوقهم ، وحصل في نفسك من الرعب ما لا يحصل مع إسقاط تلك اللفظة[1] .

طرق الأطناب وأغراضه

للأطناب طرق وأغراض بلاغية كثيرة ومن أهمها ما يلي :

١ ـ ذكر الخاص بعد العام وهو : أن يذكر الخاص أولاً داخلاً في عموم جنسه ، ثم يذكر ثانياً وحده تعظيماً له وتنويهاً بشأنه .

قال تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾[2] ، الروح : جبريل عليه السلام ، فأنت ترى أن الآية قد ذكرت الملائكة ، ثم خصت الروح بالذكر وهو جبريل مع أنه داخل في عموم الملائكة تكريماً له ، وتعظيماً لشأنه كأنه جنس آخر ، ففي الآية اطناب طريقه ذكر الخاص بعد العام فجبريل ذكر مرة مع عموم الملائكة ثم ذكر مرة ثانية وحده ، وغرض الإطناب هنا التنويه بشأن الخاص .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾[3]

---

(١) أنظر المثل السائر ص ٣٦٠ ، ٣٦١ القسم الثاني تحقيق الحوفي وبدوي .

(٢) سورة القدر ، الآية ٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٨ .

فالصلاة الوسطى « العصر » داخلة في عموم الصلوات ، وخصها بالذكر لزيادة فضلها ، والتنبيه على مزيتها .

وتقول الآية الكريمة : ﴿ وَلتَكُن مِنكُم أُمَّة يَدعُونَ إلىٰ الخيرِ وَيأمُرونَ بالمعرُوفِ ﴾[1] فالأمر بالمعروف داخل في عموم الدعوة إلى الخير ، ولكنه خص بالذكر للإشارة إلى مكانه من الشرف والفضل .

٢ ـ ذكر العام بعد الخاص : لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص كما في قوله تعالى : ﴿رَبِّ اغفِرْ لِي وَلِوَالِديَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيتِيَ مُؤمِناً وَللمُؤمِنِينَ والمُؤمِناتِ﴾[2] فقد ذكر الله سبحانه المؤمنين والمؤمنات ، وهما لفظان عامان ، يدخل فيهما من ذكر قبل ذلك . لإفادة العموم ، مع العناية بالخاص لذكره مرتين : مرة بلفظه ، ومرة مندرجاً تحت العام .

٣ ـ التكرير : ويأتي لتقرير المعنى في النفس ، كما في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوفَ تَعلَمونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوفَ تَعلَمونَ ﴾[3] ، فقد أكد الإنذار بتكريره ليكون أبلغ تأثيراً ، وأشد تخويفاً .

وقد يكون لاستمالة المخاطب به وترغيبه في قبول النصح والإرشاد ، كقوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَومِ اتَّبِعُونِ أَهدِكُم سَبيلَ الرَّشَادِ * يَا قَومِ إنَّما هٰذِهِ الحَياةُ الدُّنيَا مَتاعٌ وإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرارِ ﴾[4] ففي تكرير « يا قوم » استمالة لأنفسهم وقلوبهم حتى لا يشكو ولا يرتابوا في إخلاصه لهم في نصحه .

وقد تكررت في بعض سور القرآن آيات للمبالغة في التحذير ، كما في

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

(٢) سورة نوح الآية ٢٨ .

(٣) سورة التكاثر الآية ٣، ٤ .

٤) سورة غافر ، الآية ٣٨ ، ٣٩ .

سورة « المرسلات » مثل : ﴿ وَيلٌ يومئذٍ للمُكذِّبين ﴾ وفي سورة القمر : ﴿ وَلَقد يَسَّرنَا القُرآنَ لِلذِّكر فَهَل مِن مُدَّكِرٍ ﴾

أو للتذكير بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى ، كما في سورة : « الرحمن » مثل : ﴿ فَبِأَي آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴾ .

٤ ـ الإيضاح بعد الإبهام : وهو أن يذكر المعنى مجملاً ، ثم مفصلاً ، فيزيده ذلك رونقاً وبهاء كما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الذِينَ آمَنوا هَل أَدُلُّكم علىٰ تِجارةٍ تُنجيكُم مِن عَذابٍ أَليمٍ * تُؤمِنونَ بِاللهِ وَرَسولِهِ وَتُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ بِأَموالِكُم وَأَنفُسِكُم ﴾[1] فقد أبهم التجارة إبهاماً يدعو إلى الشوق إلى معرفتها ، ثم فسرها بقوله : « تؤمنون » .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَضَينا إِلَيهِ ذَلِكَ الأَمرَ أَنَّ دابِرَ هَؤُلاءِ مَقطوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾[2] فأنت ترى أن الآية أبهمت في كلمة « الأمر » لجذب الذهن إلى معرفة ذلك الأمر ، ثم وضحته بعد ذلك بقوله : « إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » تهويلاً لأمر العذاب ، وتقريراً للمعنى في ذهن السامع بذكره مرتين : مرة على طريق الإجمال والإبهام ، ومرة على طريق الإيضاح والتفصيل ، والشيء إذا ذكر مرتين على النحو السابق كان آكد في الذهن وأشد التصاقاً في النفس .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمَدَّكُم بِما تَعلَمونَ * أَمَدَّكُم بِأَنعامٍ وَبَنِينَ ﴾[3] ففي الآية إطناب بالإيضاح بعد الإبهام ، فقد ذكر الأنعام مجملة في قوله تعالى : « بما تعلمون » . ثم ذكرها مفصلة في قوله : « بأنعام وبنين » ، وذلك تشويقاً إلى معرفتها ، وتنبيهاً إلى شرفها ونبلها .

---

(١) سورة الصف ، الآية ١٠ ، ١١ .

(٢) سورة الحجر ، الآية ٦٦ .

(٣) سورة الشعراء ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾[1] فقوله سبحانه: « فوسوس إليه الشيطان » كلام مجمل فصل وبيِّن ووضح بما جاء بعده.

ومن الإيضاح بعد الإبهام، التوشيع: وهو في اللغة: لف القطن المندوف، وفي الاصطلاح: أن يؤتى في عجز الكلام غالباً بمثنى مفسر باسمين. ثانيهما معطوف على الأول، نحو قولهﷺ: « يشب ابن آدم وتشب معه خصلتان: الحرص وطول الأمل »، وقولهﷺ: الخمر من هاتين الشجرتين: النخلة والعنب.

ومنه قول الشاعر:

أمسي وأصبح من تذكاركم ... يرثي لي المشفقان الأهل والولد
قد خدد الدمع خدي من تذكركم ... واعتادني المضنيان الوجد والكمد
وغاب عن مقلتي نومي لغيبتكم ... وخانني المسعدان: الصبر والجلد
لا غرو للدمع أن تجري غوار به ... وتحته المضربان: القلب والكبد
كأنما مهجتي شلو بمسبعة ... ينتابها الضاريان: الذئب والأسد
لم يبق غير خفي الروح في جسدي ... فدى لك الباقيات: الروح والجسد

فهذه الأبيات كل منها احتوى على إطناب بطريق التوشيع أو إذا شئت قلت بطريق الإيضاح بعد الإبهام.

ويقول ابن أبي الإصبع العدواني المصري: إن هذه الأبيات جيدة لو لم يقع في البيت الأول منها تقصير: عما يجب في مثله على الطريقة المحمودة من طرائق النسيب حيث قال: « يرثى لي المشفقان »، فإنه ليس من الكلام البليغ قول من يشكو محنة: « قد رثى لي المشفق منها » وأبلغ منه قول من

---

(1) سورة طه، الآية ١٢٠.

يقول : رثى لي العدو ، ورق لي الصخر وأشباه ذلك »[1] .

٥ ـ التذييل : ويكون بتعقيب جملة بجملة أخرى مشتملة على معناها لتأكيد منطوق الأولى أو مفهومها ، وجملة التذييل على نوعين :

نوع لا يزيد على المعنى الأول ، وإنما يؤتى به للتوكيد والتحقيق ، وقسم يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر ليحقق به ما قبله :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُم وَأَموالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَّوراةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرآنِ وَمَن أَوفَىٰ بِعَهدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾[2] ففي الآية الكريمة تذييلان : أحدهما قوله تعالى : « وعداً عليه حقاً » فإن الكلام قد تم قبل ذلك ، ثم أتى سبحانه بتلك الجملة لتحقق ما قبلها .

والآخر قوله سبحانه : « ومن أوفى بعهده من الله » فخرج هذا الكلام مخرج المثل السائر لتحقيق ما تقدمه ، تذييل ثان للتذييل الأول .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ﴾[3] ففي الآية : إطناب طريقه التذييل ، لأن جملة « إن الباطل كان زهوقاً » مؤكدة لمنطوق الجملة الأولى « زهق الباطل » وفائدته التسجيل على الباطل بأن الحق سينتصر عليه مهما طال الأمد ، وجملة : « إن الباطل كان زهوقاً » جارية على الألسن ، ومستقلة بمعناها عن الجملة الأولى : « زهق الباطل » ، ومن هنا يقولون إن التذييل جار مجرى المثل .

وعليه قول الحطيئة :

---

(١) أنظر تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ص ٣١٥ ـ ٣١٨ بتحقيق شرف .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١١١ .

(٣) سورة الأسراء الآية ٨١.

تـزور فتًى يعطي على الحمـد مـالـه ومن يعط أثمـان المحامـد يحمـد

ففي البيت تـذييل جـار مجرى المثـل ، إذ أن جملة : « ومن يعط أثمـان المحامد يحمـد » توكيـد لمنطوق الشـطر الأول ، ومستقل بمعنـاه وجـار على الألسنة .

وفيه تعطف حسن في قوله : « يعطي ويعط » .

ومثله قول النابغة الذبياني :

ولـست بـمستبـق أخـا لا تـلمـه على شعث أيُّ الـرجـالِ المهـذب

فقوله : « أي الـرجال المهـذب » من أحسن تذييـل وقع في شعـر ، وجار مجرى المثل .

ومثله قول الشاعر :

ودعـوا نـزال فـكـنـت أول نــازل وعــلام أركـبـه إذا لـم أنـزل ؟

ففي البيت إطنـاب طريقـه التذييـل ، وهو جملة : « وعـلام أركبـه إذا لم أنزل » وهو تذييل حسن خرج مخرج المثل .

وتقـول الآية الكـريمة : ﴿ ذٰلِـكَ جَزيْنَـاهُم بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إلاَّ الكَفـورَ ﴾[1] فقولـه : « وهل نجازي إلا الكفـور » تـذييـل لا يجـري مجـرى المثل ، لأن معناه لا يفهم إلا بما قبله .

وعليه قول الشاعر :

لـم يبـق جـودك لـي شيئـاً أؤمـلـه تـركتني أصحب الـدنيـا بـلا أمـل

ففي البيت إطناب طريقة التذييل ، وهو جملة : « تـركتني أصحب الدنيـا بلا أمل » .

---

(١) سورة سبأ الآية ١٧ .

٦ ـ الاعتراض : وهو أن يؤتى في الكلام ، أو بين كلامين متصلين في المعنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لفائدة زائدة كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾[1] ففي قوله : « وإنه لقسم ـ لو تعلمون ـ عظيم » اعتراضان : أحدهما : « وإنه لقسم عظيم » والآخر : « لو تعلمون » ، أريد بهما تعظيم القسم وتفخيم أمره ، وفي ذلك تعظيم للمقسم عليه ، وهو : « القرآن الكريم » وتنويه برفعة شأنه ، وذلك يكون أوقع في النفوس ، وأدخل في البلاغة .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لله البَنَاتِ سُبحانَهُ وَلَهُم مَا يَشتَهُونَ ﴾[2] ، فقوله : « سبحانه » كلمة تنزيه أوردها اعتراضاً بين الجملتين مبالغة في التنزيه عما نسبوه إلى الله سبحانه من اتخاذ البنات ، ومبالغة في الإنكار عليهم في هذه المقالة .

فانظر إلى ما اشتملت عليه هذه اللفظة ، وهي قوله : « سبحانه » من حسن الموقع بكونها واردة على جهة الاعتراض ، وما تضمنته من الفوائد الشريفة والأسرار الجليلة ، من الإنكار والرد والتهكم ، وإظهار التعجب من حالهم وغير ذلك من اللطائف[3] ، وهو إطناب طريقه الاعتراض .

وعليه قوله تعالى : (قالوا تالله ـ لقد علمتم ـ ما جئنا لنفسد في الأرض) ففي القول الكريم إطناب طريقه الاعتراض بجملة : « لقد علمتم » فقد وردت بين القسم « تالله » وجوابه . « ما جئنا لنفسد في الأرض » وفائدته تقرير علمهم بالبراءة عن الفساد ، والبعد عن تهمة السرقة .

---

(١) سورة الواقعة الآية ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧.

(٢) سورة النحل الآية ٥٧ .

(٣) الطراز ص ١٧٠ ح ٢ .

ومن ذلك قول كثير عزة :

لــو ان البـاخلين وأنت منهم رأوك لعلّموا الناس المطالا

ففي البيت إطناب طريقه الاعتراض ، وهو جملة « وأنت منهم - اعتراض بين لو وجوابها ، وفائدته التصريح بما هو مقصود من ذمه ، وتأكيد انصراف الذم إليه .

ومنه قول أبي تمام :

رددت رونق وجهي في صحيفته رد الصقال بهاء الصارم الخذم

وما أبالي وخير القول أصدقه حقنت لي ماء وجهي أم حقنت دمي

ففي البيت إطناب طريقه : الاعتراض ، وهو جملة : « وخير القول أصدقه » وبلاغته تحقيق المماثلة بين صيانة الوجه وحقن الدم[1] .

ومنه قول الشاعر :

إن الثمانين - وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فقوله : « وبلغتها » دعائية أريد بها إثارة عطف الممدوح ، وإطناب طريقة الاعتراض .

٧ - وقد يأتي الإطناب بطريق الاحتراس : وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع هذا الوهم ، كقول ابن المعتز يصف الخيل .

صببنا عليها - ظالمين - سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

ففي البيت إطناب بطريق « الاحتراس » ، وهو بكلمة « ظالمين » وفائدته دفع ما قد يتوهم من أنها كانت بطيئة السير لا تجري إلا بالضرب ، وهذا خلاف المقصود ، لأنه في مقام المدح .

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٤ ح ٢ .

ومنه قول طرفة بن العبد :

فسقى ديارك - غير مفسدها - صوب الربيع وديمة تهمي

ففي البيت إطناب بطريقة الاحتراس وهو : « غير مفسدها » ولما كان المطر إذا زاد عن حده سبب الخراب والدمار ، دفع هذا الوهم بقوله : « غير مفسدها » فأكد رغبته الصادقة في الدعاء لها .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأتي اللهُ بِقَومٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَىٰ المُؤمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الكَافِرِينَ ﴾[1] والمعنى : أن من يرجع إلى الكفر فسوف يأتي الله بقوم فيهم ست سفات حميدة : الأولى يحبهم الله ، والثانية : يحبونه . والثالثة والرابعة : أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين والخامسة : يجاهدون في سبيل الله باخلاص ، والسادسة : ولا يخافون لومة لائم .

والشاهد في الآية : أن فيها إطناباً طريقه الاحتراس ، وهو : بجملة : « أعزة على الكافرين » فلو اكتفت الآية الكريمة بقولها : « أذلة على المؤمنين » فقد يتوهم أن في ذاتهم ضعف ، ولذلك إحترس بقوله : « أعزة على الكافرين » ليزيل هذا الوهم .

٧ - وقد يكون الإطناب طريقة « التتميم » ، وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة : مثل مفعول ، أو حال ، أو نحو ذلك ، مما ليس بجملة مستقلة ، ولا ركن كلام ، وذلك يكون لفائدة كالمبالغة في المدح كما في قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾[2] ، فان إطعام الطعام على حبهم له ، وحاجتهم إليه ، أدل على

(١) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٢) سورة الإنسان الآية ٨ .

الكرم مما لو كان عن غنى ـ هذا إذا كان الضمير في « حبه » يعود على الطعام أي : ويطعمونه مع حبه والاحتياج إليه ، وإن جعل الضمير « لله » تعالى ، أي يطعمونه على حب الله فهو لتأدية أصل المراد .

ومن الإطناب بطريق التتميم قول زهير :

من يلق يوماً على علاته هرماً يلق السماحة منه والندى خلقاً

فقوله : « على علاته » أي : على كل حال من غنى أو فقر تتميم جميل .

٨ ـ وقد يكون الإطناب طريقه « الإيغال » ، وهو : ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها ، كزيادة المبالغة في قول الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

ففي البيت إطناب في قولها : « في رأسه نار » لأن قولها : « كأنه علم » واف بالمقصود ، لأنها شبهته بالعلم الذي هو الجبل المرتفع المعروف بالهداية ، وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس ، فزيد عليه قولها : « في رأسه نار » لزيادة المبالغة في التشبيه .

وقول ذي الرمة :

قف العيس في أطلال مية واسأل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل

أظن الذي يجدي عليك سؤالها دموعاً كتبذير الجمان المفصل

العيس : الإبل يخالط بياضها سواد خفيف ، والأطلال : جمع طلل ، وهو الشاخص من الآثار ، بخلاف الرسوم . والأخلاق : جمع خلق وهو البالي ، والمسلسل الرديء النسج ، والتبذير : التفريق . والجمان المفصل : اللؤلؤ المنظم والمعنى : أنها لا تجيب سؤاله ، فيبكي .

وأنت ترى في البيت الأول أنه شبه الرسول بالرداء البالي فتم له ما أراد

ولما أراد أن يزيد في المبالغة وصف الرداء بالمسلسل ، فكان إطناباً طريقه الإيغال .

وكذلك في البيت الثاني حيث وصف الدموع بالجمان ، فلما أراد أن يزيد في المبالغة وصف الجمان بالمفصل ، فكان إطناباً طريقه « الإيغال » .

ومنه قول امرىء القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب

والمراد بالوحش : الظباء وبقر الوحش التي يصيدونها ، ويرمون عيونها حول خبائهم ، والخباء ما كان من وبر أو صوف ، والأرحل جمع رحل ، وهو المنزل والمأوى ، والجزع خرز فيه سواد وبياض شكل دوائر .

فقد شبه عيون الوحش بالجزع ، وتم له التشبيه قبل نهاية البيت ، فلما احتاج إلى القافية أتى بزيادة حسنة في قوله : « لم يثقب » ، لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون فهذه الزيادة جعلت التشبيه دقيقاً ومحققاً ، فهي إطناب طريقه الإيغال .

ومثله قول زهير :

كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب الفنا لم يحطم

الفتات اسم لما انفت وتقطع من الشيء ، والعهن الصوف المصبوغ ، والفنا : عنب الثعلب ، شبه فتات الصوف المصبوغ الذي زينت به الهوادج بحب الفنا في حمرته قبل تحطيمه ، لأنه إذا حطم تزول حمرته ، والشاهد في قوله : « لم يحطم » حيث أتى بها بعد تمام التشبيه ليكون دقيقاً ومحققاً ، فهي إطناب طريقه « الإيغال » .

ومثله قول امرىء القيس :

حملت ردينيا كأنه سنا لهب لم يتصل بدخان

فقد شبه الشاعر السيف بضوء اللهب في البريق واللمعان ، ولما كان اللهب يخالطه شيء من الدخان وهذا لا يوجد في وجه الشبه ، أخرجه الشاعر بقوله : « لم يتصل بدخان » ، فجاء التشبيه دقيقاً ومحققاً ، فجملة : « لم يتصل بدخان » زيادة حسنه ، فهي إطناب طريقه « الإيغال » .

المساواة

يقولون عنها : إنها تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له ، بأن تكون الألفاظ على قدر المعاني ، لا يزيد بعضها على بعض ، ولا ينقص ، ويمثلون لها بقول طرفه بن العبد الشاعر الجاهلي :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويقولون : إن الألفاظ في هذا البيت على قدر المعاني ، لا تنقص عنها ، ولا تزيد ، ولو حاولت أن تزيد فيه لفظاً لجاءت الزيادة فضولاً ، أو أردت أن تسقط كلمة لكان ذلك إخلالاً .

ومن المساواة قوله جل وعلا : (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً) .

تم بحمد الله الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث الذي يبدأ بالباب الثاني الذي يتحدث عن البيان .

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مُحتويات الجزء الثاني